شهادة الثقافة

الدكتورة نجاح العطار

ان نجتمع اليوم ، في رحاب الدورة الخامسة لمؤتمر الوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية ، امر جيد في حد ذاته ، لكنه في الطموح الى مستقبل ثقافي شامل ، يصبح المؤتمر حاملا للثقافة العربية ، غايته انتاج الثقافة ذاتها ، وهي مهمتنا الاصلية ، باعتبارنا المسؤولين عن النتاج الثقافي ونشره ، واتخاذه سلاحا من أسلحة النضال على الجبهة الفكرية .

* كلمة وزيرة الثقافة في مؤتمر وزراء الثقافة العرب في تونس العاصمة.

اقول هذا ، وفي ظني ، كما في ظنكم جميعا ، التقدير الكبير لدور الثقافة ، باعتبارها الحضور الرئيسي، والاساسي للوجود البشري ، في عالمنا كله ، سابقا ولاحقا .

ذلك ان عنوان نهضة ما ، وريادة ما ، لا يؤخذ في قرننا العشرين هذا ، الا بمقدار ما يستمد من الثقافة شهادته ، مادام التفاضل ، بين امة واخرى ، لا يرتبط بالخامات ، وما ينشا عنها من صناعات ، الا بمقدار ما ترتبط هذه بالتقدم التقني الذي ابدعها ، والتقنية دون ثقافة لا تكون ، فالعلم في اساسه ثقافة ، والثقافة في هذا الزمن ، سعة المحيطات ، لان الاخذ من كل شيء بطرف صار حكاية قديمة جدا ، فالمثقف جامعة معرفة للعلوم الانسانية والرياضية والادبية ، وهذه المعرفة شرط للتعامل مع الالة ، مركبة فضائية كانت ، ام طائرة ، ام صاروخا ، ام حاسبة ذاكرتها خاتم مسحور تخاله من عالم الجن ، بينما هو بدع انسان .

ان الواقع هو الذي يصنع التاريخ ، وراية التاريخ ، في مجد شموخها لا تغزل من حرير شرنقة فقط ، ولا من قافية شرود فحسب ، بل تغزل ، قبل ذلك وبعده ، من وهج دم ارجواني ، بذلته الشعوب راضية ، في مسيرتها الظافرة ، منذ وعى الدهر نفسه ، فكان سفرا ضخما لها ، ومـا يزال .

وكما الحق والسيف في نسب العلى ، توامان ، كذلك الثورة والفكر ، في نسب الرسالة ، توامان ، احدهما للنار، وثانيهما للنور ، ومن نار ونور تضوات دنيانا ، وشقت حجب الظلام ، في اندفاعتها المباركة الى امام .

ذلك ان الحضارة فكر ، والفكر حضارة ، وفي عناقهما ، من الازل الى الابد ، يتشهى حلم الشوق الى المستقبل ، ويمتشق السيف لتحقيق الحلم ، ويتشكل حداء القافلة اهزوجة نصر للحياة .

هكذا تمتد يدان صانعتان ، يد للبناء على الارض ، واخرى لاشعال شموع في المجرة ، يد للبندقية تحريرا ،ويد للحضارة تاصيلا ، ومن التحرير والتاصيل بدائع هذا الكون ، انجازا يتطاول ، غرسة زيتون للذراري ، وساقية ماء للعطاش ، والخضرة من بعد ، وكل شيء حي .

على هذا النحو ، يمكن ان نفهم دور الثقافة التي ننشدها . ويمكن ان نعرفها بانها ثقافة مقاتلة ، بانية ، صانعة ، خلاقة ، وهي ثقافة وطنية ، قومية ، تقدمية ، انسانية ، تقف ضد كل ما يخالف هذه القيم في الثقافات الاخرى .

وفي رسم الخطة الشاملة للثقافة العربية ، علينا ان نكون من الامر على بينة ، لانه لا يصح ان تكون لنا ثقافة ، اي ثقافة ، بل ان تكون لنا ثقافة معينة ، هي التي نحتاجها في عصر التنوير الذي ننشده ، العصر الذي نواجه فيه تحديات الاعداء ، تقنية ، وعدوانية ، وغزوا ثقافيا ، وخطرا على الوجود والمصير معا ، مادام عدونا يستخدم في حربه ضدنا ، كل الاسلحة ، ومنها سلاح التكنولوجيا ، وسلاح الثقافة ، وسلاح الاعلام على السواء .

لذلك ليس مصادفة ان عمليتنا الثقافية تنطلق من مفهوم بناء المواطن فكريا ، وبناء الوطن عسكريا واقتصاديا

واجتماعيا ، وتتحدد بكونها خطة في فهم الوظيفة الاجتماعية للثقافة ، ودورها في ادلجة القومية العربية ، ونشر وتعميق فكرة الوحدة العربية ، ووحدة الثقافة العربية وترسيخ روح البذل والعطاء والفداء ، على اساس التوجه القومي ، النضالي ، الانساني .

ومثل هذه العملية الثقافية التي ينبغي معالجتها ، وتحديد هويتها ومفهومها ، وتوصيف هدفها وغايتها ، والوصول بها الى نسق فكري ، قوامه نشر المعرفة والوعي ، وتنوير الاذهان ، وتقديم الثقافة خدمة مجانية من الدولة الى الشعب ، وايجاد وسائل انتاج مثل هذه الثقافة واستهلاكها كل ذلك يحتاج منا الى بحث ومناقشة ، والى تعميم ، وتكريس . لياتي العمل لوضع خطة شاملة للثقافة العربية ، قائما على اساس المشكلة ، ومطروحا طرحا صحيحا ، ومفهوما فهما صحيحا ايضا ، لاننا ، قبل الان ، ما كنا نملك فهما مشتركا موحدا للثقافة ، او اسلوبا واضحا لانتاجها او طريقة خاصة لتعميمها .

لقد عالجنا في الدورات السابقة ، بعض شئون الثقافة ، كتصديها للغزو الثقافي الصهيوني ، والامن الثقافي ، وقضية توصيل الثقافة ، وتبادلها ، وضرورات تسهيل كل ذلك ، وهي اشياء مهمة ، غير اننا هذه المرة مدعوون للبحث في الخطة العربية الشاملة للثقافة ، والاتفاق على مضمونها وشكلها ، وعلى تعريفها وتوضيحها ، والالتزام بهذه الخطة ، والسعي الدؤوب لتطبيقها .

واصارحكم أن عنوان هذه الدورة ، وهو خطة ثقافية شاملة ، من اجل مستقبل عربي افضل ، عنوان عريض ، رحب المدى ، ضخم المحتوى ، وقد بذلت جهود كبيرة مشكورة في وضع هذه الخطة ، سواء من قبل اللجنة الخاصة المكلفة بذلك ، أو من قبل الاساتذة الباحثين الذين امدوها بارائهم وتصوراتهم . وأستطيع القول ، باطمئنان ، ان المبادىء النظرية ، والاسس الموجهة للخطة الثقافية المنشودة وما فيها من تعريف وتوصيف ، وفلسفة ، وروح عربية اصيلة ، ومبادىء عامة دقيقة ، قد أرسى القواعد السليمة لها ، وجعلها بيانا ثقافيا يحسن اعتماده ، بعد المناقشة التي ستنميه وتغنيه .

لقد وضعنا ، في المؤتمر الاول لوزراء الثقافة العرب ، الذي عقد في عمان ١٩٧٦ ، بعض المسلمات النظرية للثقافة العربية ، نصت على ان الثقافة هي قوام شخصية الامة ، والمعبر الاصيل عن تطلعاتها وأمانيها ، والدعامة الحقيقية لوحدتها الشاملة ، وانه بات ضروريا وضع سياسة ثقافية عربية موحدة ، واضحة الاهداف والمعالم والوسائل ، تلتزم بها الدول العربية ، كما بات التكامل الثقافي العربي ، والايمان بالدور الحضاري الرائد للثقافة العربية ، مسؤولية الامة العربية في نشر الثقافة العربية ، والقضاء على جميع اثار الاستلاب الثقافي والغزو الفكري الظاهر والمستتر ، وانشاء وزارات للثقافة في كل قطر عربي .

وقد تم بالفعل انشاء وزارات للثقافة ، تاخذ حيزها وحجمها من المتطلبات الثقافية التي تنشا في كل قطر ،

وتسعى هذه الوزارات في هذا البلد او ذاك الى ان تصبح منتجة وناشرة للثقافة ، على اساس واضح ، هو ان الثقافة العربية ثقافة قومية وانسانية ، تستند الى اصول الامة العربية وتراثها ، وتستوعب تيارات العصر ، وتشارك مشاركة ايجابية متفتحة اخذا وعطاء في تقدم الحضارة العالمية .

ان أول ما نلاحظه بعد الاطلاع على الخطة الثقافية الشاملة ، واستعراض اهدافها ومبادئها ، هو التخطيط السليم لها ، والتحديد الواسع لاهدافها ، فقد نصت هذه الاهداف على تطوير البنى الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، لان الثقافة ركن البناء الحضاري ، وأساس تماسك الامة ، كما نصت على التنمية الثقافية ، وابراز الهوية الحضارية العربية الاسلامية ، وتحقيق التحرر القومي الشامل ، بوصف الثقافة عنصر دفاع ورفض للتبعية والاستلاب والتشويه ، ثم نصت على تكوين شخصية المواطن العربي واغنائها ، وتاكيد حق الانسان العربي في اكتساب الثقافة ، وحقه في حرية التعبير عنها ، وهو مبدا اساسي ، وحق مشروع ، وديمقراطية نوهت بها الخطة ، ونصت على ضرورتها في اكثر من موضع فيها .

ومن البدهي ان عصرنا هو عصر الثقافة ، وهذه ظاهرة انسانية تفرض نفسها بقوة ، لانها تشكل الحضور الاساسي للامم ، وهي عطاء الحياة الاكبر ، لانها تقوم بوظيفة اجتماعية تتحدد معها كل الوظائف الاجتماعية الاخرى ، وتعريف الثقافة واسع ، متباين ، متشابه ، لكنه ، بكلمات ، نتاج

الذهن والسلوك الانسانيين ، على مدى التاريخ ، وقدحددت الخطة بدقة ، مفهوما شاملاللثقافة ، واحسنت بذلك صنعا، لان خطة ما ، لا تبنى الا على مفهوم واضح ودقيـــق ، ولا تطبق الا من خلال هذا الوضوح وقد تكون ، ولا بد ان تكون، لنا آراء في شروط انتاج هذه الثقافة ونشرها ، لكننا ننطلق من الاقرار بان الثقافة تراث الامة المادي والروحي ،وسلوكها الحياتي ، وابداعها المتطور ، ومثلها العليا ، وطموحاتهـا المستقبليـة .

ولا يميل الباحث الى المغالاة ، اذا لاحظ ان الثقافـة العربية من اعرق ثقافات العالم ، وانها اعطت البشرية في عصورها الماضية ، عطاءات اكتسبت معها الصفة العالمية ، وهي ثقافة تقوم على التواصل ، الانفتاح ، الرحابة ،وتتبادل وتتفاعل مع الثقافات الاخرى ، وتستمر خـلال ذلـك في النمو ، وتواصل الصمود ، وقد كانت عصية على الاستلاب، ورفضت التبعية ، والاستيعابية من قبل الثقافات الاخرى، كما رفضت التعددية ، ذلك ان ثقافتنا ثقافة واحدة موحدة لامة تعتبر هدف الوحدة العربية هو الاثمـن ، والاعـز ، والانبل ، والاكثر ثورية بين اهدافها جميعا . وقد غـدت الوحدة الثقافية ، في حاضرنا ، لا كممهد للوحدة السياسية فحسب ، بل كجامع ثابت للعروبة ايضا ، جامع لم توهنـه التمزقات ، ولم تحل بينه وبين تاكيد ذاته العربية ، فهـو يوحد رغم الفرقة ، ويجمع رغم التشتت ويصون الامة من التفكك ، ويتبادل معها جدلية حقيقية ، تقوم على معادلة واضحة ، هي ان الامة تصنع الثقافة والثقافة تصنع الامة .

الاخوة الزملاء وزراء الثقافة

انني سعيدة ، شاكرة ، لكوني قد اعطيت حق الكلام باسمكم في هذه الجلسة ، وقد بادرت الى التعبير عما في نفسي ونفوسكم من عرفان للمنظمة ورئيسها ، وللجنة التي تولت وضع الخطة الثقافية الشاملة واخص بالتحية الاخ الاستاذ عبد العزيز حسين رئيس اللجنة ، والسادة المحترمين اعضاءها : وكل من اسهم في إعدادها ، ولقد حاولت ، في كلمتي ، ان ارسم صورة متواضعة للثقافة ، في مفهومها ودلالتها ، في اهميتها ومكانتها ، وفي بعض الخطوط التي وردت فيها ، تعريفا وتوصيفا ، بعد ان اصبحت الخطة بين ايديكم ، واصبح من واجب كل منا ان يدرسها ، ويناقشها ، ويبدي رأيه فيها ، او ملاحظاته عليها، حتى اذا انتهينا الى اقرارها ، في هذه الدورة او فيما بعد ، نباشر التنفيذ ، وهو صعب وشاق ، لان البناء الثقافي هو اساس البناء الحضاري وهذا يتطلب من الدول العربية جهدا شاقا متواصلا ، ويحملنا مسؤولية كبيرة ، ويلقي على عواتقنا مهمة جليلة وجميلة معا ، هي مهمة بناء غد افضل لاجيالنا ، تكون فيه الثقافة للجميع ، وتشمل بعطائها المبدع الجميع ايضا .

قد يقال ان دربنا الى شمول ثقافي كهذا طويلة . ما هم ، كل درب ، في البدء ، طويلة ، كل درب ، في البدء ، صعبة ، وكل درب في عنت المسير ، شوك وحصى ، لكن العملية الثقافية الشاملة المكافحة هي الجياد التي تمضي ، ومنتجوها هم الفرسان الذين يمضون ، ومطلع الشمس قبلة لمن يريدون

الخروج من الظلمة ، والنصر العربي الذي تشارك الثقافة
في صنعه لن ياتي بقميص ابيض ، انه يمر بالحرائق والدخان
والغبار ومستنقع الموت ، لكنه حين يصل ، يكون ماردا مـا
عرفه قمقم ، وفارسا مضرجا بدم المعركة ، ورسولا في يمناه
مشعل الحق والعدل والخير ، ومناضلا دفع غاليا ، ومايزال
على استعداد للدفع ، مادامت الحياة كفاحا ، ومادام الكفاح
القا ، ومادام الالق مصباحا ، من لحمنا سراجه ، ومن عرقنا
زيته المقـدس .

* * *

حداثة مفهوم السياق الصوتي وكونيته عند العرب

د. محمد صالح عمر
"تونس"

العوامل الإقتصادية والإجتماعية في تأخر الثقافة العربيّة الإسلاميّة في العهد الوسيط

بقلم: كلود كاهين
تعريب: حافظ الجمالي

حداثة مفهوم السياق الصوتي وكونيته عند العرب

د. محمد صالح عمر

يكاد يجمع الباحثون اللغويون المعاصرون ممن انكبوا على التراث الصوتي العربي دراسة وتحليلاسواء منهم العرب والمستشرقون ، على ان اللغويين العرب الاوائل لم يعرفوا المقطع الصوتي بمفهومه الغربي (١) ولعل مرد هذا الاجماع الى ان الخليل بن احمد الفراهيدي (؟ ـ ١٧٥ هـ) لم يستخدم هذا المفهوم في تقطيع الأبيات الشعرية وتجزئتها الى وحدات نغمية وإن طابق السببُ الخفيفُ (المتالف من متحرك يليه

---

١ ـ انظر على سبيل المثال جان كانتينو (Jean Cantineou) : « دروس في علم اصوات العربية » ـ تعريب صالح القرمادي ـ تونس ١٩٧٧ ص ١٩٢ والطيب البكوش « التصريف العربي من خلال علم الاصوات الحديث » تونس ١٩٧٣ ص٧٦

ساكن مثل : مِن) عنده بمحض الصدفة ، المقطع الطويل كما ان سيبويه (؟ ـ ١٤٩ هـ أو ١٧٧ هـ) لم يتعرض اليه اطلاقا في « كتابه » الذي أودعه حصيلة التفكير اللغوي العربي حتى عصره وضمنه الأسس الكبرى لعلمي النحو والاصوات العربيين . ومهما يكن من أمر فان الثابت حاليا ، هو ان مفهوم المقطع لم يدخل الثقافة العربية الا بعد ان تُرجمت الى اللغة العربية مؤلفات اليونانيين في علم الأصوات لا سيما مؤلفات أرسطو منها(٢) .

وتجدر الملاحظة هنا ان جل هؤلاء الباحثين قد اعتبروا غياب مفهوم المقطع الصوتي عند اللغويين العرب الاوائل ضربا من النقص في دراساتهم ونظرياتهم الصوتية فحاولوا إكماله بتعريف القارىء العربي المعاصر بهذا المفهوم ومحاولة تطبيقه احيانا على اللغة العربية ببيان انواع المقاطع فيها (٣)

٢) ان اقدم لغوي عربي تناول مفهوم المقطع كما هو عند الغربيين اي ما تدل عليه كلمة Syllabe اليونانية التي صارت Syllabe عند الفرنسيين Syllabe عند الانقليز و Silbe عند الالمان هو القاضي عبد الجبار (٣٢٥ ـ ٤١٥ هـ) في كتابه « المغني في ابواب التوحيد والعدل » ثم حذا حذوه في ذلك كل من الفارابي (؟ ـ ٣٣٩ هـ) في كتابه « شرح العبارة » وابن سينا (٣٧٠ ـ ٤٢٨هـ) في كتابه « الفن التاسع : الشعر » وابن رشد (٥٢٠ هـ ـ ٥٩٥ هـ) الذي زاوج في كتابه « تفسير ما بعد الطبيعة » بين لفظي المقطع والسلابي . لمزيد من التوسع في هذا الموضوع انظر عبد السلام المسدي « التفكير اللساني عند العرب » الدار العربية للكتاب ـ طرابلس تونس ١٩٨١ ص ٣٦١ ـ ٣٦٦ .

٣) انظر على سبيل المثال : ابراهيم انيس « الاصوات اللغوية » مكتبة الانغلو مصرية القاهرة ص ص ٨٧ ـ ٩٨ تمام حسان « مناهج البحث في اللغة » مكتبة الانغلو مصرية ـ القاهرة ١٩٥٥ ص ص ١٣٨ ـ ١٤٦ ، الطيب البكوش : « التصريف العربي ص ص ٧٦ ـ ٧٧ »

ويمكن القول ان الباحث الجزائري عبد الرحمن الحاج صالح(٤) هو الدارس الوحيد الذي لم ينح هذا المنحى في معالجة مسألة المقطع في التراث الصوتي ؟ العربي وذلك بانطلاقه من المفاهيم الخاصة عند اللغويين العرب القدامى لعملية التصويت وطبيعة الصوت اللغوي وكيفية انتظام الاصوات في السلسلة الكلامية (٥) وهي مفاهيم لم تسمح لهم ، في نظره بتصور المقطع الصوتي كما تصوره الغربيون في لغاتهم بل وجعلتهم في غنىً تام عنه سواء في تحاليلهم الصوتية المجردة او في دراساتهم النغمية العروضية للشعر (٦) اضف الى ذلك ان المقطع في مفهومه الغربي ليس حقيقة مسلما بها وانما وجوده محل جدال ونقاش بين كبار الالسنيين الغربيين انفسهم (٧)

ولما لم يصغ اللغويون العرب القدامى سواء السابقون منهم لسيبويه والمعاصرون له او اللاحقون الذين اطلعوا على مفهوم المقطع في ما ترجم من مؤلفات صوتية يونانية نظرية عامة متكاملة (خارج ميدان الشعر

---

٤) هو باحث لغوي جزائري ولد بوهران في ٨ جويليه (يوليو) ١٩٢٧ ، متحصل على دبلوم الدراسات العليا في اللسانيات وفقه اللغة الفرنسية (جامعة بوردو Bordeaux ١٩٧٠) ودبلوم العلوم السياسية من كلية الحقوق (بجامعة الرباط) والتبريز في اللغة العربية وآدابها من جامعة باريس (١٩٧١) ودكتوراه الدولة باطروحة عنوانها (علم اللسان العربي وعلم اللسان التام) (جامعة باريس السوربون IV) شارك في حلقات علمية ودورات تدريبية في عدة مراكز علمية في فرنسا والمانيا والولايات المتحدة الامريكية كما ساهم في المؤتمرات والندوات العلمية الدولية في اللسانيات والصوتيات وهو يشغل حاليا خطة مدير لمعهد العلوم اللسانية والصوتية واستاذ للسانيات العامة وفقه اللغة العربية بجامعة الجزائر (من رسالة شخصية بعث بها الينا بتاريخ ٢ مارس ١٩٨٠.)

٥) عبد الرحمن الحاج صالح : اللسانيات (١٩٧١) ص ص ٦٣ – ٧٩

٦) المصدر نفسه ص ٧١

٨) المصدر نفسه ص ٦٤ (في الهامش رقم ٧)

الذي وُضع له علم خاص يعنى بضبط ابنيته الموسيقية) عن النسيج الصوتي في لغتهم واصناف الوحدات المنطوقة التي منها يتالف ، حاول عبد الرحمن الحاج صالح ان يستخلص هذه النظرية بنفسه اعتمادا على مفاهيم للعنصرين الأصغرين اللذين يتكون منهما ذلك النسيج وهما بالأصوات اللغوية وهما التحريك والتسكين وبالرجوع أيضا الى مفهومي « الحركة » (٨) والسكون عند الموسيقيين العرب القدامى .

أولا : ــ مفهوم « الحركة » عند اللغويين والموسيقيين العرب القدامى :

١ ــ مفهوم « الحركة » عند اللغويين :

انطلق عبد الرحمن الحاج صالح في محاولته ضبط مفهوم « الحركة » عند اللغويين العرب القدامى من قاعدة صوتية أوردها كل من علي بن عيسى الروماني (٢٩٦ هـ ــ ٣٨٤ هـ) في شرحه « الكتاب » سيبويه والمبرد (٢١٠ هـ ــ ٢٨٥ هـ) في مؤلفه « المقتضب » وهي انه لا يجوز النطق بحرف منفردا وانما متبوعا بحرف آخر (٩) فاستنتج من ذلك ان الحرف الواحد يدخل وجوبا ، عند النطق ، في مجموعة صوتية محدودة العناصر تضم اكثر من حرف لكنها لا تتسع الا لعدد قليل من الأصوات تسمح باصدارها قوة النفس والقوة لاعضاء النطق لدى المتكلم مما يضطره الى التوقف اكثر من مرة أثناء نطقه بالمفردات والجمل (١٠)

٨) نضع كلمة « حركة » بين معقفين كلما استعملها الباحث بمعنى (Mouvement) وبدون معقفين كلما عنى بها كلمة (Voyelle) الفرنسية مع الملاحظ انه نقل كلمة « حركة » بالحروف اللاتينية كذا : (Haraka) كلما استعملها بالمعنى الاول

٩) « اللسانيات » ١ ــ ١٩٧١ ص ٧٣

١٠) المصدر نفسه ص ٧٣

فمم يتكون هذا الملفوظ او هذه المجموعة الصوتية التي هي اكبر من الحرف والتي تحدها الامكانيات الفيزيولوجية للمتكلم وهل تخضع العناصر الصوتية المكونة لها لقواعد مضبوطة وقوانين معينة ؟!

من البديهي أن تكون الاجابة على هذين التساؤلين بأن المجموعة الصوتية أيا كان نوعها في لغة من اللغات تتألف ، وجوبا ، من حروف وحركات لكن تصور كل من الحرف والحركة ليس واحدا بالنسبة الى كل لغوي العالم منذ انطلاق تفكير الانسان في اللغة الى اليوم . ومن ثمة وجب فحص الصوتيين العرب القدامى لهذين العنصرين الصوتيين حتى يتضح مدلولاهما عندهم وما ينجز عن تلاحقهما او عدم تلاحقهما أو تكرر العنصر الواحد منهما في السلسلة الكلامية .

يرى الخليل بن احمد الفراهيدي الذي يعد اقدم لغوي عربي اعتنى بدراسة الأصوات اللغوية أن للحرف خاصيتين اساسيتين هما : الجرس والصرف (١١)

فالجرس هو الخاصة التي بها يتميز حرف ما عن سائر حروف اللغة وتمكن السامع من فهمه وعدم الخلط بينه وبين حرف آخر حتى وان قاربه في المخرج او اتحد معه في بعض الصفات(١٢) .

اما الصرف فهو التحرك (او حالة ما هو متحرك) في اتجاه امامي معاكس لجهة مصدر « الحركة » وهذا الاتجاه هو في حقيقة الامر ، اتجاه السلسلة الكلامية ذاتها التي تسير حتما في خط مستقيم هو الخط الطبيعي للسياق (١٣) وعلى هذا الأساس فان بين الصرف

---

١١) المصدر نفسه ص ٧٠

١٢) المصدر نفسه ص ٦٦

١٣) المصدر نفسه ص ٦٥

والحركة عند اللغويين العرب القدامى – حسب الباحث قرابة معنوية على الرغم من انهم قد اطلقوا لفظة « حركة » على صوت اللين القصير وحجته في ذلك انهم قد استعملوها احيانا للدلالة على التحرك عموما وهو ما يظهر على سبيل المثال في قولين للرماني هما « ان الحركة تمكن من اخراج الحرف » و « تقتضي حالة التحرك الخروج من هذا الحرف الى حرف آخر »(٤١) .

فالقول الاول يدل حسب تاويل عبد الرحمن الحاج صالح – على ان الحركة ضرورية لاصدار الحرف سواء كان لغويا او غير لغوي (بما في ذلك حروف المد واللين) وعلى ان السكون هو عكسها تماما من حيث طبيعته (عدم التحرك) ووظيفته (عدم التحريك) (١٥) اما القول الثاني فانه يعني ان وجود الحركة في ملفوظ ما يقتضي انتقال المتكلم ، وجوبا من حرف الى حرف آخر ، وفي هذا دليل واضح كاف على ان «الحركة» التي يقصدها الرماني مجرد صوت اللين القصير وانما « الحركة » بالمعنى القاموسي (وهي هنا حركة الهواء او حركة اعضاء النطق) التي يتوقف عليها حدوث الصوت البشري مهما كان (١٦) بما في ذلك صوت اللين القصير نفسه .

وبما ان الصوت ناتج عن هذه « الحركة » فلا يمكن عقلا ومنطقا ان يكون سابقا لها في السياق ولقد تفطن سيبويه الى هذه الحقيقة منذ القرن الثاني للهجرة وعبر عنها بكل وضوح في قوله : « لا يستطيع

---

١٤) المصدر نفسه ص ٦٦

١٥) المصدر نفسه ص ٦٦

١٦) المصدر نفسه ٦٧

١٧) سيبويه : « الكتاب » نشر مؤسسة الاعلمي للمطبوعات – بيروت ١٩٦٧ . ج٢ ص ٣٣٤

١٨) المصدر نفسه ص ٣٤٢

(المتكلم) ان يحرك ما يسكت عنده » (١٧) وكذلك في قوله « الساكن لا ترفع لسانك عنه بصوت لو رفعت بصوت لحركته » (١٨)

ولقد فهم صاحب البحث من القول الثاني لسيبويه ان كلمة « صوت » تعني الصوت البشري هذا الصوت لا يحدث الا مع الحرف المتحرك او بعده ولا يصاحب ابدا الحرف الساكن او يليه وهو ليس « المحرك » الحقيقي للحرف وانما ينضاف انضيافا الى حركة الهواء الصادر عن الرئتين (١٩) ويستشهد على ذلك بقول آخر لسيبويه وهو « هذه الحروف (أي المهموسة) التي يسمع معها الصوت والنفخة في الوقت (٢٠) وبقول رابع له يصف فيه اللام وهو : « ومنها المنحرف وهو حرف شديد جرى فيه الصوت لانحراف اللسان مع الصوت ولم يعترض على الصوت كاعتراض الحروف الشديدة وهو اللام » (٢١)

وفي القرن الرابع الهجرة يسميه ابن جني (قبل ٣٣٠ هـ ـ ٣٩٢) المعاني نفسها تقريبا في قوله : « اصل الادراج للمتحرك اذ كانت الحركة سببا له » (٢٢) وفي قوله : « لا يجري الصوت في الساكن فاذا حرك انبعث صوت في الحركة ثم انتهى الى الحرف » (٢٣)

وانطلاقا من هذه الاقوال استنتج عبد الرحمن الحاج صالح ان « الحركة » عند اللغويين العرب القدامى هي تحريك هوائي عضوي اكوستيكي يحتاجه الحرف ليتحقق في السياق الصوتي كما انها في الوقت نفسه حركة اكوستيكية فيزيولوجية ضرورية للانتقال من حرف

---

١٩) اللسانيات ١ (١٩٧١) ص ٦٧

٢٠) سيبويه : « الكتاب » ج٢ ص ٢٤١

٢١) سيبويه « الكتاب » ج٢ ص ٤٩٠

٢٢) ابن جني : « الخصائص » دار الصدى بيروت ١٩٥٣ . ج١ ص ٥٨

٢٣) المصدر نفسه ج٣ ص ١٣٠

الى آخر . وبكلمة واحدة فهي عبارة عن اندفاع محرك يمكن من اخراج الأصوات اللغوية في شكل مقطوعات متلاحقة في السياق (٢٤)

والى جانب هذه الخصائص التي تتميز بها « الحركة » عند اللغويين العرب القدامى فهي تتضمن حسب الباحث . مفهوم «القوة» ما دامت في أساسها حركة هوائية عضوية ومن ثم كان بالامكان اعتبار الحرف المتحرك « اقوى » من الحرف الساكن (٢٥)

ويرى صاحب البحث ان الخليل قد تفطن الى هذه « القوة » الحركية عند دراسته للألف (وهو حرف مد عنده) اذ اعتبره بلا صرف اي مكونا فقط من جرس وهو المد الذي يحصل بعد الفتحة ، فلو حاولنا تصريفه (اي تحريكه) لتحول وجوبا الى همزة (٢٦) ويقصد الخليل بذلك — حسب تأويل الحاج صالح ان حرف المد لا يمكن ان يكون الا ذا قوة حركية متدرجة نحو الضعف نظرا الى انه مجرد « مد » ناتج عن القوة الاندفاعية « للحركة » (٢٧) ، ولهذا السبب فلا سبيل البتة الى ان يكون متبوعا بحركة فلو حصل ذلك لتحول الجزء الأخير منه الى همزة أو نصف حركة (٢٨) اي الى واو ان كان من جنس الضمة او الى ياء ان كان من جنس الكسرة) ويفسر ذلك من الوجهة الفيزيولوجية بأن المتكلم عندما يريد أن يوقف اوتاره الصوتية اثناء النطق بحرف مد يحدث اعتماد « ينجر عنه النطق بهمزة ان كان ايقاف الاوتار بشدة أو النطق بنصف حركة ان كان ايقافها بلطف (٢٩)

---

٢٤) اللسانيات ١ (١٩٧١) ص ٦٨

٢٥) المصدر نفسه ص ٦٨

٢٦) المصدر نفسه ص ٦٨

٢٧) المصدر نفسه ص ٦٨

٢٨) المصدر نفسه ص ٦٨

٢٩) المصدر نفسه ص ٦٩

ولذلك كله فقد نعت اللغويون العرب القدامى حرف المد بـ (الضعف) وفسروا وجود هذه الصفة فيه بانعدام اي حاجز عضوي (اعتراض) في طريقه مما يجعل « حركة » الهواء تمر داخل جهاز النطق حرة طليقة في اتجاه الهواء الخارجي على حين اعتبروا الحرف العادي ذا صرف لانه ينشأ عن اصطدام حركة الهواء بحاجز ما كلي او جزئي (وهو المخرج) وهذا الصرف هو في حقيقة الأمر قوة حركية مضادة لقوة الحاجز وضرورية لقرع الصوت عليه (٣٠)

ولئن كان من العسير ــ في نظر الباحث ــ الجزم بأن مفهوم القوة كان واضحا كل الوضوح في اذهان اللغويين العرب القدامى فان استعمالهم لمصطلحات مثل : « اعتماد » ــ « ميل » ــ « قوة دافعة » ليدل على تفريقهم على الاقل بين « الحركة » والقوة المحركة ؛ تلك القوة الضرورية لتحريك الهواء او دفعه او تجزئة الصوت وتقطيعه وكذلك للاعتراض والحصر (٣١) وهو ما يعد في حد ذاته اكتشافا عظيم الشأن بالغ الاهمية لانهم قد اماطوا به اللثام عن حقيقة علمية فيزيولوجية اكوستيكية هي اساس نظرية الحركة عند اللغويين المعاصرين . وتتمثل هذه النظرية في اعتبار الأصوات اللغوية ناشئة عن حركة متولدة ذات قوتين مختلفتين: قوة حركية يندفع بفضلها تيار الهواء من الرئتين نحو جهاز التصويت ومنه الى الهواء الخارجي وقوة تماسك ضرورية لاجتياز الحاجز العضوي او للحفاظ على وجوده مدة من الزمن امام القوة الاندفاعية للهواء ولقد عبر اللغويون العرب عن القوة الاولى بـ « الصرف » والقوة الثانية بـ « الاعتماد » (٣٢)

---

٣٠) المصدر نفسه ص ٦٩

٣١) ان المقصود بالاعتراض هو قيام حاجز امام مجرى الهواء اما الحصر فهو احتباس تيار الهواء عند الحاجز نتيجة للاعتراض

٣٢) اللسانيات ١ (١٩٧١) ص ٦٩

٢ ـ مفهوم « الحركة » عند الموسيقين :

لم ينفرد اللغويون بهذا المفهوم « للحركة » وانما نجده ايضا عند الموسيقين العرب القدامى الذين بنوا نظريتهم في الايقاع على مفهومي الحركة والسكون وهو ما نلمسه في تمييزهم بين النقرة الساكنة التي يليها وقف والنقرة المتحركة التي تتبعها حركة في اتجاه الصوت المتجسد العوالي (٣٣)

ويرى صاحب الدراسة ان مفهوم الحركةاوضح عند هؤلاء الموسيقين منه عند اللغويين وذلك لانه لا يمكن أن نخلط في العزف الموسيقي بين الحركة المولدة للصوت المتجسد والصوت المتجسد ذاته مع العلم أن النقرات ـ ولناخذ هنا على سبيل المثال النقرات بالمضراب (*) على الآلات الوترية ـ يمكن تمثيلها بحدود فاصلة بين مسافات زمنية معينة وهي الفواصل (*) التي يتالف من تلاحقها على نسق مخصوص الايقاع (٣٤) .

ولعل اهم نقطة يلتقي فيها اللغويون والموسيقيون في هذا المجال ، هي أن الانتقال من ساكن الى ما يليه يستغرق وقتا اطول بكثير من الانتقال من متحرك الى ما بعده سواء كان الذي يتبعه متحركا مثله او ساكنا وهو امر منطقي لان المسافة الفاصلة بين الساكن والمتحرك هي في الحقيقة ، انقطاع للنغمة او الصوت مما يوجب استئناف التحريك لانطلاقها من جديد (٣٥) .

---

٣٢) المصدر نفسه ص ٦١ ـ ٧٠

(قوة حركية) * Force cinétique

(قوة تماسك) * Force de cohésion

(صوت متجسد) * Note

(*) Plectre * (المضراب) .

(*) Intervalles * (الفواصل) .

(٣٤) المصدر نفسه ص ٧٠ .

(٣٥) المصدر نفسه ص ٧٠ .

ثانيا : مقارنة بين مفهوم السياق الصوتي عند العرب ومفهوم المقطع عند الغربيين :

اذا ما قارنا بين مفهوم السياق الصوتي وكيفية تلاحق العناصر الصوتية فيه عند العرب القدامى وبين مفهوم المقطع عند الغربيين (وهو « أصغر وحدة صوتية يمكن النطق بها ») تبين لنا ان المفهوم الاول اقرب الى الواقع والصق به من المفهوم الثاني لانه ينطلق من معاينة للكلام اثناء حدوثه ولا يجزئه تجزئة مصطنعة تطبيقا لنظرية مجردة يخضع لها الواقع عوض ان يخضعها له والجدير بالذكر هنا ان بعض اللغويين المعاصرين ومن بينهم رائد علم الاصوات التجريبي القس روسولو (Rousselot) قد اثبتوا بعد تجارب اجروها على ملفوظات منطوقة متنوعة بالاجهزة الاكوستيكية والفيزيولوجية أن المقطع لا وجود له البتة وانه مجرد مفهوم نظري لا غير (٣٦) فعند تلفظ المتكلم بكلمة او جملة لا تتقطع حركات اعضاء النطق ولا تتجزأ الذبذبات الصوتية وفقا للمقاطع الصوتية المتلاحقة وانما تخضع فقط لقوة النفس التي بنى عليها العرب نظريتهم .

وحتى ان وجد من الغربيين من يدافع عن نظرية المقطع ويحاول اثبات صحتها بتجارب فيزيولوجية او غيرها مثل ر . ستتلسون (R. Stetson) الذي اعتبر المقطع مكونا من نفخة هواء (*) ناتجة عن تقبض العضلات الداخلية(**) (وهو حركة دافعة للهواء المتجمع داخل الرئتين) يوقفها تقبض العضلات بين الضلعية الخارجية او النطق بحرف من الحروف ، فان التجارب الحديثة قد نفت عنها – اي نظرية المقطع – صيغة الشمول باثبات ان المقطع الصوتي لا يمثل حقيقة فيزيولوجية

---

(٣٦) المصدر نفسه ص ٧٠ .

(*) Bouffée d'air

(**) Muscles intercostaux internes

اكوستيكية الا في الالفاظ الوحيدة المقطع مثل « لم » « ما » (٢٧) وهو ما يطابق تماما نظرة العرب الى تركيب السياق الصوتي وكيفية تلاحق الوحدات الصوتية فيه اذا كانوا متيقنين من ان الانقطاع لا يحدث في السلسلة الكلامية الا في حالتين اثنتين هما : الوقف الذي هو انقطاع للصوت من الناحيتين الفيزيولوجية والاكوستيكية واصدار الحرف الساكن الذي يصاحبه انقطاع قصير ومؤقت للنفس (٢٨) .

وعلى هذا الاساس فان المقطع الحقيقي هو الذي يوجد بين ساكنين يتبع كل ساكن منهما وقف . اما « الحركة » في هذه الحالة ، فهي عبارة عن حركة اندفاعية هوائية عضوية تقع بين انغلاقين متباعدين لمجرى الهواء في جهاز التصويت (انغلاقان كليان او جزئيان) أو بين انغلاق وانفتاح متدرج نحو الانغلاق (٢٩) .

ويلاحظ صاحب البحث بعد ذلك ان العرب وان وجد لديهم مفهوم مطابق شكليا لمفهوم المقطع الطويل عند الغربيين وهو السبب(٤٠) فانهم لم يعتبروه جزءا من السياق الصوتي في الكلام العادي وانما مجرد وحدة صوتية صغرى تدخل في تركيب التفعيلة (٤١) اي مقياسا نغميا خاصا بتقطيع البيت الشعري وتحديد وزنه ولقد توصلوا الى ضبط هذه

---

(٣٧) المصدر نفسه ص ٧١ .

(٣٨) المصدر نفسه ص ٧٢ .

(٣٩) المصدر نفسه ص ٧٢ (مثال عن الانفتاح المتدرج نحو الانغلاق : النطق بالحركة الطويلة) .

(٤٠) يقصد السبب الخفيف لان السبب على ضربين : خفيف وثقيل ، فالخفيف متحرك بعده ساكن نحو : « مَن ومِن عن والثقيل متحركان ليس معهما ساكن نحو : لك وبك » انظر في ذلك : ابو بكر محمد بن عبد الملك السراج الشنتريني الاندلسي : « المعيار » ص ٧١ .

(٤١) اللسانيات ١ عام (١٩٧١) ص ٧٢ .

الوحدة الصوتية — فيما يبدو — بفضل طريقتهم في انشاد الشعر التي تتمثل في اخراج اصوات البيت موافقا لتفعيلاته وللوحدات الدنيا التي تتألف منها التفعيلات (٤٢) ولم تجرهم هذه الطريقة الى الوقوف عند المقاطع القصيرة لانهم لم يروا ان هذه المقاطع تنطق منفردة أو عند الوقف (٤٣) . على حين أن العديد من الكلمات المستقلة بذاتها مكونة من اسباب مثل : هل — لم — ما . كما أن الوقوف على المتحرك امر غير جائز في نظرهم لان وجود حركة في موضع ما من الكلمة يعني حتما الانتقال من حرف الى حرف آخر (٤٤) .

وبناء على ذلك فان الوحدة الصوتية المنطوقة الدنيا لا يمكن ان تتألف الا من حرف وحركة طويلة (ما ، فو ، في) ، او من حرف وحركة قصيرة وحرف ساكن (بل ، قل ، زن) ، وأن تكون مكونة للفظ مستقل (٤٥) ، ولقد اشار سيبويه ، في هذا الصدد ، الى أن الضمير المفرد المتكلم « أنا » ينطق عند الوقف « أن » فيمثل في هذه الحالة : « أقل ما يتكلم به مفردا » (٤٦) .

ويعلل ابن جني استحالة وجود وحدات صوتية دنيا متفاصلة عند النطق داخل السياق الصوتي بأن المتكلم عندما ينطق بصوت ساكن وسط هذا السياق فانه لا يقف عليه وانما يتبعه مباشرة بالصوت الذي يليه على حين انه عندما ينطق به عند الوقف يتبعه في حالات معينة (٤٧)،

---

(٤٢) المصـدر نفسـه ص ٧٢ .
(٤٣) المصـدر نفسـه ص ٧٢ .
(٤٤) المصـدر نفسـه ص ٧٣ .
(٤٥) المصـدر نفسـه ص ٧٣ .
(٤٦) المصـدر نفسـه ص ٧٣ .
(٤٧) يحصل هذا خاصة عند الوقوف على الحروف المهموسة . انظر شرح محمد على النجار لقول ابن جنى المتعلق بهذا المعنى ص ٥٧ من كتاب « الخصائص » ج ١ الهامش ٣ .

بصويت وفي هذا يقول : « من الحروف حروف اذا وقفت عليها لحقها صويت ما من بعدها فاذا ادرجتها ضعف ذلك الصويت وتضاءل للحس نحو قولك : راح ، اص ، اث ، اف ، اخ ، اك ، فاذا قلت : يحرد ويصبر ويسأم ويثرد ويفتح ويخرج خفي ذلك الصويت وقل وخف ما كان له من الجرس عند الوقوف عليه ... وسبب ذلك عندي انك اذا وقفت عليه ،،، ولم تسرع الانتقال عنه فقدرت بتلك اللبثة على اتباع ذلك الصوت اياه ، فاما اذا تأهبت للنطق بما بعده ،،، فقد حال ذلـك بينك وبين الوقفة التي يتمكن فيها من اشباع ذلك الصويت فيستهلـك ادراجك اياه طرفا من الصوت الذي كان الوقف يقره ،،، » (٤٨) .

ثالثا : محاولة في صياغة مفهوم السياق الصوتي عند العرب في نظرية عامـة عصريـة :

بعد أن حلل عبد الرحمن الحاج صالح مفاهيم « الحركـة » و « الادراج » و « الوقف » عند الصوتيين والموسيقيين العرب القدامى وقارنها بمفهوم المقطع عند الغربيين رأى أنه بالامكان الانطلاق من مفاهيم العرب تلك لصياغة نظرية عامة عصرية في السياق الصوتي تكون مطابقة لا للغة العربية وحدها وانما لجميع لغات العالم (٤٩) .

والذي يجعل صياغة مثل هذه النظرية امرا ممكنا في نظره هو ان القواعد التي ضبطها العرب للسياق الصوتي هـي قواعد عالميـة وهي القواعد التاليـة (٥٠) :

أ ــ لا يكون الحرف عند الابتداء الا متحركا .

ب ــ لا يكون الحرف عند الانتهاء (أو الوقف) الا ساكنا .

---

(٤٨) ابن جني : « الخصائص » ج ١ ص ٥٧ ــ ٥٨ .

(٤٩) اللسانيات ١ عام (١٩٧١) ص ٧٤ .

(٥٠) المصدر نفسه ص ٧٤ .

ج ـ لا يتتابع ساكنان داخل السياق الصوتي وهذا يعني ان الحرف الساكن داخل السياق لا يكون متبوعا الا بحرف متحرك ويترتب عن هذه القواعـد :

ا ـ ان الحرف الساكن لا يكون مسبوقا الا بحركة .
ب ـ ان الحركة تكون دائما مسبوقة بحرف ومتبوعة بحرف .
ج ـ ان الحركة لا يمكن ان توجد عند الابتداء .

واذا صيغت هـذه القواعد بلغة علم الاصـوات الحديث اصبحت كالآتي : (٥١)

ـ لا يمكن أن تبدأ مقطوعة كلامية ما الا بعملية نطق « فاتحة » (*) أي بانفـراج اعضـاء النطق المسمى عنـد سوسـور (Saussure) «انفجارا»(**) وهو يتمثل في ازدياد الضغط العضلي واندفاع تيار الهواء ابتداء من الصوت « المطلق » الذي بدئت به المقطوعـة حتى الصوتم المواليـ .

ـ لا يمكن ان تنتهي مقطوعة كلامية ما الا بعملية نطق « غالقة »(***) اي بتقبض سريع تدريجي لاعضاء النطق وهـو ما يسميه سوسـور (Saussure) بحجز الهواء(****) ويقصد به انخفاض الضغط العضلي واندفاع تيار الهواء تدريجيا الى ان يزولا تماما . ولذلك فلا سبيل البتة الى تتابع ساكنين اذ لا يجوز منطقيا ان يلحق نطقا غالقا نطق غالق آخر بل ان يرد النطق الغالق فقط بعد نطق فاتح يسـبقه مباشرة في السـياق .

(٥١) المصـدر نفسـه ص ٧٤ .
(*) Ouvrante
(**) Explosion
(***) Fermante (غالقة) .
(****) Implosion

وانطلاقامن هذه القواعد يمكن ان نعرف السياق الصوتي عند اللغويين العرب القدامى بانه سلسلة من الاصوات الناشئة عن عمليات نطق متلاحقة تتقابل كل عمليتين منها متتابعتين تتابعا مباشرا في الفتح والغلق والتحريك والتسكين . ومن ثمة فان أنسب تسمية يمكن اطلاقها على هذه النظرية حسب صاحب البحث هي :

النظرية الحركية الاندفاعية (*) :

ويقترح عبد الرحمن الحاج صالح بالاضافة الى هذه التسمية ترجمة المصطلحات العربية القديمة المتعلقة بالسياق الصوتي بمصطلحات جديدة من أصل يوناني لاتيني وهي التالية (٥٢) :

- kinème للدلالة على « حركة » .
- kinèmco للدلالة على انعدام « الحركة » اي السكون .
- kinèse للدلالة على حالة التحرك .
- akinèse للدلالة على حالة الساكن .

كما يقترح التفريق بين مستويات ثلاثة هي (٥٢) :

أ ــ المستوى التوليدي او الفيزيولوجي الذي يتالف من ظاهرتين متلازمتين عند النطق هما :

ــ حركة الهواء : التي يقترح ترجمتها بـ (aérokinème) وترجمة كل حركة من الحركات الدنيا التي يتالف منها الهواء الصوتي بـ (aérokinèse)

(*) (النظرية الحركية الاندفاعية) . Théorie cinétco-impultionnelle

(٥٢) المصدر نفسه ص ٧٧ .

(٥٣) المصدر نفسه ص ٧٧ .

ــ حركة العضو : التي يرى امكان تسميتها بـ (organokinèse) وتسمية ادنى حركة عضوية فيها بـ (organokinème) .

ب ــ المستوى الاكوستيكي :

يتألف هــذا المستوى من حركة الصوت التي يقترح ترجمتهــا بـ (Phonokinèse) وترجمـــة أقــل حركــة صوتيــة داخلهــا بـ (Phonokinème)

ج ــ المستوى الوظيفي :

ان المقصود بالمستوى الوظيفي هو مستوى الاصوات اللغوية من حيث هي علامات متميزة ومختلفة عن بعضها البعض نتيجة اختلاف مخارجها وصفاتها والوحدة الصوتية الصغرى ذات الوظيفة التمييزية هي ــ كما هو معلوم ــ الصوتم .

وختاما فان هذه النظرية الحركية الاندفاعية وما يتفرع عنها من قواعد تضبط كيفية انتظـام الاصوات وتلاحقها في السياق الصــوتي لتمتاز ، في نظر الباحث عن نظرية المقطع عند الغربيين بانطباقهــا علــى لغات أخــرى غير العربية (٥٤) وبمطابقتها لاحدث ما اثبتته الاختبارات الالية من حقائق في هذا المجال (٥٥) مما يجعلها بحق بديلا عن النظرية الثانية التي لم تعد تقنع العديد من اللغويين في هذا العصر .

رابعــا : محاولة تطبيقية للنظرية الحركية الاندفاعية على جملــة عربية بالاجهزة الاكوستيكية الحديثة :

بعد ان استخلص عبد الرحمن الحاج صالح من بعض اقوال الصوتيين والموسيقيين العرب القدامى المتفرقة في دراساتهم مفهوم السياق الصوتي

(٥٤) المصــدر نفســه ص ٧٨ .

(٥٥) المصــدر نفســه ص ٧٩ .

عندهم وحاول صياغته صياغة جديدة في نظرية السنية عصرية قائمة على المبدئين : الاكوستيكي والفيزيولوجي طبق هذه النظرية على جملة عربية قصيرة هي : « كاتبت زيدا » وذلك بأن صور أطيافها بالسونوغراف ورسم ذبذبات اصواتها بمسجل الذبذبة ثم وضع رسوم الذبذبات تحت رسوم الاطياف حتى تمكن المقارنة بين مسار السياق الصوتي في هـذه وفي تلك واخيرا اعد شكلا بيانيا وضعه تحت الرسمين السابقين بين فيه مختلف المتحركات والسواكن الواردة في الجملة المدروسة ومتنوع الحالات التي طرأت على الصوت أثناء حدوثه في السلسلة الكلامية (٥٦) .

وبذلك يكون كل صوت من أصوات الجملة ممثلا باشارات ثلاث كل اشارة منها في مستوى من المستويات الثلاثة المتراكبة وهي : رسم طيفه ورسم ذبذبته وخط معين يرمز اليه في الشكل البياني .

وزيادة على ذلك ، رسم الباحث خطا متعرجا موضحا لمسار سياق الصوت كما يظهر من رسوم أطياف الجملة واضافة الى هذه الرسوم التي تبدو متقطعة في شكل بصمات سوداء متفرقة وهذا الرسم هو التـالي :



وليتسنى لنا فهم هذا الرسم ينبغي ان نفرق بين هضابه التي هي صور للحركات وانصاف الحركات والحروف الرخوة (التي يصاحب نطقها جريان الهواء) وبين الوديان التي هي صور للحروف الشديدة (التي ينحبس عند النطق بها تيار الهواء) وهكذا فان توزع اصوات الجملة : « كاتبت زيدا » في هذا الخط المتعرج يكون كالاتي :

(٥٦) المصدر نفسه ص ٨٩ .



ولعل اهم ما يمكن استنتاجه من هذا الرسم هو ان الحركة الطويلة كما بين ذلك صاحب البحث في القسم الاول من دراسته تضعف قوتها الحركية في الجزء الاخير منها فتنحدر تدريجيا نحو الحرف الذي يليها ؛ كما يمكن أن نلاحظ ان بين الحرف الساكن والحرف الذي يليه داخل المقطوعة الصوتية انقطاعا قصيرا جدا للطاقة الصوتية يتبعه انطلاق جديد للصوت أي « حركة » جديدة أو على الاصح « استئناف للتحريك» بعد « انطفاء » الحركة السابقة عند الحرف الساكن .

اما رسم الذبذبات فان فهمه يتطلب منا التفريق بين الانماط التعرجية المختلفة الموافقة لاهم العناصر الصوتية التي تتألف منها السلسلة الكلامية في اللغة العربية وهذه الانماط هي :

ا ــ الحرف المتحرك العادي مثل : ب ــ ق ــ د .

ب ــ الحرف المتحرك المتبوع بمد مثل ما ــ فو ــ في .

ج ــ الحرف الساكن العادي مثل القاف في : « رق » او الميم في « نم » .

د ــ الحرف الساكن الواقع بعد مد والمتبوع بحركة مثل : الراء الساكنة في « سار » .

هـ ــ الحرف الساكن الواقع بعد مد عند الوقف مثل الراء في « غــار » .

فعندما نتأمل الجملة « كاتبت زيدا » نلاحظ انها تتألف من سبعة اصوات هــي :

ـ متحركان متبوعان بمد : كاَ ـ دَا

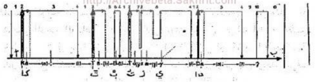
ـ ثلاثة متحركات عادية : تَ ـ تَ ـ زَ

ـ ساكنان : بْ ـ يْ

ويعني ذلك ان الجملة المذكورة تتالف من ثلاثة انواع فقط من الاصوات وهي : المتحرك المتبوع بمد ـ المتحرك العادي ـ الساكن .

لذا يكفي أن نعرف الانماط التعرجية ١ ـ ٢ ـ ٣ (المبينة اعلاه) حتى نقدر على قراءة هذه الجملة انطلاقا من رسم ذبذبات اصواتها بل ونتمكن من تحديد منطلق كل صوت من هذه الاصوات ومنتهاه بكل دقة .

واخيرا لنتامل الشكل البياني الذي مثل به الباحث السياق الصوتي للجملة نفسها : « كاتبت زيدا » فهو يتالف من شعاع موجه افقي :



ا ب يرمز الى سلسلة الحركات الفيزيولوجية ومن مجموعة من الاشـعة الموجهة العمودية والافقية غير متصلة في العديد من المواضع وتحد مساحات مربعة ومستطيلة متجاذبة احيانا متباعدة اخرى ، ترمز الى مسار السياق الصوتي من الوجهة الاكوستيكية .

ولقد مثل صاحب البحث الحروف المتحركة في هذا المسار باشعة موجهة غليظة صاعدة والحركات القصيرة (اي اصوات اللين القصيرة : الفتحة والكسرة والضمة) باشعة موجهة افقية في خط مواز للشعاع

الموجه الكبير : أ ب وجامع لرؤوس الاشعة الموجهة العمودية كما مثل الحرفين الساكنين (الباء والياء) بشعاعين موجهين خفيفين صاعدين ومثل انتهاء التحريك بأشعة موجهة نازلة وذلك في مواضع اربعة هي : نهاية حرف المد الاول (بعد الكاف : كا) وبين الباء الساكنة والتاء المتحركة (بْ تَ) وبين الياء الساكنة والدال المتحركة (يْ دَ ا) ونهاية حرف المد الاخير (زَيْدًا) ، اما الفواصل الزمنية الواقعة بين نهاية تحريك واستئنافه أي بين نهاية « الحركة » وانطلاقها من جديد فلقد مثلت بفراغات بين الاشعة الموجهة المختلفة .

وهكذا فاذا اردنا تتبع مسار السياق الصوتي لجملة « كاتبت زيدًا » في الشكل الذي مثله به الباحث فاننا نرى أن نطق الحرف الاول (الكاف) يسبقه صمت وارتخاء كامل لاعضاء النطق وبالتالي حبس تام «للحركة» (حركة الهواء والاعضاء) . ثم ينطق بهذا الحرف فتنطلق معه « الحركة » قوية (انظر الشعاع الموجه الغليظ الصاعد فوق الكاف) وعندما يصل حرف الكاف الى منتهاه تتبعه الفتحة القصيرة (انظر الشعاع الموجه القصير الموازي للشعاع الموجه القاعدي ا ب عند قمة الشعاع الموجه الصاعد للكاف) التي تمتد بفضل حرف المد (انظر الخط رقم ٣ في يسار الشكل) ثم تنزل نظرا الى ان قوتها الحركية متدرجة الى الضعف (انظر الشعاع الموجه النازل رقم ٤) وبعد حرف المد نجد فراغا دالا على أن التحريك يتوقف لحظة من الزمن قبل النطق بالحرف المتحرك الثاني : (التاء) . وعند النطق بهذا الحرف تنطلق « الحركة » من جديد قوية (انظر الشعاع الموجه الغليظ الصاعد فوق التاء المتحركة) ، تتبعها الفتحة القصيرة (انظر الشعاع الموجه القصير الافقي عند قمة الشكل الموجه الغليظ السابق) ، ثم نجد فراغا (أشار اليه الباحث بالرقم ٥) يدل على الحبس التام « للحركة » ، يتبعه حرف ساكن وهو « الباء » مثل بشعاع خفيف صاعد سرعان ما ينزل نظرا الى انتهاء التحريك عنده . وبعد النطق بالباء يعترضنا فراغ دال ايضا على توقف التحريك وقتا معينا ، تنطلق الحركة بعده من جديد مع

التاء الثانية التي تليها ضمة قصيرة ثم يتبع ذلك فراغ قصير جدا يدل على حبس جزئي ومحدود « للحركة » (انظر الرقم ٧ في المثال) يتبعـه شعاع موجه صاعد خفيف وغير كامل (اذ لا ينطلق من الخط القاعـدي ا ب) دال على الزاي ، ونجد بعد هذا الحرف فتحة قصيرة ثم حرف الياء الساكن الذي لم يمثل بشعاع موجه نازل رغم سكونه لانه شبيـه بالحركة مما جعل الباحث يرمز اليه بشعاع موجه صاعد خفيف ينطلق من وسط الشكل ولا من الخط القاعدي ، الا ان هذا الحرف (او على الاصح نصف الحركة) ينتهي مثل الحركات الطويلة بالسكون بسـبب قوته الحركية المتدرجة الى الضعف .

ويعترضنا بعد الياء الساكنة فراغ دال على انتهاء التحريك يليـه انطلاق « الحركة » من جديد مع الدال التي تتبعها فتحة قصيرة تتواصل بفضل المد ، ثم تسكن الحركة بانتهاء المد ويستغرق سكونها وقتا معينا ثم ينطلق « صويت » ناتج ـ كما اشار الى ذلك ابن جني وتعرضنا اليه سابقا ـ عن الارتخاء الذي تتبع الوقف (انظر الرقم ١٠ في نهاية الشكل)

وهكذا فانه ليتضح بعد كل هذه التحاليل ان النظريـة الحركيـة الاندفاعية التي استخلصها عبد الرحمن الحاج صالح من مفهوم العرب القدامى للسياق الصوتي مطابقة تماما لما اثبتته الاختبارات الالية مـن حقائق اكوستيكية وفيزيولوجية في هذا السياق وقادرة على ابـراز خصائصـه من هاتين الناحيتين العلميتين المتكاملتين مما يجعلها قابلة ـ مبدئيا ـ للتطبيق على اي مقطوعة لغوية عربية او غير عربية .

خامسا : تقويمنا لهذا البحث :

ليس من الغلو في شيء أن نقر بان هذا البحث الذي حاولنا استعراض اهم ما ورد فيه من آراء مفاهيم وعمليات تطبيقية هو بدون منازع اعمق البحوث والدراسات التي تناولت ظاهرة المقطع في اللغة العربية

بل واكثرها جدة وطرافة (٥٧) ويرجع الفضل في ذلك بدون شك الى المام صاحبه الشامل بالنظريات والمفاهيم الأكوستيكية والفيزيولوجية وحذقه طرق تطبيقها على الاصوات بالاجهزة والآلات المختصة الى حرصه على الانطلاق من التفكير اللغوي العربي في ظاهرة السياق الصوتي وعدم اكتفائه بالنظر اليها من خلال النظريات الغربية القديمة منها والحديثة في المقطع مثلما فعل ذلك كل اللغويين المستعربين والعرب المعاصرين ممن تعرضوا الى هذه الظاهرة بدون استثناء .

ولكن هاتين الناحيتين الايجابيتين البارزتين في البحث لم تمنعا من وجود جوانب أخرى فيه تحتاج الى مزيد من التدقيق والتوضيح بل وحتى الى المراجعة واعادة النظر احيانا ، من ذلك على وجه الخصوص طريقة الباحث في بسط الشكل الاساسي الذي عالجه في دراسته . فلقد اعتبر ــ كما رأينا ــ ان هناك نظريتين مختلفتين للسياق الصوتي : احداهما غربية وهي نظرية المقطع والثانية عربية وهي النظرية الحركية الاندفاعية ثم حاول ان يدحض الأولى ويثبت صحة الثانية بالاعتماد على حجج اكوستيكية وفيزيولوجية .

وفي رأينا ان بسط المشكل على هذا النحو لا يخلو من المجازفة لاسيما في قضية شائكة كقضية المقطع التي لم يختلف علماء اللسان المعاصرون في قضية لغوية مثل اختلافهم فيها . وترجع صعوبة البت في هذه القضية

٥٧) انظر على سبيل المثال ما كتبه الباحثون الآتية اسماؤهم ومؤلفاتهم عن المقطع في اللغة العربية :
ــ كانتينو (جان) : « دروس » ص ١٩٢
ــ ابراهيم أنيس « الاصوات » ص ص ٨٧ ــ ٩٧
ــ تمام حسان « مناهج » ص ص ١٣٨ ــ ١٤٦

اساسا ، الى ان المقطع ليس ، في حقيقة الامر ، مفهوما لغويا قابلا للانطباق على جميع انواع الكلام في اللغة وانما هو مقياس نغمي خاص بنظم الشعر في اللغات الهندو اوربية . ولكن هذا المفهوم الخاص قد سلطت عليه بشيء من التعسف النظريات الصوتية الحديثة باعتباره ظاهرة صوتية عامة كسائر الظواهر الصوتية في اللغة ، وكانت نتيجة ذلك ان وقع اللغويون المحدثون في مازق وهو انهم قد عجزوا عن تحديد ماهية هذه الظاهرة الصوتية ووظيفتها فراى البعض انها ظاهرة صوتية لا وظيفة لها (٥٨) وراى البعض الآخر انها ظاهرة صوتية (٥٩) وذهب فريق ثالث الى انها ظاهرة فونولوجية (٦٠) على حين انكر فريق رابع وجودها بالمرة (٦١) لو رجع كل هؤلاء الى حقيقة المقطع الصوتي والمجال الأصلي الذي جعل للاستعمال فيه ـ اي نظم الشعر لحسمت الخلافات

٥٨) من هؤلاء جسبرسون (Jespersen) و سوسور (Saussure) و قرامون (Grammont) وبيترسون (Peterson) وستتسون (Stetson) انظر في ذلك A.J.A.S. Vol I. P38

٥٩) من هؤلاء ا ـ ك ـ فودج (E.C. Fudge) وارنست بولغرم Ernest Pulgram) انظر المرجع السابق ص ص ٢٧ ـ ٢٨

٦٠) المقصود بـ « فونولوجية » (Phonological) هو ان المقطع يتالف من صواتم موزعة داخله على نحو معين ولا تعني انه وحدة صوتية ذات وظيفة تمييزية ومن انصار هذه الفكرة روزاتي (Rosetti) واوكونور (O. Connor) وهيامسلاف (Hjelmslev) وغيرهم ...

انظر المرجع السابق ص ٤٠

(صوتمية) Phonemic

٦٢) من هؤلاء مثلا القس روسولو (L'Abbé Rousselot) ـ انظر : اللسانيات ١ (١٩٧١) ص ٧١ وج بنكوسلي كالزيا (C. Pancocelli-Calzia) و ا . و . شيبوتور (E. W. Scipture) وا . جمالي (A. Gemelli) وج بستوري (G. Pastori)

المرجع نفسه ص ٦٤ ـ الهامش رقم ٧

التي بينهم ولما كان هناك أي داع الى دراسته في النثر والكلام العادي في ضوء النظريات الصوتية والصوتية الوظائفية أو الى التفكير في تعويضه بنظرية اخرى كما فعل ذلك عبد الرحمن الحاج صالح .

وبناء على ما ذكرنا فان النظرية الحركية الاندفاعية لا يمكن ان تكون بديلا لنظرية المقطع الصوتي لأن النظرية الاولى نظرية عامة تتعلق بظاهرة السياق الصوتي في الكلام على حين تتصل النظرية الثانية بميدان ضيق ومحدود هو الموسيقى الشعرية ولذلك فلا تضارب البتة بين ان تبقى هاتان النظريتان معا وان تستعمل كل منها في الميدان الذي خصصت له اما النقطة الثانية التي تثير النقاش في بحث عبد الرحمن الحاج صالح فهي المعنى الذي فهمه من كلمة « حركة » عند اللغويين العرب القدامى ؛ فهل قصدوا حقا بهذا المصطلح حركة الهواء او حركة الاعضاء كما ذهب الى ذلك الباحث ؟!

ان السبب الأصلي لتسمية اللغويين العرب صوت اللين القصير بالحركة هو في نظرنا ، ان هذا الصوت يمكن الحرف . حسب ما يخيل للسامع من التواصل : (بَ ـ بَ ـ بِ) على حين يبدو في حالة انعدامها بعده (أو على الاصح معه) (٦٣) كأنه ينطق في مكان واحد لا يبارحه . ولو قصدوا بـ « الحركة » ما فهمه منها الباحث لما سموا صوت اللين القصير « الحركة » طالما انه هو نفسه صوت لغوي ناتج عن حركة الهواء أو حركة الأعضاء .

واخيرا لا بد لنا من المناسب على الاطلاق ان يضع الباحث مصطلحات من أصل يوناني لاتيني للدلالة على المفاهيم العربية القديمة التي اقترح

٦٣) ان نظرة النحاة العرب القدامى الى الحركات كانت متأثرة بالخط العربي الذي ترسم الحركات فيه فوق الحروف او تحتها ولذلك لم يتصوروا ان الحركة تلي الحرف : انظر في ذلك الطيب البكوش « التصريف » ص ص ١٦ ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ١٩

إقرارها على الصعيد العالمي اذ ان في ذلك ولا شك تضاربا بين محاولته ابراز قيمة هذه المفاهيم وصلاحيتها لأن تدرج ضمن المفاهيم الصوتية الحديثة باعتبارها مفاهيم « عالمية » وقابلة للانطباق على كل اللغات وبين ما يوحي به تعبيره عن هذه المفاهيم بالفاظ من اصل غير عربي من عجز اللغة العربية عن توفير المصطلحات اللازمة للدلالة عن المفاهيم العلمية التي يكتشفها ابناؤها .

الخاتمة

لقد سعينا في هذا البحث الى التعريف بمحاولة رائدة للغوي الجزائري عبد الرحمن الحاج صالح في إثبات كونية المفهوم العربي للسياق الصوتي مما يجعله يشكل نظرية عامة ممكن تطبيقها على جميع اللغات وهي التي اصطلح على تسميتها بـ « النظرية الحركية الاندفاعية »

وقد تبين لنا بعد دراستنا لهذه المحاولة ان النظرية العربية المكتشفة لئن اتسمت فعلا بالشمولية والحداثة لمطابقتها احدث ما اثبتته الأبحاث الاكوستيكية فعلا بالشمولية والفيزيولوجية في السياق الصوتي اللغوي فانها لا يمكن ان تحل محل نظرية المقطع الغربية لاتصال كل منهما بميدان خاص .

كما اعتبرنا من المتأكد استخدام مصطلحات عربية للدلالة على المفاهيم المتصلة بتلك النظرية واحلالها محل المصطلحات اليونانية اللاتينية الأصل التي اختارها الباحث حتى تكون علامات وضاءة تشير الى مدى اسهام اللغويين العرب في الفكر الألسني العالمي .

★ ★ ★

العوامل الإقتصادية والإجتماعية في تأخر الثقافة العربية الإسلامية في العهد الوسيط

بقلم: كلود كاهين
تعريب: حافظ الجمالي

مقدمة

في عام ١٩٥٥، عقدت في بوردو ندوة علمية كان موضوعها الاساسي البحث فيما اصاب العالم العربي والاسلامي من انحطاط، بدءا من القرن العاشر الهجري، وقد شارك في هذه الندوة كبار المستشرقين المختلفي الميول، ما بين متعاطف مع العرب وتاريخهم وكاره، ضمنيا، لهم، حاقد عليهم، وشملت الابحاث كل صور الانحطاط، ومن بينها البحث الذي نقدمه. وسيلاحظ القارىء اتجاهي المستشرقين المشار اليهما في النص، وفي التعليق عليه.

ولقد بدا لي ان هذا الموضوع هام، وان معطياته علمية بحتة، بغض النظر عن كل فكرة سابقة.. ولهذا السبب، وجدت ما يبرر نشره في « المعرفة ».

عندما طلب الي ان أدخل في ندوة بوردو ، هذا الموضوع ، قبلت ذلك مباشرة لانني كنت اريد منذ مدة طويلة ان يتاح لي الوقت لفترة تفكير كانت تبدو لي ضرورية ، كما كنت أود ان أتعلم على أيدي سابقين تحدثوا عنه . واني لرغم على القول بان هؤلاء السابقين لم اعثر عليهم ، لا من حيث ان الانحطاط في البلاد الاسلامية لم يقلق عددا من الناس المسلمين او غير المسلمين الاكثر نباهة ، ولكن من حيث ان احدا لم يطرح المشكلة على نفسه بالصيغة التي نطرحها نحن الان هنا . وعلى ذلك فان الصفحات التالية لا يسعها ان تكون الا افكارا اولية . تصلح كمقدمة لدراسة يجب أن تتم يوما ما .

والحق أن الموضوع يشتمل على صعوبات اولية ، بعضها ذات سمة عامة ، وتتعلق بالطريقة ، والاخرى خاصة ببعض مجالات التاريخ ، ومن بينها المجال الاسلامي .

وقبل كل شيء ، اريد ان اقول ـ ولو كان في قولي ما يوسع مجال النقاش في مشكلة هي بذاتها واسعة جدا ـ اريد ان اقول كلمة حول الموقف المنهجي الذي يبدو انه ينبغي تبنيه واتباعه في استقصاء من هذا النوع ، لا لان في الحالة الاسلامية شيئا خاصا بها ، ولكن لان البحث قلما تناول هذا الموضوع بين المستشرقين . وليس هناك من حاجة لان يكون الانسان ماركسيا ، لكي يقبل القول القائل بأن الثقافة انما تنمو في المجتمع ، وان العوامل الاقتصادية والاجتماعية انما هي عوامل تطوير لهذه الثقافة ، بدرجة مختلفة القوة ، وبشكل مباشر قليلا او كثيرا . الا انه مهما يكن من السهل ان تقبل مثل هذا المبدأ ، فان الصعوبة تبدأ متى كان علينا ان نبرهن ، في حالات مشخصة ، صور هذا التأثر بين حوادث ليست من طبيعة واحدة . ذلك ان العناصر التي يجب النظر اليها كثيرة ، وهي تتبادل التأثير فيما بينها ، ثم ان هذا الاثر يمكن ان يحس به مباشرة ، او على مراحل ، وبصورة آنية او تدريجية ، مع شعور الناس ، اصحاب العلاقة ، بهذا ، او دون شعور به عليهم ، فضلا عن ان استجابة هؤلاء الناس او ردهم على مشكلات حياتهم ليس بالرد

الآلي ابدا . وعلى ذلك فان على الدراسة ان تكون في الوقت نفسه ، واسعة ، عميقة متانية . وما من شيء هو اكبر خطرا من الاكتفاء ، في مثل هذه الحال ، بانطباعات شخصية سريعة ، او بمحاكمات تعتمد على المنطق المجرد ، وعلى هذا فان الملاحظات السريعة المعروضة هنا ، لا يمكن أن تكون اكثر من محرضات على البحث ، او فرضيات عمل .

ويجب ان يحاول هذا العمل انشاء علاقات بين حوادث من انواع مختلفة . وستعني هذه العلاقات ، بالبداهة ، ان المعطيات التي هي من نوع ما ذات اثر ما في الحلول التي تنتهي اليها المعطيات الاخرى ، ولكنه لا يسعها ان تتيح التأكيد بأن هذه الحلول تشتق منها بالضرورة ، وانه ليس من حل آخر ممكن ، ومعنى ذلك ان الغاية الوحيدة التي نهدف اليها ، علميا ، هي تحديد شروط لا اسباب ، وينشأ عن ذلك فيما يتعلق بموضوعنا الحالي ، أن من الاسهل على مؤرخ الثقافة ان يطرح اسئلة المجتمعات ، بصورة لاحقة ، من ان يقرر هذا سلفا اين عليه ان يقدم خدماته لذلك .

اما الطريقة التي يجب استخدامها ، كلما امكن ذلك ، فهي التاريخ المقارن ، والتاريخ المقارن ، فيما يتعلق بنا هنا ، هو تاريخ العالم الاسلامي نفسه من جهة أولى ، ثم تاريخ المجتمعات التي تحيط به ، اما في الزمان او في المكان ، وحقا فانه لا يمكننا هنا كما في المخبر ، ان نعزل عاملا ما ، بمفرده . لكن تحليل مختلف التركيبات التي يحتويه بعضها ، ولا يحتويه الاخر ، ينبغي أن يساعدنا على تقدير اهميته ، بصورة موضوعية ، والحق ان المقارنة بين مجتمعات مختلفة هي التي تتيح لنا أن نحصي ، في كل منها ، كل العوامل الهامة ، التي يوشك ما نعرفه عن كل منها في مجتمع واحد ان يقدم لنا فكرة غامضة ، او خاصة جدا .

ولقد جمعنا هنا بين العوامل الاقتصادية والاجتماعية ، لان من الصعب الفصل بينها ، في غالب الاحيان . ولكن هذه ليست متعادلة .

لا لان التنظيم الاجتماعي لا يتوازى دوما مع الوضع الاقتصادي بصورة بسيطة ، وفي وسعه في بعض الحالات أن يقدم لنا في بعض مظاهره صورا لحوادث من نوع آخر ، كما هي حال الفروق بين المذاهب أو الطوائف في بلاد الاسلام ، ولكن حتى عندما يقوم التوازي ، فان تأثير الشروط الاقتصادية والاجتماعية لا يتم بالصورة نفسها . فقد يكون هنالك تأثير اقتصادي مباشر في الثقافة ، من حيث أن « الاقتصاد » يعين ما يطلب من أنواع الثقافة . اما في اغلب الاحيان ، فان التطور الاقتصادي ، انما يتدخل عن طريق التحولات التي يحدثها في المجتمع . فالمجتمع أو هـذا الرهط الاجتماعي او ذاك ، هو الذي ينشىء الثقافة ، وبالتالي فـان الركيزة الاجتماعية وحدها هي التي يمكننا أن نلاحظ آثارها ذات الصفة المباشرة في الانضاج الثقافي . ولهذا السبب فاننا سنتكلم عن الحوادث الاجتماعية ، في العرض السريع التالي ، أكثر مما سنتكلم عن الحـوادث الاقتصاديـة .

بيد أننا عندما نتحدث عن المجتمع الاسلامي ، نصادف نوعا آخر من الصعوبات الاضافية ولكي نقرر أثر العوامل الاقتصادية والاجتماعية في الانحطاط الثقافي للعالم الاسلامي ، فان علينا أن نكون قد عرفنا هذه الشروط الاقتصادية ، وهذه البنية الاجتماعية . ولكن النقص في معارفنا هنا هو من الضخامة بحيث اننا اذا أردنا تفسير بعض سمات الحيـاة الثقافية الاسلامية ، بسمات معينة للحياة الاقتصادية والاجتماعية ، خلال القرون الثلاثة عشر من تاريخها ، فاننا سنجد انفسنا عندئذ فـي الحالة الغريبة التالية ، اعني حالة من يريد ايضاح ما نعرفه بشكل افضل عن طريق ما نعرفه بشكل أقل وضوحا . وهذا سبب آخر لكي ننظـر الى ما سنقوله فيما يلي ، نظرتنا الى اشياء اولية جدا ، وموقتة جدا .

★ ★ ★

واذا نظرنا الى الامور من عل ، رأينا أن هنالك في تاريـخ العالـم الاسلامي ، نوعا من التوازي بين المنحى الاقتصادي والمنحى الثقافي ، فالعهد العباسي الذي يمثل بالنسبة لاسـيا الاسلامية ، قمـة القـوة

الاقتصادية ، يمثل كذلك قمة الحياة الثقافية ، مع فاصل لا بد منه لتربية الاجيال ، وكذلك فان العراق ، وفارس ، الاكثر ازدهارا اقتصاديا ، هما كذلك الاكثر ازدهارا ثقافيا ، وعندما انتقلت التجارة الكبيرة الى مصر ، فان مصر هي التي تصبح المركز الاول للحياة الثقافية، بيد أننا نلاحظ ، في كل مكان ، بعد ذلك ، صورا من التقلص والتحجر الثقافيين ، تتوازى مع الصعوبات الاقتصادية القائمة في الدول التركية والمغولية الاسيوية ، كما تتوازى مع التوسع الاوروبي في البحر الابيض المتوسط . وعندما ادت الاكتشافات الكبرى في القرن السادس عشر الى تحويل تيارات التجارة العالمية ، عن الشرق الادنى العربي ، شهد الناس الانهيار المفاجيء لكل ما كان قد احتفظ به من الحياة الثقافية ، على حين أن الجانب التركي من الامبراطورية العثمانية ، الاقل تأثرا بما حدث ، كان يشهد ابسام الازدهار الثقافي الخاص به ، فلا يفقد الانحطاط الا بعد قرن او قرنين على الاكثر .

ومع ذلك ، وفي مثل هذا المستوى من العموميات المبسطة ، فان كل ما تشير اليه صورتنا هذه ، ليس الا نوعا من التقابل بين مختلف صور الحيوية الانسانية ، من غير ان نملك الحق في استخلاص شيء دقيق ، حول صور تفاعلها بعضها مع بعض . ولكن هذه هي التي يجب أن نحاول استخلاصها ، الا اننا ، في العرض الموجز الذي يجب ان نكتفي به هنا ، سندع جانبا ، على عمد ، بحث المرحلة الاخيرة ، اي تلك التي تبدا في القرن السادس عشر ، كما لو انها ثانوية بالنسبة لوجهة نظرنا ، لا لانه ليس هناك فائدة كبيرة من فهم شروط الانحطاط ، الكامل تقريبا ، لحضارة غدت يوما ما ، بين أروع الحضارات ، الا ان هذا الانحطاط ، في العصور الحديثة ، يتم في اطار دولي جديد ، وذلك يَرُدّ ، الى حد ما الى الهيمنة الاوروبية ، اي الى سبب خارجي ، غير ان الهبوط والتدهور الواضحين بدرجة متفاوتة تبعا للقطاعات ، كانا قد بدءا قبل هذه الهيمنة وهما اللذان ، وحدهما جعلاها ممكنة . وعلى ذلك فان دراسة العوامل

الداخلية للانحطاط - في القسم الثاني من القرون الوسطى ، هو الذي يبدو الشيء الاهم ، من دراستنا .

ويمكن القول ، بوجه عام ان الهنيهة الاساسية في التطور الثقافي الاسلامي ، تقع حول القرن الحادي عشر (وبعد ذلك بقرن في اسبانيا) . اما قبل ذلك فان كل المجالات الثقافية المعروفة يومئذ ، كانت تدرس في جو من الحرية المبدعة ، الواسعة نسبيا ، أما بعد ذلك ، فانه اذا كانت هنالك بعض الفعاليات الروحية ، الى جانب الفن ، مازالت باقية ، فان فعاليات أخرى اهملت تماما أو تحجرت . ولما كانت أوروبا ، بدءا من القرن الثالث عشر ، قد استيقظت جزئيا بحكم احتكاكها مع الثقافة الاسلامية ، ثم مضت بها اليقظة صعدا ، فان الاسلام الذي احتل ، خلال عدة قرون ، المكان الاول في عالم الثقافة ، ترك مكانه لغيره ، وقبل ان يُسبق كثيراً .

وعلى ذلك فان علينا ان نبحث في هذا القرن الحادي عشر عن التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي يمكن ان تعلل لنا ، الى حد ما ، ذلك التحجر الذي كان يصبح ، مع الايام ، انحطاطا ، وبدءا من الفرضية القائلة بأن كل ثقافة مهما تكن مزاياها وعيوبها الذاتية ، هي نتيجة لطلب من جهة ، ولخلق او ابداع من الوسط الاجتماعي الذي تنمو فيه من جهة اخرى ، فان علينا ان نبحث بم كان هذا الوسط الاجتماعي في اواخر القرون الوسطى يختلف عنه في اولها ، في مطالبه الثقافية ، وبم ، بالتالي ، كانت ثقافة القرون الاولى تستطيع او لا تستطيع الاستجابة لحاجات المسلمين في القرون التالية :

ويتميز عهد الازدهار الثقافي للاسلام ، من الوجهة الاقتصادية والاخلاقية ، بتعاظم في التجارة ذات المدى البعيد ، وفي اعداد سكان المدن ، ولا سيما في آسيا ، فمن اسبانيا الى الصين ، ولا سيما من بغداد وآسيا الوسطى ، الى الهند والصين والابيض المتوسط ، والفولغا كان

هنالك تجار من كل الديانات يجوبون انحاء العالم ، حاملين معهم بضائع ذات قيمة كبيرة ، ومستخدمين احيانا عملة ذهبية او فضية ممتازة ، واحيانا مجرد تحويلات مالية عادية ولكنها ذات مقاييس ضخمة ، ذلك انه ما من انسان ميسور لا يوظف بعض توفيراته في مثل هذه الاعمال . ومن المؤكد ان الزراعة تظل هي المصدرالاساسي لحياة أكثريةالناس ، وان ثروات الطبقة الارستقراطية او البورجوازية ، انما تقوم على الاراضي ، او عائدات الارض . ولكن البلدان ، وبعضها جديد ، وبعضها قديم ، لكنه نما نموا كبيرا ، كانت مع ذلك ذات اهمية كبيرة ، وهي المراكز السياسية والثقافية ، حصرا ، في العالم الاسلامي كله ، تقريبا . وعلى ذلك فان الثقافة الاسلامية لذلك العهد ، انما هي ثقافة مختلف فئات الشعب ، الساكنة في المدن ، اما الفروع القليلة المثقفة بين البدو ، الذين يسكن رؤساؤهم في المدن ، فهي استثناء بسيط جدا . واما الفلاحون ، فهم خارج شبكة التجارة الكبرى وسيظلون كذلك .

وليس في وسعنا ان نصور هنا هذه الجماعة المدنية ولكن يجب ان نضع جانبا بلاطات الخلفاء والامراء ، التي ينمو فيها نوع خاص من الادب ، ان لم يكن اصطناعيا كله ، فهو على الاقل مقصور او مقيد باذواق زبائنه الخاصين . ولكن كبريات الحركات الثقافية لم تنشأ ، في البداية من هذه البلاطات ، بل انها تتكون في البصرة ، او بغداد ، وبعض المراكز الحضرية الاخرى ، المختلفة حسب العصور ، وبالتالي فان ركائزها الاجتماعية اوسع من ان تقطعها عن الحياة . اذ انه يتجاور فيها رجال من كل المذاهب والديانات ، ويحاولون دمج تقاليدهم الثقافية بالثقافة الاسلامية الجديدة التي انشؤوها هم انفسهم .

وكان لبعض الفئات ، بين هؤلاء مكان خاص ، وهذه الفئات هي الكتاب المستخدمون في الادارات . وهؤلاء هم الذين ينشئون بالتدريج روحا طبقية ضيقة ، على كونهم ما يزالون يختارون من الاسر المتوسطة ، والاديان المختلفة اي من اولئك الذين يحتفظون ، لدى الاتصال بها ،

بشيء من الانفتاح العقلي ، وعليهم ان ينشئوا ادارة ضخمة لا بـد لهـا على كونها تتلقى الموروث عن الامبراطوريات السابقة للاسلام — من القيام بجهد كبير للتكيف ، والتجديد ، والتوسع . وعلى ذلك ، فان حاجاتهم، وأذواقهم تتناسب مع نمو الرقعة الجغرافية ، التي يعملون في طارها . أما ما يكتبونه فيتصل ، قبل كل شيء ، بالمسائل التي يمكن ان تهمهم مهنيا . ولا ريب أنهم شجعوا الرياضيين والحسابيين الذين كانت كتبهم مفيدة لتقدير الضرائب ، ومسح الاراضي ، الا ان فئة اخرى غير الكتاب ، كان لها وزنها ايضا ، ولو بصورة أقل وضوحا ، وهي فئة اولئك الرجال الذين يدعون انهم يلمون بمعارف متنوعة ، ويحسنون الكتابة الـى النظراء ، والامراء الاجانب ، لحساب اميرهم هم ، وكان هؤلاء ، من حيث أصولهم ، رجالا تؤلف ثقافتهم بين موروثات متعددة . ولا ريـب انه كان لهم تأثير كبير في تكون « الادب » ، أي هذه الثقافة العامـة ، السطحية نسبيا ، واللائقة « بالانسان الشريف » المسلم الذي كـان يعيش في القرن الثاني للهجرة .

وكان العلماء من فئة ذات افق اضيق ، وهم المختصون بالعلـوم « المشتقة من نصوص الاسلام المقدسة ، بيد أنهم هم ايضا ، كانوا مـن أصل اجتماعي مختلف ، عربي أو غير عربي ، ومن اسر كبيرة او صغيرة ، مرتبطين بباقي الشعب ، وربما كانوا قضاة ، الا انهم ، بصورة عامة ، أفراد عاديون ليس لديهم من وسيلة للعيش الا الملكية الصغيرة او التجارة اللتان تقربانهم من الفئات الاجتماعية الاخرى ، أما العمل الذي يقومون به ، فهو شيء لا يزال يبحث عن وجوده ، ومهما يكـن حرصهم علـى القرآن والحديث ، فان جهدهم الاول ينحصر في تحقيق الملاءمة بـين المشكلات القائمة في الواقع ، او في الحياة ، او التي تطرحها عليهـم ، أو تطلبها منهم السلطة ، وبين الصورة الاسلامية ، ولم يكونوا كاولئـك الذين جاءوا بعدهم ، يتحدثون في الفراغ .

ثم ان هنالك فئة البورجوازيين من كل الانواع ، كالتجار والباعة ، والصناع ، والشباب منهم خاصة ، الذين يحبون ان يجتمعوا في المساء

حول بعض المغنيات ، وانشاد الشعر ، كفئتين متنافستين في اللعب ، او على المائدة ، ومن الصعب تحديد ثقافة هذه الطبقة الاجتماعية ، لانها لا تملك ، كالامراء ، الموظفين ، والفقهاء ما تحتاج اليه من النساخين ، والمكتبات ، ولعلها تكتفي بالسماع ، والحديث دون ان تقرأ او تكتب شيئا ، وعلى كل حال فان النسبة القليلة من المؤلفات المنقولة في المخطوطات الى مكتباتنا تحول بيننا وبين ان نعرف هذه الثقافة نصف الشعبية ، بل لعلها تشوه منظوراتنا . الا اننا نشعر بوجودها ، من خلال مؤلفات العلماء نفسها . وحقا فاننا لا نملك من كل الشرق الاسلامي الا كتابا واحدا ، من عهد متاخر ، مخصصا للتجارة ، كتجارة ، واكثر من ذلك أن جزءا منه منقول عن الاغريقية ولكن عندما نلاحظ في الكتب المخصصة لعلم المعادن ، ان اثمان الاحجار الكريمة مذكورة بالتفصيل ، الا يحملنا ذلك على الاعتقاد بان الكاتب كان يخص بالحديث ، تجار الحلي ؟ فلا ينبغي التعجل اذن بوصف كتاب ما ، بأنه مجرد بحث ، لان صاحبه قدمه كذلك ، او حتى بسبب مما يشتمل عليه في بعض اجزائه . ونحن لا نرى ان الادب الاسلامي في عصوره الاولى كان اكثر بعدا عن الحياة اليومية مما كان مجموع ادبنا اللاتيني في القرون الوسطى ، وحتى ادبنا المكتوب باللهجات العامية .

وعلى ذلك فاننا نظن ان الثقافة الاسلامية في العصور الاولى كانت ذات قاعدة اجتماعية واسعة نسبيا ، وبالتالي ، كانت على صلة بالوقائع والحياة ، كافية كي تضمن لها الحيوية والانتشار . فما الذي جرى في منتصف القرون الوسطى ، مما اصاب هذه العوامل الملائمة ؟

ومن المستحيل ان نذكر هنا تفاصيل كل التاريخ الاقتصادي ــ الاجتماعي « الوطني » للاسلام خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ، ولكننا نعرف ان نهضة الثقافة فيهما كان يعاصر صعوبات داخلية خطيرة جدا من مستوى سياسي او ديني ، واقتصادي ، واجتماعي ، وقومي او وطني معا ، نشأت ، من نواح كثيرة ، عن هذه النهضة نفسها .

ولن الح هنا على التجزؤ السياسي للاسلام ، على الرغم من انه يتصل بحوادث قومية واجتماعية . بل ان الخلافة العباسية كانت الى حد كبير نتيجة انقضاض بعض الاوساط الايرانية على التفرد العربي بالسلطة . ولكن هؤلاء الايرانيين كانوا ، على الاقل ، يربطون مصيرهم بمصير اسرة عربية . ولئن كانوا يحيطونها بايرانيين فان هؤلاء كانوا قد عربوا بدرجة كافية ، واعتنقوا الاسلام ، لكي يتعاونوا معها ، ويعملوا ، على صعيد الثقافة ، لتكوين ثقافة تجمع بين « تراثات » متعددة ، ولكن في اطار اسلامي ، وبلغة عربية . وعلى ذلك فانه كان هناك ، خلال زمن ما ، ثقافة واسعة ، كانت اللغة العربية تضمن لها وحدة نسبية ، على الرغم من استمرار ثقافات لا اسلامية ، ولا عربية. وكان التجزؤ السياسي يترجم ، وكذلك يدعم امكانية الوصول الى الحياة العامة ، والى ثقافة غالبة تتألف من قبل عناصر سلمت من تسرب التعريب ، إن لم تسلم من التسرب الاسلامي ، وبالتالي فانها لم تكن تتصور ثقافتها في ثوب عربي . وهكذا فان ظهور ثقافة اسلامية فارسية، ثم ، بعد ذلك ، ظهور ادب تركي ، إن لم نتكلم على لغات اخرى اقل انتشارا ، كان بمعنى ما ، صورة من صور التقدم ، من حيث أنه كان يشرك بالثقافة الموحدة في المنطقة ، عناصر بقيت حتى ذلك الحين ، على هامشها ، ويضمن لها ، عن طريق توسيع قاعدتها الاجتماعية ، رسوخا يبرهن عليه استمرارها حتى زماننا هذا ، ولكن التناثر اللغوي للعالم الاسلامي ، حيث لم تكن اللغة العربية الا لغة المدرسة (او لغة مدرسية) اضر بالصلات الثقافية ، وتجلى في افتقار متبادل ، من حيث انه لما كانت العربية لم تتبن كل شيء من التراث القديم ، فكذلك الفارسية لم تأخذ كل شيء من التراث العربي ؛ وهكذا كانت الحال فيما بعد بالنسبة للغة التركية من حيث علاقتها بالتراثين العربي والفارسي .

وبطبيعة الحال فان السيرورة كانت بطيئة ، وظلت العربية مفهومة في الاوساط المثقفة حتى الغزو التركي ، الا انها ضعفت لكي تزول تماما تقريبا في الشرق اللا عربي ، بعد الغزو المغولي .

غير ان هذا التناثر اللغـوي ، على الصعيد الجغرافي ، يتضاعف ــ وهذا اخطر ــ بتناثر مواز ، ولو انه غير تام ، على الصعيد الاجتماعي. فقد كان جيش الفتوحات العربية عربيا ، ولم يكن جيشا محترفا . ولهذا فانه لم يكن مفصولا ، من اية ناحية ، عن المجتمع العربي المحيط به . ثم ان جيش العباسيين الاوائل ، بمقدار ما كان يتالف من ايرانيين متطوعين نصف مستعمربين ، ظل جيشا على اتصال ببعض فئات الشعب على الاقل . ولكن سرعان ما انشأ العباسيون جيشا محترفا ، وسرعان ما اختاروا عناصره ، لا من مجموع الشعب ، ولكن من فئات مستعصية نسبيا على الثقافة الجديدة ، كالبربر ، والاكراد ، والديلم ، أو من فئات اكثر بعدا ايضا ، اي من الاتراك الذين اشتروا صغارا كعبيد من آسيا الوسطى ، او من شمال البحر الاسود ، على حين ان قصور الخلفاء ومساكنهم كانت تعج بانواع اخرى من العبيد ، كالزنوج او الصقالبة . ومعنى ذلك بالجملة ان الخليفة كان يوطد سلطته بالاعتماد على الغرباء ؛ ولا ريب ان الموظفين وعددا من الندماء ظلوا من اهالي البلاد ؛ الا ان من الصعب ان نعتبران فئة من الناس المحيطين بالخليفة ، والغرباء الى هذه الدرجة عنصرا مساعدا على نمو هذه الثقافة .

وربما بقي أثر هذا التطور محدودا ، لو ان الجيش ظل فئة معزولة، لا صلة لها بمجموع الهيئة الاجتماعية . ولكن الامر لم يكن كذلك . وكان يجب الانفاق على هذا الجيش . وبغض النظر من مطالبه التي أمعن فيها بمقدار ما استطاع ، بالتدريج ، ان يعي بوضوح أن مصير الخلافة بين يديه ، فان جيشا من المتطوعين اكبر كلفة من جيش يدعى للخدمة الالزامية ، لمدة موقتة ، ولو انه ربما كان اكثر جدوى ، ولهذا اقتضى الامر ان يخص الجيش بجزء متزايد من موازنة الدولة ، ولما كانت الموارد تضيق مع الايام ، فقد احتاج الامر الى اقطاع رجاله اجزاء اكبر فاكبر من اراضي الدولة ، ثم الى منحهم حق الجباية ، من مناطق كاملة.

وقد اتاحت هذه الوسائل المكتسبة ، بهذه الصورة ، اتاحت للضباط ، الحصول على وسائل اخرى ايضا ، وعن طريق الجمع بين الشراء ، وممارسة الضغوط المختلفة ، تمكن هؤلاء من زيادة ممتلكاتهم ، وانشاء ثروات ارضية لانفسهم ، تتجاوز احيانا ثروات البورجوازيين ، وهكذا فان السلطة والثروة ، وبالتالي الوصول الى المرتبة الاجتماعية الاولى ، كل ذلك قد تم لاناس لسنا بحاجة لافتراض انحطاطهم العرقي الاصلي ، لكي نقول انهم بحكم اصولهم لم يكونوا قد تمثلوا ثقافة الشعوب التي يحكمونها تمثلا كافيا ، وبالتالي فانهم كانوا عاجزين عن الاسهام في ترقية هذه الثقافة ، وتتابع الامر على هذا النسق ، حتى اصبح الملك او السلطان هو نفسه اجنبيا .

وعلى ذلك فان قوة المقاومة لدى الطبقات الميسورة السابقة غدت ضعيفة . بل ان الفوضى التي يحدثها الجند ، والاضطرابات الاجتماعية والدينية التي سنعود الى الحديث عنها بعد قليل كانت ، مع الايام ، تفسد انتظام العلاقات والمعاملات في بغداد والعراق . اما في آسيا الوسطى فان تحركات جديدة للبداة هناك ، بدأت تعوق التجارة بين الصين وبين الفولغا وتضاعف التناثر السياسي في العالم الاسلامي بتنافس اقتصادي ، وبعيدا عن هذه الظروف ، كانت يقظة اوروبا المتنامية تساعد على التجارة بدءا من مصر بدلا من بغداد ، او من القسطنطينية . وعلى ذلك فان الذي حدث هو قيام ازمة في التجارة البحرية ، في العراق وفارس ، وهي ازمة ادنى قوة ، ولكنها حقيقية ، وهي ازمة في التجارة الدولية او القارية ، وبالتالي ضعف في الطبقة التجارية ، اما في مصر ، فلا ريب ان الامر كان مختلفا ، اذ ان تجار القاهرة اغتنوا بالتأكيد ما بين القرن العاشر الى الثالث عشر : ولكن هذا الاقتصاد التجاري لم يحل ، مع الايام ، دون استيلاء الجيش على الدولة والاراضي، ومنذ الان فصاعدا ، سوف تستمر التجارة ولكن من اجل ضباط هذا الجيش ، وبفضل العوائد التي يحصلون عليها من اراضيهم . وهكذا تضيق الحياة الثقافية حول القصور في نفس الوقت الذي تصبح فيه هذ القصور اقل كفاءة لقيادتها وتوجيهها .

ولنلاحظ ان الصراعات السياسية او الاجتماعية التي مزقت العالم الاسلامي ، منذ بداياته قد اتخذت دوما صورة الصراعات الدينية ، أو انها اختلطت بها ، والحق ان الفقهاء ، من حيث أنهم في العهود الاولى لم يضعوا للعقيدة حدودا فاصلة ، أتاحوا الفرصة لظهور طائفة من الافكار التي لم يكن من السهل القول : انها مطابقة للاسلام ، أو غير مطابقة له . ولكن نمو الدراسات الدينية شيئا فشيئا ، ادى الى ظهور مفهوم اعتبر هو الدين السليم في مقابل الشيع الاخرى . وبطبيعة الحال فان العقائد الاكثر خطورة من وجهة نظر الحكام ، هي تلك التي كانت تثير الثورات ضد الخلافة او ضد من تستند اليه من الفئات الارستقراطية القديمة او الحديثة او تلك التي تشجع على التناثر السياسي ، وهكذا بدات الفكرة التي ترى ان هنالك ارتباطا في المصالح بين السلطة ، والوحدة الاسلامية ، والدفاع عن المالكين ، والسنة ، تشيع لدى الحكام والثوار على السواء .

وكانت هذه الفكرة تظهر بوضوح كاف في الرأي العام ، بدءا من المغرب ، حتى آسيا الوسطى ، خلال القرن الحادي عشر .

وفي مثل هذه الشروط ، كان من الضروري للسلطة ان يعتنق الجيش مذهب السنة ، باكبر قوة ممكنة ، وكان الجنود المحترفون الذي ينشؤون على الخدمة العسكرية ، كعبيد ، منذ بداية العمر ، يتلقون ثقافة بدائية ، ولكن من الضروري ان يقر هذا التعليم في أذهانهم « سلامة المفهوم السني » ولا مجال لعلوم غير دينية ، او نظريات يمكن ان توحي للانسان بأفكار غريبة عن السنة . بل هنالك اوامر بسيطة ، وتربية لارادة الجهاد من اجل العقيدة ، كما يلقنونها ، ضد وساوس الشيطان التي تفسدها ، وتعصي اوامر الله ، ولا أدري ما اذا كان في وسعنا ان نجد المواد الضرورية للقيام بدراسة على هذا النوع من الهيمنة الروحية على الجيش ، من قبل السنة ، قبل عهد المماليك . وعلى كل حال فان سلطة الجيش الاجتماعية تضفي على مثل هذه الدراسة اهمية من الطراز الاول .

ولقد اتهم الاتراك بانهم وطدوا هذا العهد السني اللا متسامح ، كما لو ان كل الوان العقائد لم تختلط ، في وجدان الشعوب التركية ، ولا تزال تخطط ، وكما لو ان مفهوم الوحدة بين القانون الديني والقانون السياسي ، قد نشأ عندهم . ولكن الاتراك الذين كانو يشترون وينشؤون لكي يكونوا جنودا ، كانوا يتلقون هذه الفكرة من الاخرين . وكانوا يلقنونها ، لان سكان البلاد الاصليين لم يكونوا قادرين على تلقيها وحسن استقبالها مثلهم . وحقا فان هؤلاء الاتراك ، كانوا اناسا بسطاء ، جددا ، يحسنون الحرب ؛ فجعلوا منهم مجاهدين في سبيل الدين . ولما كانت هنالك اسر مالكة مهرطقة ، لا يكفي جيش نظامي محدود للقضاء عليها فقد شجع الرؤساء الترك ، في الشرق ، على الاستيلاء على السلطة ، بالاعتماد على جماعاتهم ، بعد ان فهم هؤلاء الزعماء تلك الفائدة التي يمكن أن يجنوها من البقاء الى جانب السنة : وهكذا نشأت الدولة السلجوقية ، واستولت على الحكم ، وكان استيلاؤها من الداخل عبر طريق السنة ، اكثر منه من الخارج ، اي من الاتراك ، وكذلك يمكن اعتبار دولة المرابطين في المغرب التي نشأت في الوقت نفسه ، حادثة شبيهة .

وقد يقال إن الثقافة السائدة كانت ستنتهي الى كسب هذه العناصر ، مع الايام . كما كانت قد كسبت الكثيرين من سابقيهم . ويمكننا ان نضرب امثلة على ذلك . ولكن الامور ، بصورة عامة ، لم تكن تجري كذلك . وكان الاطفال يربون كما ربي آباؤهم من قبل . ولكن هل كان يبقى الكثير من هؤلاء جنودا ؟ انه يمكن الشك في ذلك ، اذ ان شراء العبيد كان يتجدد بلا انقطاع وعلى ذلك فاننا دوما تجاه رجال سذج ، جدد ، هم الذين يتالف منهم الجيش ، او من اكثرية منهم . وحتى في المراتب العليا ، حيث بدات تتكون اسر مالكة اقطاعية ، فان تتابع الانتصارات الخارجية او تجنيد فئات جديدة من العبيد والجنود ، بفضل الموارد الناشئة عن استغلال الفلاحين والتجار ، كان يؤدي ، دوما تقريبا ، الى نفس النتيجة ، اي الى تنحي العناصر القديمة من الاتراك الذين تمثلوا الثقافة الشائعة .

ولم يستفد العلماء السنة ، وبصورة اعم ، كل اولئك الذين كانت السلطة تعتبرهم مفيدين لتأطير الشعب تأطيرا اخلاقيا ، لم يستفيدوا من هذا التغير ، زيادة في السلطة المعنوية فحسب ، بل ان شروطهم المعاشية ، وتنظيمهم الاجتماعي ، قد استفادت اكثر ايضا .وكان اسلافهم افرادا يعيشون كيفما اتفق ، على طريقة قريبة من تلك التي وجدوا عليها محيطهم . لكنهم الان ربطوا هذه المؤسسات الدينية ، بالمساجد بلا ريب ، وكذلك بالمدارس ، وبالطرائق الصوفية التي اعتبرت مقبولة (خانقاه) . وقد تلقى هؤلاء جميعا ما تراكم من الاملاك التي لا مالك لها ، والاوقاف ، بحيث انه كان بين يديهم جزء ضخم من الارض او من عوائدها المدنية .وهذا لايعني انهم جمعوا ثروة شخصية طائلة ،ولكنهم، كنقابة ، كانوا يتمتعون ، بميزة لا راد لها ، هي كونهم المحميين من قبل النظام ، اوالمستفيدين ماديا منه . وقد لا تكون القسمة بينهم وبين الجيش عادلة ، ولكنها قسمة على حساب الاخرين . وكان رجل كابن تيمية يعتبر ان مثل هذا النظام مقبول ، من حيث انه لا يوجد ما هو افضل منه .

ونحن نشعر بوضوح بهذه الروح النقابية التي تعمر قلوب « رجال الدين » هؤلاء ، عن طريق تراجم الحياة التي يضعها بعضهم لبعض ، اما كفئة بالجملة ، واماكمجموعة تسكن مكانا ما ، وكان على هذا النوع الاخير ، من حيث انه يقدّم ترجمة حياة كل الوجهاء من مدينة ما ، أن يكون اكثر اتساعا ، والواقع اننا نجد فيه عددا من رجال الادب وعددا لا حصر له من العلماء ، من غير ان يرد فيه تقريبا اي ذكر لأي واحد من الطبقات الاخرى ،ولئن وجد بين الحين والحين ذكر لتاجر ما ، فذلك لانه بعد ان جمع الثروة الطائلة ، ذهب يبتغي « العلم » .

وكذلك تغيرت روح الكتاب ، وذلك اولا لانهم اصبحوا العاملين في خدمة جيش ، اكثر مما هم موظفون في ادارة مستقلة ، ولا شك ان الجيش يحتاج الى كفاءاتهم ، الا ان سلطة الضباط على مناطقهم

(باستثناء مصر) تستبعد على كل حال تلك المشاغل المعقدة القديمة اللازمة للاجهزة الادارية المركزية . والشيء الهام بالنسبة للكتاب ، هو الاحتفاظ — حتى ولو لم يكن لديهم اي شاغل يشغلهم — بالمراكز التي يشغلونها لهم ولاسرهم ، وأكثر ما هنالك انهم منقسمون الى فئات متنافسة تبعا للوزراء الذين يعملون هم في خدمتهم ، والذين يستبدلون غيرهم بهم ، في كل مرة يقدر لهم ان يتسلموا منصب الوزارة ، وقد ادت هذه الروح الفئوية او الطبقية الى ذلك الاسلوب المتصنع الذي يملأ المراسلات الادارية بمقدار ما يملأ قطاعات متنوعة من الادب والذي يحتاج الى تنشئة يستفيد منها بالدرجة الاولى اولئك الذين يولدون في الوسط نفسه ، ومن جهة أخرى فان أثر الروح الجديدة للحكم بدات تحس كذلك لديهم ، هم ايضا ، ذلك ان ما كان ينتظر منهم ، الى جانب التنشئة الفنيةوالمهنية ، هو أن يكونوا من اتباع مدرسة ما ، لا ان يملكوا ذلك الفضول الحر الذي عرفه الادب القديم . وبتعبير آخر ، يمكن القول ان دورهمالثقافي لم يعد ايجابيا ، بل هو يضيف الى الانواع الاخرى من التعليم المتحجر ، روتينه الخاصة التي فقدت روحها ، ولا اعرف ماذا يمكن ان تقدم لنا مقارنة هؤلاء الكتاب بالكتبة الصينيين التقليديـين .

والامر الطبيعي في هذه الروح الطبقية ، التي نشأت بهذه الصورة ، هو من الوجهة الثقافية ، ان تحتفظ بما هو متداول مالوف ، ضد اي « تجديد » (وهذا لا يمنع تقلب رغبات الرؤساء) وعلى ذلك فـان الادب اللاهوتي أو الديني لن يهدف الى تحسين شيء ، بل يهدف الى جمع وتلخيص ، وتصنيف التعليمات القديمة ، وجعلها اسهل حفظا ، بعد تطهيرها من كل ما قد يكون فيها من هرطقات ، واكثر ما يكون في وسعه هو ان يضيف بعض التدقيق الاضافي في المعاهدات المعقودة مع الاجانب ، وفي نظام الحسبة ، ولكن دون اي تغيير للروح السائدة ، والفرع الوحيد الذي يحتفظ بحيويته ، من كل اجزاء المعرفة ، هـو التاريخ ، وذلك لان مادته تتجدد تلقائيا حتى ولو ظلت روحها جامدة .

ولانه يساعد على تمجيد الرؤساء ، وترسيخ التقاليد الدينية السائدة . اما شعر البلاط ، فقد استنزف كل التعابير التقليدية الكاذبة ، ولئن كان الفن يحيا بشكل افضل ، فذلك لانه يستطيع دعم أمجاد الرؤساء ، وتجميل حياتهم المادية ، من غير ان تكون للافكار التي يصدر عنها وضوح عقلي يسيء دينيا او اخلاقيا .

ولا ريب ان الطبقات الاخرى لم تزل من الوجود ، وكانت في بعض الاحوال تتألم اشد الالم ذلك ان الهجمات الخارجية المتتابعة في افريقيا الشمالية وفي ايران (ويمكن التعميم على العراق ، وسورية) التي ادت الى تراجع الزراعة ونمو البداوة لم تذهب بالصفة المدنية للثقافة ، ولا سيما اذا تضاعفت المدينة بحكم امير من الامراء ، الا انها اضعفت الوسائل المادية التي كانت بين يديها . وبخاصة اذا انضاف الى الانشطار الاجتماعي القائم بين الطبقتين الحاكمتين من جهة اولى ، وبين الكتل الشعبية من جهة اخرى ، انشطار ثقافي آخر يفقر كلا منهما ، ويجعل من الصعوبة بمكان ان ندرس الثقافة الشعبية التي كأن التعبير الادبي يتقلص اكثر فاكثر لحساب الادب المصنوع للطبقة الاخرى ، وليس من شك ان الروح الجامدة التي كانت هذه المجموعة الاخيرة تعلي من شأنها ، كانت تساهم في توسيع الشقة بين اللغة المكتوبة واللغة المقروءة .

ولقد كان من الممكن ان يؤدي وصول الطبقة العسكرية الى الحكم ، الى نشوء ادب جديد ولكن هذا لم يحدث . ولقد كان للمحاربين العرب ملاحمهم البطولية ، وكان للمحاربين التركمان مثلها ، لكن المماليك لم يفوزوا بها ، لانهم ، وهم الذين يتجددون باستمرار ، لم يكونوا يؤلفون شعبا له بعض الاستمرار التاريخي ، اما قصة الملك الظاهر بيبرس ، التي هي العمل الوحيد الذي يمكن القول انه يعبر بمعنى عن روحهم ، فانها تافهة ، لا سيما اذاهي كانت في الصورة التي قرأناها فيها ، وهي صورة متأخرة ، ولعلها كتبت بأمر من النظام ، لرفع معنوية الجنود ، تجاه صعود نجم العثمانيين .

وبطبيعة الحال ، فان هذا الوضع الثقافي لم يكن ليكتب له البقاء ، لو انه حدث شيء من التطورات الاقتصادية والاجتماعية الهامة ، يؤدي بدوره الى نشوء حاجات جديدة او شيء من الانقلاب في العلاقات الطبقية . ولكن التحجر الثقافي ، على ما قلنا ، قد سبق وصحب بتحجر، واحيانا بتراجع في الحياة الاقتصادية والاجتماعية . وهكذا فان مصر التي احتفظت ببعض الحيوية الاقتصاددية الحقيقية حتى عهد تيمورلنك، قد كانت كذلك هي الارض التي احتفظت بالثقافة العربية ، بافضل ما يمكـن .

ولا ريب انه كان هنالك عقول لا يرضيها هذا الترداد المتصل للتعابير القديمة . وكانت هنالك عقول تحاول ان تنشط ولكن على فراغ ، في محاولات كلامية او تجريدية لاتخلو من الذكاء . وكانت هنالك ، بصورة خاصة ، قلوب : وكان هذه طريق مفتوحة ، هي الهروب الصوفي ، شريطة ان يقطـع هذا التصوف عن كل صلة بالحياة العملية ، الا ما كان منها قبولا لاعطيات النظام، وكان التصوف الاسلامي قد بلغ مراتب عالية قبل ان يعود فينحط ، بدوره ، بسبب النقص في الدوافع المشخصة . ومع ذلك فانه ليس من قبيل المصادفة ان ينمو نموا كبيرا في ذلك العهد وان يتخذ وجهة مناقضة للتقدم الاجتماعي والثقافي العام . اما اولئك القادمون الجدد ، العاميون ، الذين وصلوا الى قمة الهرم الاجتماعي ، فقد كانوا ، بطبيعة الحال، اكثر تقبلا للصور الاقل عقلانية من هـذه الصوفية ، ولا ريب انهم ساهموا في تعزيز هذا الاتجاه . وفضلا عن ذلك فان النزعة الصوفية انما عرفت ارقى صورها في الارض الايرانية ، وكانت في ذلك على صلة بثقافة شعبية اكثر تحررا من دكتاتوريـة « العلماء » الناطقين بالعربية ، بحكم استقلال اللغـة .

★ ★ ★

وليس العالم الاسلامي ، بالعالم الوحيد الذي تحمل ارهاق جمعيات « رجال الدين » ذلك ان كل البلاد المسيحية في القرون الوسطى قـد

خضعت بالصورة نفسها لضغوط اخلاقية واقتصادية مثل هذا الارقاق من جانب الكهنوت الفني ، ولقد تسلح هذا الاخير بآليات مثل محاكم التفتيش ، والحرب الصليبية في الداخل ، مما لم يعرف العالم الاسلامي مثيلا له . وكان يؤلف جهازا اكثر حرية ، من بعض النواحي ، تجاه السلطة السياسية ، ولكنه كان اكثر انتظاما وتنظيما وانسجاما بما لا يقاس من جمعيات العلماء في الاسلام . ومع ذلك فان المسيحية الغربية قد تقدمت ، واحيانا بعون من الكنيسة ، فلا يكفي اذن في تعليل جهود الاسلام ، ان نتهم الدور الذي مثله هؤلاء العلماء ، مهما يكن شانه ، ولكن هنالك فروقا بارزة جدا بين المجتمع المسيحي والمجتمع الاسلامي ، خلال القرون الوسطى ، ذلك ان اوروبا انشأت ادوات حضارتها الروحية ببطء ، خلال تقدم اجتماعي واقتصادي ، لم يتوقف عن النمو ، رغم الازمات حتى العصور الحديثة على حين ان الازدهار الاقتصادي الثقافي ، في البلاد الاسلامية ، قد اتبع بانحطاط او جمود في المجال الاقتصادي ـ الاجتماعي ، وقد تكون المقارنة مع بيزنطه التي عرفت هي ايضا حوادث تحجر ، في جو من الانحطاط الاقتصادي ، مفيدة جدا هنا . هذا من جهة اولى ، ومن جهة ثانية فان الغرب لم ينشىء ، رغم المرتزقة الذين اضطر لاستخدامهم جيشا مفصولا عن الشعب ، ومتعلقا باكمله بالامراء : بالدرجة نفسها التي عرفها الاسلام ، ولم يكن نظام العبيد مجهولا فيها ، ولكنها لم تكن قط بهذه المقاييس ، ولم تخدم نفس الهدف .

وهذه الشروط الاجتماعية التي اشرنا الى تاثيرها الممكن ، ليست بالشروط الوحيدة التي يمكن ذكرها ، وعلى كل حال فاننا لا نعتبرها فريدة او مائعة لغيرها من العوامل ، ولكنها من حيث النتيجة ، تطرح علينا بعض المشكلات . وبمقدار ما تشرح لنا الجمود المتزايد للعالم الاسلامي ، فانها تقودنا الى القول بان هذا الجمود لم يكن مقتضى في طبيعة الاسلام نفسها ، من حيث هو دين ، وبالعكس ، فانه ليس من المشكوك فيه ان يكون التلاقي بين العامل الاجتماعي ، والعامل الديني قد ساعد مساعدة كبيرة على هذا الجمود ، بيد أن هذا

التلاقي نفسه ، على ما يبدو ، هو نتيجة الشروط الاجتماعية لتكون الاسلام الاول في المحيط العربي ، وعلى ذلك فان في وسعنا القول ان جمود العالم الاسلامي انما يفسر بشروط اجتماعية بعضها قريب منه زمنيا ، وهو يؤثر مباشرة ، والبعض الآخر اقدم عهدا ، وهو يؤثر عن طريق وسائل وسيطة ، وعلى مهل ، ولكنه يجب ، من جهة اخرى ، ان نتساءل عما اذا كان هذا التلاقي بين العامل الاجتماعي والعامل الديني ، لم يساعد على التطور الاجتماعي الذي رسمنا خطوطه ، من حيث انه جعل من الضرورة بمكان ، بالنسبة للسلطة ، أن ينشأ جيش سني قوي اجتماعيا ، وهكذا فان هنالك جملة من التأثيرات المتبادلة هي دوما مما يتميز به كل تاريخ .

ولقد قسم منظمو هذه الندوة مواضيعها بين عدد من الباحثين كي يرسموا صورة الانحطاط او التحجر الثقافي للاسلام ، وعوامله الداخلية ، وخصوني ، انا وحدي ، بمهمة وضع هذا الجمود في خلفيته الاجتماعية وليس لي من عذر اذا قلت ان الكفايات لم تكن متعادلة ، ولكني اطمع بأن يتصدى آخرون لهذا النوع من القضايا ، التي لا نظن انها مجال للبحث المجرد وحده ، بل انه قد يهم كذلك آخرين ، مسلمين او غير مسلمين ، يهتمون اليوم بأن يخرجوا حضارة من الجمود الذي علقوا به .

كلود كاهين

مناقشة

برنشفيل : لقد استمتعت كل الاستمتاع بمحاولات التفسير البارعة والصحيحة جزئيا ، التي قدمتموها لنا حول الاسلوب الزاهي للكتاب الذين عاشوا في آخر عهود القرون الوسطى . ولقد قلتم : « ان ذلك وسيلة دفاع بين يدي طبقة وراثية » واريد فقط ان الاحظ ان هذا الأسلوب الزاهي ، مع ذلك ، يعتمد بالدرجة الاولى على المجتمع . ولكن هذا النثر المقفى اكثر قدما بكثير ، وتظل دوما تجاه المشكلة التالية : فلماذا ازدهر هذا النثر المقفى الى هذه الدرجة ، وفي اوساط ليست بالضرورة متصلة بوسط الكتاب الذي أشرت اليه .

وثانياً : انك تقول انه لم يكن في موقف الاتراك شيء عرقي . وليس من شأننا هنا أن نعنى « بالعرقية » فانا لست مقتنعاً اننا نستطيع البت هنا بكلمة واحدة ، فان الأتراك لم يكن لهم هذا السلوك او ذلك ، لانهم من أصل عرقي ، آخر ، ولكن هذا يعود الى الشروط الاجتماعية التي كانت شروطهم وبالطريقة التي كانوا يعالجونها بها ، او التي يستخدمونها بها . فهل كونهم ، عرقياً اتراك ، لم يدخل في هذا الموضوع قط ؟ وعلى كل حال فان هذا ليس رأي معاصريهم .

والامر الثالث هو العملة . اني لا اعرف اذا كنت اردت ان تقول ان العملة الممتازة كانت حقا علامة على حضارة مزدهرة ومستوى عال من الثقافة . فلو صح هذا فسأكون كثير الريب اذ ان لدينا في عالم الاسلام نماذج وعلامات ، ظلت ممتازة خلال قرون هي قرون انحطاط : وهكذا فان العملة الذهبية في الشمال الافريقي في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، كانت عملة مستقرة ، جيدة جدا ، ولكنها لا تبرهن على شيء كثير فيما يتصل بالازدهار العام ، او بمستوى الثقافة .

واخيرا ، ورابعا ، اني في الحقيقة ، لمندهش بعض الشيء أنه حتى الآن ، لم يتعرض احد لا في المحاضرات التي القيت ولا في التعليقات التي تمت ، لوضع المرأة .. وأني لأشير هنا ، لا الى تعدد الزوجات بالدرجة الاولى ، بل الى اننا في هذه الحضارة التي ندرس تاريخها ، خلال القرون ، نجد أن فصل الرجال عن النساء ، الا في بعض الحالات الضرورية والتي لا محيص عنها هو أساس من اسس الحياة الاجتماعية واظن اننا نجد في ذلك وعلى الاقل الى درجة ما عنصر البعد لكثير من المواقف الايجابية ، واللاحضور . واعتقد أن بعض صور اللاحضور ، في الأدب والفن ، تنشأ عن أن النساء يبقين في المجتمع الاسلامي خارج الحياة العامة . وانا لأعرف جيدا ان هنالك استثناءات يمكن ان نذكرها: ولكن الحادث الاجتماعي ، والديني ، جملة هو هنا ، أو في هذا .

آييل ، يذكر بالدور الذي وجب أن تلعبه ، في تدهور الشروط الاقتصادية ولا سيما في الخلافة منذ القرن التاسع ، كما كانت الحال بعد ذلك في عهد المماليك ، تلك الزيادة المستمرة في الميليشيات المؤلفة من العبيد الاتراك الذي يتحررون باستمرار ويستقرون ويتملكون ، مؤلفين بذلك عنصراً غير منتج محكوماً عليه في مدة قصيرة أو طويلة بأن يعيش حياة بائسة ليصبح على كل حال طفيليا يرهق الاقتصاد كله .

ومن جهة اخرى ، فمنذ العهد التركي كان على طريقة اعاشة « السناجق » المتصلة والمشتركة مع الصناع والتجار المصريين والسوريين بالاضافة الى تخفيف الضرائب عليها او حذفها منها تماما مما كان يستفيد منه الاتراك ، كان على ذلك كله تأثير ضار في مالية الدولة . وفي الاقتصاد جملة ونصوص المقريزي وابن ايـاس ذات دلالة واضحة في هذا المجال .

لوسيرف : يجب أن يسترعي الانتباه لنظام تشكيل الحرس الملكي وحرس الخلافة ، ذلك النظام الذي يلاحظ ما له من شبه مع حادثة « البريتوريان » أو الحرس الامبراطوري الروماني .

كاهين : اني لا ادعي فيما يتصل بالاسلوب الزاهي Fleuri للكتاب انهم وحدهم الاصل في هذا الاسلوب . ولكن يجب ان يكون لهم بعض الاثر في نجاحه .

ثم اني لا استبعد سلفا كل علاقة ذات صلة بالطبع العرقي : ولكن عندما نلاحظ تاريخ الاتراك ، قبل دخولهم في الاسلام ، وحتى في الاوساط الداخلة في الاسلام من دون ان يكون لها صلة بالسلطة ، فسوف نجد خليطا اكبر من الآراء من كل نوع ، ومن غير تعصب .

اما دور المرأة فلا ريب ان هذه قضية يجب ان تبحث ولم اتعرض لها ، لكن كان علي ان افعل .

اما المقارنة مع الحرس الامبراطوري الروماني ، فهذه قضية لا اعرفها ، ولكن اخيرا ، هذا الحرس قد انشىء للدفاع عن ملك ، لا للدفاع عن مذهب ما . واذن فلا ريب ان هنالك فرقا ، غير ان هنالك نقطة تشابه بين الحالين .

برنشفيل — وحول العملة : هل تعتقد ان نوعيتها الجيدة قرينة تشير الى عظمة الحضارة ؟

كاهين — لا بد من تجمع عدد من الاشياء ، لكي ينشأ عنها مدينة زاهرة ، وقد تساعد نوعية العملة المحسنة على انشاء اقتصاد زاهر . على الرغم من ان هنالك ايضا حالات تكون فيها مثل هذه الحضارة مصحوبة بتضخم العملة .

مارو — يجب أن يوضح انه لا يجب ان نتصور البربتوريان من خلال فكتور هوغو . بل ان هؤلاء كانوا خيرة الجيش الروماني ، وكانوا يأتون الى روما ليتثقفوا بالثقافة العسكرية الرومانية في صورها العليا ، اي كان عليها أن تتدهور في الجيوش المختلطة .

آبيل ـ تعيش الحضارات حياة مادية . ولئن كنا محامين او لغويين او علماء واسعي المعرفة ، او مؤرخين ، فانه يجب الا ننسى دور تلك الحياة المادية في الينابيع نفسها ؛ ينابيع فكر هو التعبير عنها ، او تركيبها ، او التعويض عنها .

ولقد تساءلت عما اذا لم يكن شيئاً هاماً أن نذكر ببعض الوقائع المادية التي تنتزع من الاسلام سمة الحضارة ، تلك السمة التي بدا أن بوسكي يسمها بها ، والتي ، من ناحية اخرى ، تتيح لنا ان نلاحظ بعض الجوانب . التي على ما اظن ، لا يصح اهمالها في التاريخ العام لانحطاط الحضارات .

وعلينا قبل كل شيء ، ان نتذكر ان الاسلام قام في اراض محرومة بشكل خاص : انها المنطقة نصف الصحراوية حيث يكون للحياة سمة الآنية وسرعة التقلب ، ولا سيما في الماضي ، مما يجعلها تتعارض بقوة مع ما نعرفه عن العالم الغربي .

وفي وسع الانسان ان يعيش في هذه الاراضي . ولكن يجب الا ننسى مع ذلك اننا وبغض النظر عن اسبانيا التي كان لها مصير خاص بها مختلف عن المناطق الاخرى التي فتحها العرب ، اننا في كل هذه المناطق التي هي تهمنا في العهد الذي كان فيه المسلمون يستقرون فيها نجد انفسنا في أرض حرمت منذ زمن طويل من اشجارها .

وفي ذلك الحين لم يكن هناك اية مادة صلبة في المناطق التي كان على العرب أن يستقروا فيها . فالراتنيجيات نادرة جداً والاخشاب الصالحة للبناء ضئيلة . وكان يجب الا عند الحاجة الى اشجار بل الى خشب يُصنع ، ان يجلب من بعيد ، اي من اوروبا او من الهند . ومنذ زمن طويل كانت هنالك مناطق مثل حوران لا تبنى الا بالحجارة ، اذ ما من سبيل الى البحث عن الاشجار لانشاء السقوف او الركائز .

ان المنطقة تحت الصحراوية هي أرض لا تتميز فقط باستحالة وجود الأشجار من اجل صنع الأثاث ، وحاجات النجارة ، وهياكل البيوت ــ والفنون الاسلامية شاهدة على ذلك ــ بل انها بالاضافة الى ذلك اراضي لا فحم فيها : ولو ان اسبانيا والمغرب ، وسورية ، بدرجة ضعيفة لا تشكو من هذا الحرمان ، فيما يتصل بفحم الخشب . وهكذا فقد عجل العرب بتخريب الاحراج في اسبانيا . وكذلك ليس هنالك فحم حجري ايضاً .

وكان يجب ان ننتظر أيضا ان ينشيء بعض المهندسين الالمان مصانع الحديد في اسوان ، لكي يوجد اخيراً في مكان ما ، من أرض مصر صناعة حديدية . ان الحديد في العالم مادة نادرة ، او شيء يجب استيراده ، بصورة عامة . مما يستبعد قيام صناعة يمكن أن تقدم للشعب الرفاهية ، واقول تلخيصا للفكرة ، ان ذلك مما يستبعد أن يسيطر الانسان على المادة والعالم ، او يتحكم فيهما .

وفي ذلك الحين ، كان الغربيون يتمتعون (كي نذكر بحديث السيد مارو ، وما قاله صحيح جدا) بصناعة معدنية تفترض وجود انواع اخرى من المعدن المصنع ، في شمال اوروبا ، انواع صنعت على حدود الغابة السوداء . ان تقاليد الصناعات المعدنية مستقرة بقوة في كثير من مناطق البلاد التي كانت ــ غالية ــ رومانية والتي اصبحت تسمى فيما بعد بورغونيا والاوفيرانى . وستتيح صناعة الحديد للغرب ، أيام الصليبيين ان ترسل « فرقاً مصفحة حقيقية » للهجوم على الشرق الأعزل .

ولكن ليس كل ما هنالك هو الجانب العسكري : بل هنالك الادوات . الادوات التي تسمح بمتابعة سياسة التعمير ، وسياسة الهندسة المعمارية .

ولكن هذه الأدوات ، في الشرق ، قليلة جدا : وليست قليلة فقط من أجل صناعة الاسلحة ، بل من أجل صناعة كل ما يتيح تكامل فنون او صناعات التقريب واعني بذلك صناعة أدوات مقاربة كبيرة ، تسمح بصناعة الاسلحة وانشاء كل ما يمكن ان يستخدم كأجهزة او عدد (عدة) في أعمال المناجم ، وأعمال التجارة وفي الهندسة المعمارية وفي بناء المراكب .

ثم ان جودة صناعة المعدن شرط لجودة صناعة الجلود ولكن صناعة الجلد اساسية لصناعة القطر ، وبالتالي لقيام المبادلات التي كانت تتم بواسطة الطرق المعروفة في القرون الوسطى ، اي لقيام النشاط التجاري في القرون الوسطى ، الذي كان يتم اولا بالتنقل على الأرض او تبعا لخط الرين ــ الدانوب . ان جودة صناعة الجلد ، والحديد والقطر تؤلف عنصرا اساسيا في ذلك كله .

وليس للعرب مثل هذا . ان العرب يظلون فيما يتصل بالنقل يستخدمون حيوان الركوب ، وسيظلون كذلك الى ما لانهاية . ان بلادهم بلاد ينقصها الماء وليس فيها انهار تسمح بالنقل . وعلى ذلك فانه لايمكن تبادل اكثر من كميات قليلة من البضائع ، هي الثمينة في الغالب . واكثر من ذلك ، انهم لهذا السبب لن يصنعوا هذه المواد الثقيلة التي قد يكون تصديرها مفيدا .

واخطر من هذا ، انه لن يكون هناك مجال لانشاء هذه الصناعات اذ اين نحن في العالم العربي بل لن يمكن نصنع ان لن للحديد مايصنع تقليديا في العالم الاسلامي للمعادن الاكثر طراوة او الاقل صلابة: انه لا يمكن اعادة صهره ، اذ انهم لا يملكون وسائل ذلك . وقد يستطيعون عند الحاجة ، اعادة صناعته فلديهم النحاس ، وفي وسعهم اعادة استعماله . وفي وسعهم تنعيمه ، بالمطرقة الكبيرة او الصغيرة . اما الرصاص والتوتياء فلا سلطان عليهما . ان هذه منتجات كانت اعادة استعمالها في كل مكان ، ودوما ، هي القاعدة ، وما تزال .

ومع ذلك فان العرب ليسوا بعاجزين عن ممارسة المهن . وعندما تكون المادة المناسبة بين ايديهم ، فسرعان ما يمارسونها . ونحن نفكر بصورة خاصة بالعالم الاسلامي العربي الايراني : ففي السيراميك ، انما بلغ في العالم الاسلامي ، مستوى ممتازا عجيبا .

ولا مجال هنا للتحدث عن ضعف الاستعداد العرقي ان هذا اللاستعداد (النقص) الذي يأتيهم من الارض مفروض بالشروط البيولوجية التي تعيش هذه الشعوب ضمنها . وانه لصحيح ، مع ذلك انه عندما تفرض الأرض بعض صور الحياة او الوجود فانها سرعان ما تصبح عادات عرقية . وهنالك مناطق كان فيها حتى منذ ازمنة بعيدة وقبل ان يصنع الناس اسلحةنارية ، عمال مهرة يصنعون المطرقة ذات الراسين والمطرقة العادية ، والمبرد.بل انتاريخ الحدادين في السويد ، والاوفيرني والمناطق القريبة من ليبج ، المتميز بوجود بعض المواد والشروط في الأرض ، تيسر كسب هذه العادات . ففي هذه المناطق تتناقل العادات المهنية وطرائق العمل ، ويتكامل تجويد الصناعة .

اما في الشرق ، فما من مجال لهذا كله . انهم هناك يصنعون النحاس . ولكن حتما في هذا ، فان الناس لا يبلغون درجة التميز ذلك انه ان صح انه توجد قطع نحاسية جميلة محفورة او مطعمة ، فاننا عندما نفحص هذه القطع عن كثب نجد دوما ما يزعجنا في سوء الخطوط الناشيء ، الى حد كبير عن سوء المثاقب المستخدمة ، وكذلك ، على الأرجح ، عن عدم وجود شيء أساسي هو الوضع المستقر . وانظروا كذلك الى الذي ينقش النحاس اليوم ، اثناء عمله ، انه مثلا جالس ، ورجلاه متصالبتان او بصورة غير سليمة تجاه قطعة من الخشب مغطاة بالقار ، يدير عليها القطعة او الصينية او الوعاء الذي يريد حفره . ولئن زوّد هؤلاء العمال اليوم بمثاقب من صناعة اوروبية ، كان فنهم ينحط ويتدهور ، لأنه لم يعد يستجيب لحاجات الحياة الحالية .

وهنالك مثل ممتاز على هذا اللا استعداد الناشيء عن العادات. فلئن كان العرب هم المترجمون الكبار للفلكيين الاغارقة ، فانه يبقى انهم عندما يعيدون وضع قوائم الفلكيين الاغارقة لا يلاحظون ابدا ما ينبغي ان يروه في السماء (واول شرقي سيعود الى فن الملاحظة ، هو طغرل بك في سمرقند) وهكذا فان ادواتهم الفلكيةظلت بدائية تماما . فالاسطرلاب وعضا يعقوب والمسطرة الاختلافية (ذات العلاقة بالمنظر) لم تعرف بين أيديهم اي تحسين مادي .

ولكن الأسطرلاب الخطي الذي استخدمه الطوسي هو اعجوبة رياضية انشئت مما يشبه العدم المادي . وعندما نفكر ان المسطرة الاختلافية في الاسكندرية كانت تصل في الدقة ، الى حدود الدقيقة التي هي الحد الاعلى للرؤية بالعين المجردة ، وانه ما من اسطرلاب يصل الى دقة درجتين ، فان لدينا وسيلة لقياس الدقة الفنية في العالم الاسلامي .

ان في نقص الادوات ، ونقص امكانية التحكم في المادة لعنصر ضعف كبير ، لان هذا النقص سيؤدي الى نقص في الثروة ، وفي وسائل التأثير والتحكم في العالم ، ثم الى نقص في وسائل التبادل .

وقد يكون هنالك ما يجب ان يقال حول ضرورة التوازن المالي ، في عالم لا يعيش الا على المبادلات التجارية ، اذ عندما يريد الانسان ان يعيش ، من التجارة ، اي من التصدير والاستيراد ، فانه يجب ان يكون هنالك نظام للتوازن المالي . ولكن هذا التوازن سرعان ما انعدم في العالم الاسلامي . فبغداد القرن الحادي عشر ، والقاهرة في القرن الخامس عشر ، كانتا تعيشان على حيل اقتصادية ونقدية . فالسيطرة الاجنبية، والايذاءات المتجاوزة للحد ، والرعب الضرائبي ، كل ذلك سرعان مايقضي على موارد الافراد وثرواتهم . ومن هنا تعود الباعة ، بسرعة ، إخفاء ثرواتهم ، وهذا شيء خطير جدا في القضايا التجارية . وكثيرا ما اضطر

الناس الى حك حديد صناديقهم ارضاء لشره اولئك المماليك الذين كان عددهم يكبر باستمرار، والذين كان يجب دوما تجديد مواردهم وزيادتها.

برنشفيل ـ سأسأل السيد ابيل كيف يضع في هذا الاطار صناعة الفولاذ والاسلحة وتصديرها في البلاد الاسلامية ابو بدءا منها .

ابيل ـ لقد تحدثت عن صناعة يمكن أن تقدم موارد إنتاج الى العالم ومهما تكن جودة السيوف ، فانها تعطي الصناعة او التجارة وسائل للتأثير في العالم ، مثل تلك التي كانت تقدمها المطارق المائية Montint والمنافخ (او الاكيار) المعروفة جيدا في عالم القرن الثالث عشر .

برنشفيل ـ ولكن تصدير الاسلحة ، في زمن ما ، قد افسح المجال لتوسع العالم الاسلامي ، باتجاه العالم السلافي الذي لم يكن بعد قد تنصر .

ابيل ـ ان الواقع الاحصائي ينبغي ان نبحث عنه . وليس هو مما اجده لا في ذاكرتي ، ولا في اوراقي .

كاهين ـ لقد اهملت المشكلات التقنية ، اذ لا استطيع في اربعين دقيقة ان اعالج كل المواضيع . ولكن ملاحظات ابيل مفيدة جدا في لفت الانتباه الى الضرورة المطلقة ، القاطعة بمباشرة هذه الدراسات حول كل الجوانب التقنية في العالم الاسلامي . ومن هذه الناحية ، فان كل ما قيل هو على جانب كبير من الاهمية ، وهو ايجابي جدا .

ومع ذلك فاني لا أوافق على طريقة عرضه للاشياء ، فيما يتصل بالوضع الجغرافي للموارد المعدنية والمناجم ، التي هي موارد مستمرة تقريبا ، ولم تمنع ان تقوم أروع الحضارات في بلاد محرومة . وعلى ذلك فلئن وجدت حضارات رائعة في بعض الظروف ، وحضارات دون ذلك في ظروف اخرى ، فهذا لا يعني ان طبيعة الارض لا قيمة لها في ذلك ، ولكن يعني ان هذه عنصر بين عناصر اخرى ، فضعف اراضي الشرق

الاوسط ، وافريقيا الشمالية ، وفقرها بالمناجم ، يسبب بالتأكيد بعض الصعوبات في شروط الاقتصاد المعاصر . ولكن هذا كان اقل صحة في القرون الوسطى . وانه ليجب الكثير لكي نزعم أن الغابات ، في الحين الذي وصل فيه العرب ، في القرون الاولى للاسلام ، غابات سورية وصقلية واسيا الصغرى ، ومصر ، من بعض النواحي . .

برنشفيل ــ وبلاد القبائل ايضا . .

كاهين ــ اقول انه يجب الكثير لكي نزعم ان هذه الغابات قد اندثرت وقد لا تكون هنالك مناجم ضخمة لكل المعادن ولكن كان هنالك شيء منها ، مع ذلك ، لا في سوريا ، ولكن في مصر ، التي لم تكن بعيدة جدا . وانا مقتنع بأن شروط الانتاج الكمية في ذلك الحين كانت تكفي الحاجات.

وعندما يتحدث ابيل عن غزو الصليبيين ، فاني لا ارى ما يبرر اقواله . ففي ايام صلاح الدين ، بدأ المصريون يشعرون بنقص الخشب والمعدن ، ولكن اهل بيزه وفينيسيا ، كانوا يوفرونها لهم بغزارة . صحيح أنه كان هنالك تخريب لجزء من الثروات الطبيعية ، ولكن هذا لا يعني ان التجهيزات المعدنية والنباتية للشرق هي التي تدهورت ، اذا صح هذا القول ، بل ان بعض شروط التاريخ العام لهذا العالم الاسلامي هي التي لعبت دورها .

واني في سبيلي الى دراسة كتيب صغير ، يتحدث عن سوء ادارة موارد مصر في الخشب وأشياء اخرى ، في القرن العاشر والثالث عشر ، لكي أطبعه كانت هنالك ايام لم يحسن فيها النظام ادارة هذه الموارد الجغرافية ، ولكن هذه الموارد كانت موجودة . وبطبيعة الحال ان هنالك بعض الضعف التقني في العالم الاسلامي ، بالنسبة الى العالم العربي، ولكن يجب أن نحسن وضع الاشياء في مكانها . ففي العهود نفسها ، ليس صحيحا دوما ان هذا الضعف كان قائما . فالرحلات الاوروبية ، قد ساعدت بلا ريب على تقدم فن قطر . ولكن الصورة التي تطرح

فيها مشكلة قطر في البلاد الاسلامية ، ليست مثلها في بلاد الغـرب ، وكان هذا الاكتشاف بعيدا عن أن تكون له نفس الاهمية في بلاد نصف صحراوية وبلاد كبلاد الغرب .

واعتذر عن تأويل ما قاله ابيل بهذه الصورة السريعة . ولكنـي مضطر للايجـاز .

والشيء الذي نستطيع استخلاصه من هذا كله ، هو انه يجب القيام بأبحاث جدية وموثقة . ان لدينا مشكلة اساسية تطرح ، ومن اجلها يجب ان نعترف لابيل بانه استرعى انتباهنا حولها بقوته المعهودة .

بوسكيه ـ اشكر ابيل على ما قاله . لقد اطلعنا على اشياء جديدة . وكما قال كاهين ، فان هذه طريق يجب ان نسير فيها .

واريد ، حول الاساس ، ان اطرح سؤالين ، وان الاحظ ملاحظة صغيرة .

وستكون هذه الملاحظة سريعة جدا ، فانا لا اعتقد ان الصعوبات المالية يمكن ان تعرقل الى هذه الدرجة ، تطور بلد ما على نحو ما نرى ذلك في فرنسا القرن الثامن عشر ، حيث كان هنالك نظام ضرائبي سيء جدا . واقراوا ، اعترافات روسو ، حول هذا الموضوع . فلو انه كان افضل ، وكانت الادارة المالية احسن ، فعلى كل حال لم يمنع ان التطور تتابع رغم ذلـك .

اما السؤالان فهما التاليان .

ان ابيل زعم انه لم يكن في الاسلام الا حيوانات حمل ، وهذا صحيح جدا ، ولكنه كان في جزء هام من الامبراطورية الاسلامية بقايا طـرق رومانية . وعندئذ ، اتساءل : عما اذا كنا لا نستطيع طـرح السؤال

التالي : فلم لم يعن المسلمون بهذه الطرق الرومانية ، مما كان يمكن ان يزودهم بأكثر مما هو حيوانات الحمل ، على الطرق ؟

والسؤال الثاني — وقد يكون هذا قد اتضح — ولكني شديد الجهل ولا أعرف ذلك الا عندما آتي الى هنا . وقد كانت هذه المعرفة خير ما استفدته من هذه الندوة : — فهل حدث ان المسلمين قد ابتكروا شيئا الا ان هذه التقنية التي ابتكروها ، مضت مباشرة الى حضارة اخرى أكبر قدرة على ادراك فائدة هذا الشيء ؟ .

واني لافكر في هذا للسبب التالي : فلو اننا فكرنا بالسنوات الفاصلة ما بين عام ١٩٠٠ — ١٩١٤ ، للاحظنا ان فرنسا كانت في المرتبة الاولى ، في الابتكار على الاقل ، في وضع المبتكر موضع التنفيذ . وكانت الابتكارات هي السينما والسيارة والطائرة . وليس موضع شك ان الصناعة السينمائية قد كانت صناعة فرنسية . وكذلك فان فرنسا هي أول من نجح في صناعة الطائرة ، على المستوى التجاري ، او تقريبا . اما بعد ذلك ، فكانت تصنع الطائرات اكثر فاكثر ، ولكن بصورة نسبية . ولكن فرنسا تهبط بعد ذلك بسنوات الى مرتبة ادنى .

وأريد ان اعرف ما اذا كان شيء من هذا القبيل قد حدث في عالم الاسلام بالنسبة الى المسيحية ، والى مختلف الابتكارات .

ابيل — ان هنالك شيئا مؤكدا . فلقد سبق لابن النديم نفسه ، أن رأى سيوفا مستوردة من « بلاد الفرنجة » ومنذ القرن الثالث عشر ، كان اهل جنوه وفينيسيا يحملون الى الاسكندرية في المراكب ، مادة خشب الاثاث ، وفحم الحطب ، والحديد . وكانت حلب واحدة من كبرى الاسواق المستفيدة من هذا النشاط .

ولقد تحدث بوسكي (بوسكيه) عن تبني الايطاليين لجملة من التقنيات المستعارة من الاسلام ، فيما يتصل بالسيراميك . ان في ذلك

لاشياء رائعة حقا ، ولا سيما في استخدام دهان الفخار وطلاءات مجربة، هي التي اعطت سيراميك فاينـزا Faenza انطلاقته الاولى ؛ ولسيراميك غوبيو Gulebio جزءا من طرائق زخرفته .

اما ان الصينيين ، في بعض العهود ، كانوا يستوردون اسلحة عربية فذلك مما لا ينقض فكرتي في شيء ، وذلك لانني نظرت من وجهة النظر التجارية لاستخدام الموارد الطبيعية والدائمة . وكان عرب مصر ، يصنعون من المواد المستوردة ، وتحت ادارة اهل فينيسيا ، مدافع بدت ، لدى الاستخدام ، غير كافية لكي تتيح للمصريين ان يقاوموا الاتراك .

* * *

ملف المعرفة

مرايا على سارتر

علي الخش

مرايا على سارتر

سارتر
الصدق والإنسان

علي الخش

قضى سارتر منذ خمس سنوات ، بعد ان جاوز الخامسة والسبعين من عمره . ولكن الوقائع كلها (تنظر الحاشية) تؤكد انه ما يزال حاضرا كليا ، سواء كفيلسوف ـ وان في دائرة لا توصف بالسعة ـ ، اما سارتر الكاتب المسرحي ، والناقدالادبي ، وصاحب الذكرات ، فمازال ملء السمع والبصر .

عرف سارتر منذ شبابه الاول باستقلاله فيالراي وهذا ما فوت عليه الحصول على شهادة الاغريجية ، لان اللجنة الفاحصة لم ترض عن جراته ، كما عرف بطموحه البعيد ، اذ كان يرجو ان يجمع في نفسه ((سبينوزا وستاندال معا)) اي الذهن الفلسفي القائم على التحليل ، والفن الروائي القائمعلى التركيب ، كما انه كان واثقا ان التاريخ سيتحدث عن سارترالشاب ، كما تحدث عن غوته الشاب .

واذا كان ثمة من سمة عامة تميز عمله ، فهو انه اعتبر الانسان أثمن من الفلسفة فابتعد بهذه عن الاحتراف وفروسية دون خيشوت . واذا كان هيجل قد تعهد بأن يجعل الفلسفة تتكلم الالمانية ، فان سارتر قد التزم بأن يجعلها تتكلم لغة الانسان لا كمفهوم مجرد ، بل كواقع حي ، ولو على حساب المنهجية الفلسفية احيانا ، او كما زعم خصومه .

بدا سارتر حياته فيلسوفا . وله في فترة شبابه دراسات يشهد الفلاسفة انفسهم بقيمتها الكبيرة . **ولكنها كانت فلسفة الصوامع والاديرة** ثم كانت الحرب ، فكانت نقطة تحول كبير في حياته وفكره . اصبح يأنس بكلمة اشتراكية التي كان فيما مضى ينكرها ويعافها . وثمة باحثون يرون انه قضى بقية عمره يعاقب نفسه ، لانه لم يهتم بالسياسة منذ بدايته . ومن ثم بدا مهمته ، المستحيلة في راي البعض ، الا وهي التوفيق بين الحرية الفردية وشمولية التاريخ ، او بين الوجودية والماركسية .

ولكن هل كانت مهمة مستحيلة حقا ، وهل عجز سارتر عن النهوض بها ؟ يخيل الينا ان هذا الايجاب لا يخلو من مبالغة ، فقد استطاع سارتر ان يغني كلا من الوجودية والماركسية بمبررات واضافات جديدة، ولكنه فشل في الدفاع عن السلطة السوفياتية في عهد ستالين ، وهذان هما طرفا الموضوع الذي يعالجه في « نقد العقل الديالكتيكي » .

وربما كنا لا نشط عن الصواب حين نقول ان بذور هذه الاضافات كانت موجودة في كتابه « دفاتر من اجل اخلاق » الذي الفه في شبابه ، ولم ينشر إلا بعد ثلاث سنوات من وفاته ، اي في عام ١٩٨٣ ، حيث يطالب بصورة اساسية بموت «الانا» ويقرر ان «الحقيقة الانسانية هي خلق للذاتها خارج ذاتها » ، وان كل خلق هو وجود ومعاناة ، حيث « ذاتيتي » لا يفلها عن التحقق كونها سرقت مني واندمجت بذاتية الاخر » . كما يقول « ان المطلوب منا هو ان نوحي ان ينظر الى البذل المطلق واللامحدود

كهوى حقيقي ، وكوسيلة للعيش ، فليس من سبب اخر للعيش سوى العطاء » .

ويقول في موضع اخر : « اننا نوجد بالاخر ، ونجد حياتنا في اضاعتها » . ونقرأ له : « ان ما يميز التاريخ هو الغيرية » ان المحرك الحقيقي للتاريخ ، وهو الغيرية ، ارحب من الديالكتيك ويحتويه . ان الديالكتيك ضرب من الغيرية » .

وغني عن البيان ان سارتر حين يقرر ان الحقيقة الانسانية « تخلق ذاتها » فانه يلغي الحتمية ، ويحل محلها الحرية ، وحين يضيف ان هذا الخلق يتم خارج الذات ، عبر الاخر ، ومن خلاله ، فانه يلتقي بالماركسية في غاياتها النهائية لا في منطلقاتها . وبكلمة موجزة فان ماركسية سارتر هي بنت الحرية . ومهما تكن هذه المنطلقات السارترية عرضة للجدل ، فان ذلك لا ينفي كونها اضافات هامة على الماركسية ، ولا يبرر الزعم بان سارتر حاول مهمة مستحيلة ، الشيء المتعذر كان انقاذ صورة جهاز السلطة في الاتحاد السوفياتي في عهد ستالين .

تميز سارتر بارتهان فكره بالواقع الحي ، والظرف المحاين . وقد وصفت فلسفته بحق بأنها امتداد لفكر المقاومة ، وللتيار المناهض للفاشية . بالوجودية التي تركز على فكرة الحرية ، وبالتالي مسؤولية الانسان مسؤولية مطلقة عن اعماله ، رد سارتر على موقف « التعاونيين » الحزع الجبان من المحتل الالماني ، ، وحين اراد ان يطور التيار المناهض للفاشية ، ويبلغ به أقصى غايته ، انتهى به الامر الى الماركسية . وقد سارع خصومه لاتهامه بالتناقض والعشوائية . واذا سقنا عرضا بان سارتر لا ينفرد بهذا الموقف ــ اي التأثر بالظرف المحاين ــ ، وان فلسفة هيجل بكاملها انما هي تبرير لظهور الدولة كتعبير اسمى عن ارادة وتطلعات الامة الالمانية ، وكاداة فعالة تصل بها الى الصدارة ، فان علينا أن نضيف أن سارتر لم يتناقض مع نفسه ، فهو لم يعتنق الماركسية كفلسفة ، ولكنه انحاز الى التيار الماركسي السياسي ، وما كان لانسان

نبيل أن يفعل يومئذ غير ما فعل ، يوم لم يكن من نصير لتحرير الشعوب وقضاياها العادلة سوى الماركسيين .

ومن جهة ثانية فان سارتر لم ينظر قط الى الفلسفة كما ينظر كاهن الى تمائم تحوي آيات مقدسة فيها شفاء للناس ابد الدهر ... بل كان يعتقد ان « الفلسفة وجدت لكي يتم تجاوزها »(*) وقد ادرك سارتر ان الوجودية ستبقى ناقصة بغير الماركسية ، وان هذه بحاجة الى دم جديد ومبررات جديدة ، فاقام ماركسية على اساس الحرية ، وقيد الحرية بفكرة البذل والعطاء ... فكرة الاخر ، وصولا الى الغايات النهائية للماركسية . فالحتمية تلغي الانسان ، والحرية القائمة على مبدأ الانا تدمره .

واخيرا فلعل سارتر ، كما يقول الباحث الكبير اتيين جيلسون « لعب في « الوجود والعدم » لعبة لم يخترع قواعدها » ، ولعل كتابه « نقد العقل الديالكتيكي » ظل يشكو من ثغرات ، ولكن ذلك المجهود الضخم الذي بذله للتوفيق بين الوجودية والماركسية يظل شاهدا على انه عانى مشكلة الانسان وقلق على مصيره ، كما لم يتهيأ لاي من خصومه ومعاصرية . ولهذا فان فرنسة التي فقدت في الربع الاخير من هذا القرن طائفة من اعلامها ، فقدت برغسون وفاليري ، وجيد ، ومورياك ، وارون، ولكنها لم تشعر بمرارة الفقد وخلو الساحة كيوم فقدت سارتر .

هل نذكر لبحار جازف بحياته في سبيل انقاذ المركب الغارق انه هو الاخر كاد يغرق ، ام نذكر بسالته الرائعة ، وصراعه المرير ، وانسانيته الفـذة ؟

ان سارتر حين جعل الفلسفة تمشي كتفا الى كتف مع الانسان ، قد اصبح بمغامرته الفكرية الخطرة ، بحر وبه ومناظراته ، لا جزءا من

تاريخ الثقافة الفرنسية ، فحسب ، بل من تاريخ الشعب الفرنسي ، وتاريخ النضال العالمي . وهو شرف لم يبلغه الا مفكرو الثورة الاوائل ، وفيكتور هوغو ، وبمعنى اخر فقد ورد على الفكر الفرنسي شرفه وتقاليده النضالية . وقد وعى هذه الحقيقة الجنرال دهغول ، حين استأذنته سلطات الامن في اعتقال سارتر عام ١٩٦٨ فكان جوابه : « انه لا يسجن فولتير » .

تحية لذكرى سارتر

(*) حرصنا في هذا الملف على ابراز مناحي سارتر الفلسفية . اما اعماله الادبية ـ ومنها المسرحية ـ فقد عرفها القارىء منذ عهد غير قصير ، بعد ان ترجم معظمها الى العربية .

(*) هذه الفكرة طرحتها لاول مرة الباحثة اني كوهن سولال في كتابها الذي ظهر حديثا .

(*) ينظر الحوار مع سيمون ده بوفوار .

سارتر في ذاكرة سيمون دي بوفوار

أريد أن أكون ستندال وسبينوزا معا .

أولى الناس بالحديث عن سارتر زوجته ورفيقة عمره سيمون ده بوفوار . وقد لقيها احد الصحفيين الادباء فداربينهما الحديث التالي:

ـ هذه الكناشة الصغيرة التي ادون فيها ملاحظاتي لا غرض بي منها سوى ان اطلعك عليها . هذا ما كتبه اليك سارتر في رسالة مؤرخة في ٢٠ ايلول ١٩٣٩ . لكن هذه الكناشة « الصغيرة » تحولت في الواقع الى سفر يضم مئات الصفحات صدر عن دار غاليمار بعد اربعين عاما من وضعه . ولزام انك قرأته . .

ـ قل اني اعدت قراءته بعد اربعين عاما . ولقد استهواني كيوم قرأته اول مرة ، حين كان سارتر يوافيني تباعا بما يكتبه منه . وتذكر انه وضعه من اجلي . هذا صحيح ، ولكنه في الواقع اطلع عليه اشخاصا اخرين مما اضطره الى اعطائه طابعا اكثر عمومية لم يكن يتوخاه . وعلى هذا فلسنا قبل « اعترافات خالصة » يبوح بها رجل انفرد باوراقه ، لكنها مع ذلك بمجملها مذكرات صادقة . .

ـ اتتذكرين كل شيء عنها ؟

ـ اجمالا لكني فتنت حين اطلعت مجددا على تفاصيلها . انها اعظم قيمة مما أتذكره عنها ، اكثر اغراقا في التأمل ، اكثر تجريدا ، وابعد عمقا . (تعرض الكاتبة هنا لحادثة ضياع هذه المذكرات والملابسات التي رافقتها مما رأينا اهماله) .

ـ الم يكن سارتر يفكر في نشر هذه المذكرات ؟

ـ في حال حياته ؟ كلا . ولكن لدي رسالة منه يقول فيها : « انـي اخاف ان ابدو شخصا كريها عندما تقرأ مذكراتي ، ما لم تعقبي عليها ، عند نشرها بعد مماتي بملاحظات تفيد اني الطف مما توحي .

لقد كان يتصور انه كريه الوجه ، ولا أعلم من من قرائه او قارئاته ـ اثنان أو ثلاثة ـ كتب اليه ليقول له ذلك .

ـ ولم ذلك ؟

ـ كان قاسيا في حكمه على نفسه ، وكان يظن ان ذلك قد يصـدم بعض قرائه . وانه اذا توفر له محبون فسيصار الى تصحيح ذلـك . وبغير ذلك فانه سيقدم للجمهور تحليلا لا رحمة فيه لنفسه . كل مايقوله عن فقر دمه ، برودته ، عجرفته ... اشياء كثيرة اجدها انـا مبالغا جدا فيهـا .

انه يعرف من رسائله على وجه أفضل ، ولكنه دوما عرضة للحظات شاعرية . ما أن يكون وحيدا ، وحيدا في مقهى ...

ـ عند الافطار على الخصـوص ؟

ـ نعم ، فذلك كان افضل الاوقات عنده . ولكن مساء ايضا قرب مدفاته و « أعوانه » الذين يعلو شخيرهم .

ـ هذا ما يسميه « العيش الهنيء » ؟

ـ نعم . فقد كان في الواقع ، حاد الحساسية بالعالم ، فيكل مظاهره وبينوناته . لم يكن اطلاقا باردا ، أو لا أباليا ، أو منفصلا ، كما يصف نفسـه . حتى أن في مذكراته قصيدة ، لكنه لم يرض عنها ـ وكان على حق ـ وقد قال « لا نصيب لي في الشعر » وانه لصحيح انه عندما كان يكتب ، كان النثر سرعان ما يأتي ، لانه كانشديدالرغبة بانيقولالاشياء بدقة . على ان اعجابه كان كبيرا جدا بما لارميه . وقد كتب عنهكراسات

وكراسات حسبها ضاعت فيما ضاع من اعماله . بل كان يعتبره مثالا لما ينبغي أن يكون الاديب .

ـ تتكلمين عن الدقة . فهل يبدو لك جانب « الشهادة » في مذكراته اهم جوانبها ؟ .

ـ احد جوانبها الاكثر اهمية على كل حال . لقد اراد ان يقدم تقريرا عن الحرب ، وفعل ذلك بصورة صريحة . لقد كان في مصلحة الرصد الجوي ؛ ولديه متسع كبير من الوقت . وكان يكتب ست عشرة ساعة في اليوم . لقد كان يريد ان يفهم الحرب ، ان يمسكها من احد اطرافها فبدت له « غريبة مضحكة » . . . ثم ان ثمة الجانب الاخر .

ـ اي جانب تعنين ؟

ـ جانب سارتر في طريقه الى التغير ، والذي يقص علينا نبأ تلك الفترة التي كان يتم فيها التغير ، ويشرح هذا التغير ، محددا ما هو عليه الان ، ما كانه ، وما هو في سبيله الى ان يكون . والحق لم يكن ذلك الا بداية تطور سوف يصبح اكثر بروزا اثناء مقامه بين السجناء ، ولكنه تطور تحقق منذئذ : تطور من الفردية الى ضرب من الاشتراكية ، في حين أن كلمة اشتراكية ، حتى ذلك الحين ، كانت تلقي في قلبه الرعب. لم يقدر قط ان في وسعه ان يكون سعيدا في عالم اشتراكي . وليس ذلك لانه كان يحب العالم الراسمالي ، بل لانه كان يرى ان ذلك يعطيه الفرصة لان تكون لديه « اسطيقا معارضة » .

عند ما عرفته ، في الحادية والعشرين من عمره ، بعد نيله شهادة الاغريجيه ، وتخرجه من دار المعلمين العليا ، كانت تلك فكرته الكبرى : اسطيقا معارضة . « انه ليس امرا سيئا ان يكون العالم سيئا فبذلك استطيع ان اقف في وجهه . هذا دوري . دوري أن اكون معارضا في عالم لا يعجبني ولا يلائمني . ومن جهة اخرى فانطلاقا من هذه القناعة يمكنني ان اكتب ، أن اعمل ، ان اكون فيلسوفا ، وان اكون كاتبا » .

وكان يعتقد انه في عالم حسن فيه كل شيء لن يكون له مكانه الضروري . زد على ذلك انه كان يرى ان الزامات الاشتراكية سوف تضايق الانسان الفـردي الذي كانــه .

واثناء الحرب مس التطور هذه القناعات . ولهذا رغب ان يراجع نفسه . وهو يعبر عن ذلك بصورة اخرى ، لا بكلمة كانت سائرة جدا في ذلك الحين ، ماخوذة عن هيدغر : كان يرجو ان يكون اكثر حقيقية واصالة . وفي حسبانه انه حتى ذلك الحين لم يكن حقيقيا تماما ، اي واعيا حريته ، ومتوخيا حريته .

ـ الحقيقي هو نقيض القذر (اللئيم) في الواقع ....

ـ اطلاقا . فاللئيم هو الحقيقي وقد انتهى . طبعا ثمة « كيفيات » يكون بها المرء لاحقيقيا من غير ان تكون دناءة صرفا ، اذ أن كل الناس يميلون الى ذلك ، ومن جهة ثانية فان سارتر يطرح في « دفاتر لاقامة اخلاق » سؤالا كبيرا : لم كان الناس تلقائيا « لا حقيقيين » ولـم ينبغي القيام بتحول كبير لكي يصبح المرء حقيقيا ؟

اذن فقد كان يعتقد انه لم يبلغ درجة كبرى من الحقيقية ، وان عيش الحرب بصورة حقيقية يعني الغوص فيها ، قبولها ، وان يحيا الوضع كما هو ، لا يخفيه عن نفسه وراء قناع ، ولا يدعي انه خارجه ، وانه انماهومشاهد . ذلك ما اراده الاكثر اثارة في هذه الدفاتر : هـذا البحث ، هذا التحليل ، وهذا التعميق لما كان عليه حتى ذلك الحين .

لقد تكلم سارتر عن نفسه كثيرا فيما تلا . ولكنه لم يكن مجيـدا كشانه هنا . إن الكتابة هي صيغته الحقيقية للتعبير ، وليس الكلام . ولهذا نجد هنا المسودات الاولى لكتابه « الوجود والعدم » وفقرات اصبحت بعد حين شهيرة حول « اللزج » والثقب ، وكذلك التحليل النفسي الوجودي . وفيها يبدأ بتكوين أولى أفكاره عن الزمن ، والماضي ، والمستقبل ، و « الاعدام » واللا شعور بوصفه عدما .

وهو يوضح لنا ، كما لم يفعل في كتاب آخر ، تأثير هيدغر فيه . لقد كان سارترمتعصبا لهوسيرل ، منذ ان عكف على دراسته في برلين . وكان يصعب عليه ان يتمثل هيدغر ، اذ ليس امرا هينا ان يغير فلسفته . ولكن رويدا رويدا بدا له هوسيرل مبالغا في المثالية .

وعندما نشبت الحرب ،كتب سارتر ، مع ندرة ما كتب مؤرخا لفكره ، : « إن زمني ، وموقفي ، وحريتي هي التي قررت أن ألتقي هيدغر . ليس في ذلك مصادفة ، ولا حتمية ، بل مناسبة تاريخية » لقد كانت فلسفة هيدغر اقل « ذهنية » واكثر تشويقا واثارة من فلسفة هوسيرل ، بمفاهيمها عن الموت ، والقدر ، والانسان الذي خلق لكي يموت ، وبدت له اوفق ، في الظرف الذي خلقته الحرب ، من فكر هوسرل الجاف ، الجامعي الى حد ما ، والمغرق في الذهنية على اية حال ؟

ـ هل كان سارتر وهيدغر يلتقيان كثيرا ؟

ـ كان بينهما لقاء واحد ولم يتحدثا فيه في الفلسفة .

ـ رغم اهمية التامل الفلسفي في هذه الكناشات ، فان سارتر يطيب له ان يقدم نفسه كاديب لا كفيلسوف .

ـ في المحادثات الاخيرة التي تمت بيننا عام ١٩٧٤ سالته : « واخيرا هل تفضل ان تذكر كفيلسوف ام كاديب ؟ » فاجاب : احب الي ان ابقى ككاتب ، لان العمل الادبي هو مطلق ، في حين ان الفلسفة وجدت لكي يتم تجاوزها ... انه شيء رائع أن يكون الانسان « كنط » ، ولكن ثمة الكنطية ، ثم اذا الفلسفة تمضي الى ابعد مما بلغته . ولكن حين تكتبين « راهبة دير بارم » ـ وكان يحب كثيرا هذا الكتاب ـ او « ابحاث » لمونتين ، فذلك مطلق . انه لن يتجاوز احد رابليه او مونتين ، ولن يتجاوز احد ستندال .

وأذكر اني حين عرفته ، وكنا في ميعة الصبا ، قال لي : « اريد ان اكون سبينوزا وستندال معا » . ولقد تردد كثيرا ، وتلمس كثيرا ... كان يكتب ابحاثا ذات اسلوب ادبي عليه اثر الصنعة ، واخيرا افضى به الامر الى « الغثيان » وهي عمل فلسفي الروح ، ولكنه في الوقت نفسه عمل أدبي بكل معنى الكلمة .

ــ عمل « جميل » ...

ــ نعم . ففكرة الجمال كانت عظيمة القيمة في نظره . وهو يفضي لنا بانه حلم دوما ان يكون محور حادث جميل ، كميلوديا ، او كقطعة موسيقية . وفي نظره ان الجمال كائن في سريان الزمن اكثر منه في التناظر، أو في المكان والمدى . ذلك انه لم يكن يحب الرسم ، ولكن الموسيقى كانت تبدو له شيئا تسوده ضرورة ، هارمونيا في الزمن .

ــ ولكن ثمة تلك الفقرة المشهورة في « الغثيان » حيث يصف هواة الحفلات الموسيقية بقوله : « إنهم يعتقدون أن الجمال يسري عنهم . فيا لهم من ال ... » .

ــ نعم ، يقينا . ولكنه في هذه الفقرة يتحدث عن النفر الذين يقومون باستهلاك الجمال ، وهم يجهلون كل الجهل ما هو الجمال . إن في الجمال ، على نقيض ما يظنون ، شيئا ممزقا ، وانه لا اشفاق فيه ، وهو كذلك دائما . إن كل استهلاك للمنتجات المسماة جمالية يعني اننا ندير ظهرنا للمعنى الحقيقي للشيء الجميل ، ولقيمته الحقيقية. وما قيمته في انه يملأ نفوسنا بالراحة ، شأن راحة الحلقوم ، بل على النقيض من ذلك ان يحملنا على التفكير ، وان يكشف النقاب عن بعض معاني العالم والنفس .

ــ هل كان سارتر في عام ١٩٣٩ كاتبا معروفا ؟

ــ نعم الى حد ما . فقد ظفر كتاباه « الغثيان » و « الجــدار » بتقدير كبير . لم يلاقيا اكبر رواج . وكان سارتر ما يزال بعيدا عــن الشهرة التي سقطت على راسه في عام ١٩٤٥ . وكان مريدوه يعلمون انه يكتب ، ولكنهم لا ينظرون اليه ككاتب حقيقي .

ــ إن ما يذهل لدى قراءة هذه المذكرات هو مرح سارتر الانسان .

ــ نعم كان ذلك من صفاته الثابتة . ترى كيف وقر في نفسه أني قلت له يوما انه لا يحسن الاصغاء للاخرين ؟ على النقيض مــن ذلك فان اهتمامه هذا بالناس هو الذي كان يتيح له رؤية حادبة على العالم ، وأن يظل حسن الحال ان لم يكن جسديا ، ففي وجوده في العالم . ولقد لازمه هذا المرح حتى موته تقريبا . اذ انه قبل ذلك بأيام ، في المشفى ، قال لاحدا صدقائه اذ كان يتاوله كوب ماء : « في المرة القادمة سنشرب في منزلي ، وسنشرب الويسكي » كانت تلازمه فكرة استئناف العيــد .

ــ قلتَ لي إن هذا المرح اكثر وضوحا في الرسائل التي تعديــن لنشــرها .

ــ ليس قبل تشرين الاول . ثمة نيف والف صفيحة . وبينهــا رسائل لحبه الاول . وكان يكتب اليها كما يكتب مفكر شاب الى فتاة جميلة يريد أن يبهرها بذكائه .

ــ وانت ايضا ؟ ...

ــ انا ، كان كرم نفسه ــ على كل الاصعدة ــ هو ما اثار اعجابي به ، عندماعرفته .

ــ ومع هذا فهو يؤكد انه فقير الدم .

ــ بصورة ما لم يكن منغمسا في الاشياء ، والاستمتاع بالاشياء كمــا هو شاني . كان دائما يلزم مسافة ، يراها ضرورية للكاتب . وكان يقول

إنه من غير الممكن ان تكتب عن شيء يأخذ بأعماقك . فلو انتابك خوف كبير ، فلن تستطيع ان تصفه ، وان لم تعانه فسيكون حديثك عنه باهتا . الرأي الصواب أن تكون قليلا ما في الهامش . أن تخاف بما يكفي لان تفهم ما هو الخوف ، ولكن بما يسمح لك ان تكون واضح الرؤية بحيث تستطيع ، مساء او في الغداة ان تتحدث عنه . هذا ما يسميه برودة .

ـ هل أشجاك أن تقرئي هذه المذكرات ؟

ـ أشجاني ؟ كلا ، ... لم يكن شجنا . بل اهتماما ... واعجابا متنبها . كما كان الامر دائما .

أجرى اللقاء : بيير بنيوشو

* * *

الفلاسفة يتحدثون عن سارتر

بول ريكور Ricœur : افضل اعماله المسرحية .

ادين له بالقليل ، مما لا يسمح باصدار حكم . ولعل السبب ان مرلوبونتي بدا لي أعظم قدرا في الفلسفة منه ... انني افهم الحرية كامكان وعقبة ، تفاوضا مستمرا ، وليس كذلك المطلق الذي اراده سارتر . واعتقد ان ديني لمسرحه يفوق ديني لفلسفته .

يورغن هبرماس : في المانيا ما زال حاضرا .

ينبغي لي ان اجيب عن هذا السؤال من وجهة نظري الشخصية . إن سارتر هو واحد من هؤلاء المفكرين النادرين الذين يرافقوننا طوال حياتنا ، ولو على مسافة ، مرافقة لا تتم فحسب عبر كتبهم ومناقشاتهم . وهؤلاء الاشخاص ، بأفعال ردهم على الاحداث ، يصبحون هم انفسهم عنصرا من التاريخ المعاصر .

مباشرة بعد الحرب ، فان سارتر مؤلف « الذباب » و « الايدي الملوثة » ، والثلاثية الروائية الاولى ، كان لنا نحن التلامذة واحدا من أوائل الاصوات الخارجية التي ادركناها بوضوح ، والقادمة من وسط قاتل هتلر . وبعد ذلك بقليل ، عندما قرانا ، ونحن طلاب أيضا ، كتابه : « الوجود والعدم » ـ رغم تباعد هيدغر عنه ـ رأينا فيه تكملة لا غنى عنهالكتاب « الوجود والزمان » . أما بشأن التهويل أو النش الانتروبولوجي ، فلم تكن المسألة مطروحة .

إن النظرة « الظاهراتية » بكشفها النقاب عن مواقف الحياة اليومية وعن الضبط السياسي لمفهومات « الحرية » ومشوقات المسؤولية ، كل ذلك كان يتوافق مع القناعة الوجودية لجيلنا في الاربعينات .

وخلال الخمسينات ، بقي سارتر حاضرا في الجانب الاخر من الراين. حاضرا في المناقشات اللاهثة ، التي لا تعد ولا تنتهي ، تلك التي خاضها مع مرلو بونتي . ولقد بقي موضوع هـذه المناقشات ، أي الحـزب الشيوعي كهيئة فكرية ، بالنسبة لنا مجردا ولا يدرك . اما كتابـه « نقد العقل الديالكتيكي » الذي انتظم فيه سارتر بالماركسية الغربية فقد وصل الساحة الالمانية متاخرا جـدا . ذلك ان ارنست بلوخ ـ وآدورنو على الخصوص ـ وهو الوحيد الذي تصح مقارنته بسارتر ـ كانا قبل ذلك قد جددا الفلسفة الهيجلية .

وفي الستينات كنا جد مشغولين بانفسنا . وكان يتم ببطء الانفتاح على البنيوية .

أما دور سارتر في الحركة الطلابية فقد رأينا فيه توكيدا أكثر منه اندفاعة جديدة . ولقد أعقب ذلك في السبعينات ، ذلك الافتراق بـين الغنى الساحق لاعماله في الشيخوخة (كتابه عن فلوبير) ، وبعض اعماله الاخرى التي تشي بعجزه .

شعوري اليوم : انا مع سارتر أقل متاعب من زملائنا الفرنسيين . انه لم يكن يوما بهذا القرب بحيث يترتب علينا أن نقف على مبعدة من هذا التنكر له : سارتر يبقى حاضرا .

بلاندين باري كريجل : BARRET KRIEGEL

ماذا بقي من سارتر ؟

لاكن صريحة ، كرم في النفس ازيد منه عقلا ، مثال يحتذى ازيد منه افكارا ، طريق ازيد منه منظومة : الطريق الذي ينطلق من الفلسفة

الفرنسية ما بين الحربية التي تسمرت وقرت على مزيج من الديكارتيه والكانتية ، مزيج تعظم ولم تفلح ممسحة الظاهراتية في إزالة الغبار عنه ، ولكنه بحث عن طرق التفكير السياسي . أرجو الا اقع في المفارقة ، ولكن ما بقي من سارتر هو فلسفته السياسية . ذلك ان الديموقراطية في فرنسة تؤلف مشكلة ؛ يضاف الى ذلك اننا رسميا نعيش في جمهورية . إني اعلم تماما أن بعض مناقضيه قد ظهرت حجتهم عليه ؛ وأن ريمون آرون ، وميرلو بونتي ، وكلودفور . واكتفي بهؤلاء قد اقاموا الدليل على وضوح رؤيتهم مقابل اعتداده الجموح . لكن يبقى في كتبه ، سواء منها « المواقف » وعلى الخصوص « الشيوعيون والسلام » وفي فلوبير ، تفكر من داخل الثقافة الفرنسية يعين على تشخيص المرض السياسي الذي ابتليت به النخبة لدينا ؛ ورواسب الحرب الاهلية . وهو تأمل يرجع صدى ميشليه ، وتين ، ورينان . لقد تاه سارتر عن طريق الثورة ، ولكنه كان يبحث عن مزيد من الديموقراطية ، وهو ما لم نبلغه حتى الان .

فلاديمير جانكليفتش : اعذرني . . .

اعذرني فلا يسعني الجواب . انت تعلم أني لم اعرفه حق المعرفة . ستجد « اكواما » من الناس يستطيعون الاجابة خيرا مني على هذا السؤال ؟ .

جان لوك ـ ماريون : الوصول الى الانسان المتحرر .

من فيلسوف « الوجود والعدم » و « نقد العقل الديالكتيكي » ليس من المؤكد ، حتى بعد أن بدأنا قراءة حقيقية لهوسيرل وهيدغر ، انه يسعنا ان نقول فيه خيرا مما قاله ايتيين جيلسون في عام ١٩٤٨ : « مهما يبد لنا مفعما بالموهبة ، فانه يتولانا الشعور أن المؤلف يلعب هنا

لعبة « ورق » لم يخترع قواعدها . ولكن يبقى لدينا كتاب أساسي الفه في عام ١٩٣٤ ، ونشر بصورة متواضعة عام ١٩٣٦ كمقال في مجلة دراسات فلسفية ، وأعني « تعالي الانا » وفيه يبدو شديد القرب بهوسيرل مؤلف « الابحاث المنطقية » ولكنه مناهض له او لكتابه « افكار » . ويقيم سارتر تعارضا بين الشعور ، الذي هو بصورة عامدة شعور بشيء آخر غير ذاته ، وبين الانا الذي لا يسعه معرفة نفسه الا بوصفه موضوعا متعاليا على الشعور بقدر تعالي العالم نفسه . « إن الانا ليس مالك الشعور ، انه موضوعه » وبذلك سرعان ما يتاح لنا الوصول الى ما كان هيدغر يسميه قبل عشرة أعوام « الانية » اي الانسان المتحرر من سيكولوجيته لتولي وظيفته بالنسبة للوجود . ورغم ان سارتر لم يعرف ان يحدد هذه الوظيفة او ان يبينها ، فاقل ما في الامر انه باستطاعه عن طريق التحرر الاول ، ان يعيننا على بلوغها . وباختصار فان سارتر فيلسوف نصف فينو مينولوجي . وليس ذلك بالامر القليل .

آلان فينكلكروت : الحياة كتقدمة .

في مقال عاطفي وقاس عن سارتر يقول اوكتافيوباز « إن الفكر النقدي هو الذي اتاح لكنط وهيوم ، ولديدرو وفوليتر ان يرسوا اسس العالم الحديث . إن فكرهم النقدي ذاك ، وكذا فكر ورثتهم في القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين ، كان فكرا خلاقا . اما نحن فاننا افسدنا النقد . لقد سخرناه لخدمة البغض : بغض انفسنا وبغض عالمنا .

وعندما يقول « نحن » فان باز يدوّل المسالة وينكر هذه المحاولة الشائعة : المحاولة الرامية لجعل سارتر كبش فداء لفئة المفكرين .

يبقى ان الفيلسوف الفرنسي لعب دوره في هذا الانتقال من النقد الى ذم الذات شأن آخرين كثيرين ولكن بقدرة على المراس لا مثيل لها . وانما تجاوزنا ارتداداته وتقلباته فان سارتر قد ارجع باستمرار المصادمات الكبرى في التاريخ المعاصر الى جدلية (ديالكتيك) السيد والعبد : بورجوازي ضد العمال ، امريكا ضد روسيا ، الغرب ضد العالم الثالث . المثلون يختلفون ولكن العقدة لا تحول . والسيد ، وقد ضاع بالنسبة للانسانية ، وتسمر في سيادته ، محكوم عليه بالانقراض : اما المستقبل وتحقيق الانسان فهما منوطان بالعبد الذي تحرر او حذف عبوديته . وبعبارة اخرى فان سلام الغرب البورجوازي هو في تدميره من قبل ضحاياه .

وتراجع النقد هذا الى مستوى عنف مجرد وتبسيطي امر مخيف . بيد انه يظل برغم ذلك حيا واي حياة .

إن اعجابي بسارتر بدأ مع قراءتي لكتابه عن « بودلير » في منتصف الستينات : وهو منصب على هذا الجانب من عمله الذي تعتبره الفلسفة « الحديثة » رثا : الفينومينولوجيا (الظاهراتية) وبالتحديد على عنايته بمسالة « من اجل الاخر » في وصف الوجود . فمن نادل المقهى في « الوجود والعدم » الى « ابله العائلة » ليس الانسان ، حسب سارتر ، ما هوعليه . انه يلعب لعبة كونه كذلك . من اجل الاخر . الحياة كتقدمة ،والذات كتصور وامتثال : إن سارتر لم يكن اول من بحث هذه الموضوعات ولكن من الممكن القول انها قط لم تحرق بمثل هذه البصيرة النيرة ، وبمثل هذه الدقة التي يعترينا في سموقها الدوار .

جانيت كولومبل استاذة الفلسفة بجامعة ليون

لب الأخلاق عند سارتر

ليس لأن السماء خاوية جائزاً كل شيء . . .

هماذان ؛ بعد خمسة وثلاثين عاماً من تأليفهما بين ايدينا : دفتران في الأخلاق ، تلك الاخلاق التي نادى بها سارتر في كتابه « الوجود والعدم » وهو يسائل الحرية اما هو ، وقد انهمك في مختلف مشروعاته ، فكان قد نسيهما ؛ اضاعهما . لكن من أتيح له حظ قراءتهما مرة فلن ينساهما عمره . بعض الفقرات فيهما جد موجزة ، وبعضها تؤلف تفصيلات مطولة بديباجة فلسفية مرصوصة ، وهي مذهلة بانفتاحها ، بمعدها التوكيدي ، بلهجتها لهجة الفتح ، وبحداثة الفكر النقدي . وكلها تستمد رشاقتها من غياب « الروح الجدي » او روح « الاهمية » غياباً جذريا .

ولعلها كذلك لانها بنت الأعوام التي تلت الحرب (١٩٤٧ ـ ١٩٤٨)؛عندما شهر سارتر الوجودية التي عرفها بأنها « لا مرجعية » الفرد الى التاريخ شهرها في وجه فلاسفة التاريخ ، من غير ان يقع في ثقل بيانهم .

ان هذه النصوص القديمة محاينة ، انها من جهة تجيب عن التشديد الاخلاقي من جانب اولئك الذين ، أمام تبدد الأوهام ، امام الأزمنة ، والحروب والركود في السياسة لا يريدون ان يقتنعوا باثبات ذلك ؛ ومن جهة ثانية فهي تسبب البلبلة لأولئك الذين يلجؤون ، من اجل مقاومة ما تقدم ، الى « القيم العليا المسطورة في السماء المعقولة » ، الى الناموس ، والى المعتقدات والروحانية . لان الاخلاق التي يعرضها

سارتر الحادية مدروسة : « لا من اله ، ولا من أنا اراني في حبور » ؛ وهي تطابق هذا التوكيد : « إنني أراهن على الانسان ، لا على الله » . ويستهل سارتر هذه المقطعات بعرض اخلاق مطابقة للدين ، اخلاق لاغاية لها الا ذاتها ، ومطابقة كذلك « لاخلاقية » ينبغي ان تقوم على « اختيار العالم » وليست شيئاً خارج ممارساته وغاياته . لا تصعيد الا في الفن : « ان الرسام لا يرسم الا لانه يريد المضي الى اقصى غايته ، اما الانسان فلا يقدم شرابا الا ليعدم العطش ، وعندما نشم زهرة ففي رائحتها تتحدد نهائية العمل » لا اكثر ، ولا اقل ، لا اثر للايديولوجيا . وليس هذا من السهولة بحيث نظن .

يضاف الى ذلك ان هذه « الاخلاق المشخصة » ان تكن ممكنة ، فانها ليست في اية حالة ، بنت الامر ، وهي ، على نقيض الاخلاق المجردة تجانب الشمولي كما تجانب طقسية القانون التي لا تقيم علاقات الا بين شخصيات او اشخاص حقوقيين ولا شك في انها تنطوي على الزام يستدعينا ، وعلى تحول في شعورنا ووعينا المتلقي بحيث « لا تكون مجرد حصيلة لما صنعوا منا » لان « الانسان ليس شموليا » : « ان اول حادث في التاريخ هو عدد الناس » فمتى وجد ناس ، وجد تعدد قائم على الاختلاف ، وما « الشمولي المشخص » الذي يجب ان تكشف عنه النقاب سوى « شبه » او هو شمول « منحول » اي على وجه الدقة الشمول الشكلي للقانون .

واقفا ضد الانسان الآلة ، ضد الانسان العددي ، ضد الزعيم الذي اضاعه روح الجدية ، ضد « الغفالة » ذات الالف راس ، كان سارتر يتحرك في غمرة الاختلافات ويستمتع بها « آلاف وآلاف من الاماسي المتماثلة في مطعم على ضفة الماء . تخترع كل مرة ، ويجدد اختراعها فهي متجددة متماثلة . ان الشيء العام يمكن ان يعاد اختراعه ولكن لا يمكن ابدا ان يكون آليا » فروق ومكرورات . ان العلاقات بين « الذوات » هي التي تجعل من الانسان شمولا كاذبا لا يمكن الحديث

عنه الا تبعا « لمواقف » تؤلف مجمعات ولكنها لاتؤلف شمولا : « أن الشمول المجسد هو مجموع البشر الذين يوجدون في ظرف تاريخي بعينه » وينادي في مكان آخر من « ملاحظات وفقرات » أن الموقف لا يتحدد بالسلبية ، ولكن لأنه تسبب بوجود هذه « الدفاتر لاقامة اخلاق » تجعل من الانسان خالقا . انها تقدم العمل الذي يثبت حالة الاحتمال ولقد كانت هذه ــ في « الوجود والعدم » قلقا ، تدميرا ، غيابا ، قصورا ، وثابت أن هذا المعنى السلبي لم يجر انكاره : فالتفاؤل ليس وصية يوصى بها ؛ وهو يقوم على النظر الى كل موقف اخلاقي على انه ممكن دوما حتى ولو نفذ الى قلب الاخفاق : « في الحقيقة ان الأخلاق انما تأخذ مكانها في جو من الحبوط ويجب ان تحبط اذ ما أن يفوتها الوقت ، او تسبقه ، إلا وانه في قلب هذا الاخفاق يترتب على كل منا أن يحمل مسؤولياته الاخلاقية » وعلى هذه الصورة تكون الأخلاق قريبة من الشعر ، الذي هو مطلق ، وبالتالي هو خيبة حتمية .

ولكن هذا لايمنع من أن نعيش حالة الامكان كفرصة او حظ بالنظر لازدواجيتها . ان هيجل ، بسبب من نقص «الحسية» لديه لم يدرك أن الخلق ليس عليه أن يمر بالسلب : « ان العمل خلق ، وليس الخلق هو السلبية » . واني لا اخلق شيئا آخر ما عدا نفسي والعالم معا . وهكذا فان الحقيقة الانسانية هي خلق للذات خارج ذاتها عندما اخلق، فانني انجو وانعرض للغيرية ، لأني في قيامي بالعمل اهب نفسي للآخر . وانه «حتى لو كانت نظرة احد الادعياء ، غير المتفهمة ، لاحدى لوحات بيكاسو لا تغير منها شيئا » فذلك لا يمنع : « أن علي أن اضيع نفسي لكي اجدها » . ولهذا فان كل خلق هو وجد ومعاناة حيث « ذاتيتي » لا يفلها عن التحقق كونها سرقت مني واندمجت بذاتية الآخر . ومرة ثانية يناقض سارتر هيجل . فالآخر ليس تخريبيا دوره لأن الافتقار الذي يسببه هو في الوقت ذاته تجديد : « ان المطلوب هو ان نومي أن ينظر الى البذل المطلق واللامحدود كهوى حقيقي وكوسيلة وحيدة للعيش . فليس من سبب آخر للعيش سوى العطاء »

بهذا الالحاد الجذري ، وبهذه القدرة الخلاقة لا يطالب سارتر بمجرد موت الله بل ايضاً بموت الانا . (« التخلص من الانا ») . وهو يدين ايضا كل استشراق وتنبؤ . « ان علم التاريخ يقتل التاريخ لانه يلغي الزمن » والحرية تقلب نظام كل شيء ما دامت تحمل معها حالة عدم امكان التوقع . « وهكذا فان التاريخ يصنع بالضرورة في الجهالة » وكذا فانه لا يسعنا ان ننشط الا من اجل اناس نحن على صلة بهم : معاصرينا ، الجيل القادم ، «المضطهدين هؤلاء ...» ولكن ليس لأجل طويل ، وبخاصة عندما يتطلب الامر تبرير الفساد الراهن او الوسائل المستخدمة باسم مستقبل افضل . ان الفترات المعيشة في حقبة في حالة صيرورة هي مستقلة في تاريخ ليس له نهاية ، وتتكون موصوليته من اللاموصولية .

أي غض من شأن فلسفة التاريخ التي كانت في اوجها ، هذا في حين يبقى سارتر حسب تعبيره هو من « بقايا الفوضوية » .

وهو وان كان يضع هيجل في قمة الفلسفة ، الا انه يفعل ذلك لكي يكون أقدر على النيل منه وعلى ثقب اسطورة رمحه .

الا وان ما يميز التاريخ هو الغيرية : « ان المحرك الحقيقي للتاريخ وهو الغيرية ارحب من الديالكتيك ويحتويه . ان الديالكتيك ضرب من الغيريــة .

وهكذا فان التاريخ هو الآخر : الآخر فينا ، سواء كان الفكر او المادة او اللغة ... والغيرية قد تنقلب الى ضياع يمارس اضطهادا محدوداً في الحالات التي ينتقل فيها الى الغير ثقل الآخر باستعباده « اذ ان الحرية وحدها عرضة للاستعباد : فلا يمكن مثلا استعباد آلة للكتابة وينوه سارتر في هذه المناسبة بأوضاع تهيىء للاضطهاد كالطفولة : والانوثة ، والجهل ، (والحيوية) على الخصوص .

وهكذا فان « الضياع يبقي الاضطهاد ، والاضطهاد يبقي الضياع . » مما لا يدعو ، كما يقول سارتر ، التفاؤل ويفسر التواطؤ المألوف بين

المضطهد والمضطهد (بفتح الهاء) (كالتواطؤ بين الرئيس ومرؤوسه) . ويقول سارتر : « ثمة في الواقع عالم يجب أن نمسك به هو عالم الضياع والمضطهد (بالفتح) يسارع اليه بقدر مسارعة المضطهد . » وهذا التحليل للضياع لا يمكن بدونه فهم مفهوم الحرية الذي ينادي به : « الأنسان قضي عليه بالحرية » وذلك لا بالمعنى الأنطولوجي فحسب ، « الانسان لا يوجد اولا ليكون فيما بعد » : بل ايضا بالمعنى الاخلاقي : فمهما يكن الالتزام ، أو الحدث او المصيبة التي تنزل بنا فان باقةامكاناتنا لا تفتقر من جراء ذلك ، بل تتجدد انطلاقا من العقبة المعترضة .

والحال أن التاريخ هو « الآخرون ، هؤلاء الذين لا يجري الكلام عنهم النساء ، الشرق (... ملبون نسمة) والمشتبه بهم ... وهكذا فان سارتر يفضح دعوى هذه الفلسفات الغربية التي تنظر الى الجزء على انه الكل ، وتقيم خرافة التاريخ الذي يوحد بين الناس مقام الله الذي اعلنت موته . ويطالب في وجه هذه الفلسفات بفهم الحياة وروح الحقبة التاريخية .

وهكذا فان التاريخ ليس كلا . فمن جهة « يخرج الانسان منه في كل لحظة » بما يترقب أو بما يتخيل ، وبالشعر ، والاخلاق . وهو بقلومه كفرد لا يختصره التاريخ . ومن جهة ثانية فان التاريخ يغوص في المادة ، والجسد ، والرغبة ، والسحر ، وثمة مجتمعات دعيت مجتمعات بلا تاريخ ، ويسميها سارتر « بدائية » كما انه يوليها كبير اهتمامه .

ان الباحثين غالبا ما يتجاهلون اهمية الجسد ، والرغبة او الاشتهاء ، والسحر عند سارتر . مع انه يتحدث عنها لا في كتابه « المجمل في نظرية للانفعالات » فحسب بل في « الوجود والعدم » . وهو يرفض جملة واحدة « أولية المعرفة » مبينا تجاوزها بالتجربة الحية ، فتبادل الأجسام في المداعبة محاولة من اجل محاولات التقابل الأيروتيكي في الحب ، حيث يعطي كل انسان جسده متعرضا لخطر الامتلاك من قبل الآخر ، ورغم الاخفاق .

من أم واحـــدة

ذلك ان صعوبة الأخلاق عند سارتر متاتية من النسبة او الصلة بالآخر ، كيف نرسي التأكيد « بان حريتي متضامنة وحرية الآخرين » او نؤكد وجودنا اخلاقياً الى جانب المضطهدين ، اذا ظلت الانطولوجيا فردية . في الوجود والعدم نصادف الآخر ، انه ليس كائناً « من اجل ذاته » ، واذا كانت الحرية هي اساس القيم في مقابلة الغايات القصوى فكيف يسوغ لنا أن نفضل توجهاً لاحقاً على آخر ؟

هذه الحقيقة يدركها سارتر ، يتتبعها من أول « دفاتره » حتـى آخرها : انه ينوه بضرورة السعي لفهم الحريات . مما لا نجده في « الوجود والعدم » ويحاول ، اعتماداً على السماحة والبذل ، اقامة علاقات متقابلة واخوية . وهذه الكلمة التي لا ينطق بها الآن ، ستكون ذات اهمية كبرى ، حين عاد سارتر في سنواته الاخيرة لابحاثه الاخلاقية اذ ابان سارتر ان الاخلاق لا يمكن قيامها على الحرية وحدها ، وأن اساسها الثاني هو الاخاء وانه لواجب ان يكون الاخاء ممكناً رغم الارهاب، وهذا الامكان ينبغي ان نرسي اســـه . وحينئذ يجد له سارتر مصدراً جسدياً « بين اخوة لانهم ولدوا من أم واحدة » (المقابلات الاخيرة عــام ١٩٨٠) اهو مصدر خرافي ، عاطفة متأصلة يوضح لنا سارتر اهميتها في « ابله العائلة » حيث نظرة الطفل الاولى الى أم انما هي تبادل ، بحيث انه مهما يدخل على هذه العلاقة مستقبلاً من غش وزيف ، ومهما تصبح مضيعة ، يبقى التبادل ممكناً بفضل هذا الاصل .

ان هذه الافتراضات التي اعترض مسيرتها المـوت ، تبـين علـى كل حال الى اي حد عنى سارتر طوال حياته بالبحث عن اخلاق شخصه وعن امكانها الانطولوجي فاذا كانت الحرية التي هي اساسها لا تردنا الى شمولية القانون ، واذا كانت السماء خاوية فذلك لا يعني ان كل شيء جائــز ومباح الامــر كلــه متعلق بالصلـة بالآخر الـذي بدونه لا وجود للذات الاخلاقيـة .

جانيت كولومبل
استاذة الفلسفة بجامعة ليون

سـارتـر
والجيل الجديد

سارتر . كلهم يعرفونه . سواء كانوا في الصفوف العليا التي تؤهل لدخول المدارس الكبرى ، او طلاب فلسفة او آداب في الجامعة كلهم اظهروا اهتماماً بأعماله ، ومزيداً من التقدير لسارتر الانسان كما لو ان هذا المحرك الكبير للافكار ، هذا الباحث عن الحقيقة الذي لم يعرف الرضا لم يجاوز العشرين عاماً .

يقول فيليب ، وهو في الثامنة عشرة من عمره ، في الصف النهائي من الثانوية يقول بأسف : « سارتر ؟ انهم قلما يحدثوننا عنه . وان فعلوا كان حديثهم بمنتهى السلبية : كبوق ثانوي ، او كمسودة لهيدغر . ولكن هيدغر هذا لا افهم من عمله شيئاً : اما سارتر فهو اكثر وضوحاً وأبين كلاماً . وتشارك فيليب أسفه آن ليز ، في الحادية والعشرين من عمرها ، ومن طالبات الفلسفة في الصوربون . ولكن بعبارات مختلفة : « ثمة اساتذة ماركسيون أو متمركسون . وهم ينبذون سارتر باسم المادية . ومن جانب آخر ثمة الهيجليون والروحانيون الذين يحذفون سارتر بقفا كفهم بوصفه عاجزاً عن الارتفاع الى المسائل الاساسية الكبرى : الله ، الروح ، والمطلق ... الخ وبين الفريقين اتفاق ضمني غرضه ان يلقوا في روعنا ان سارتر ليس في آخر الحساب سوى اديب تاه في مجال لقي فيه نجاحاً ، بنظر الجمهور ، بسبب تبسيطاته التقريبية . من جهتي قرات « مسائل في المنهج » وارى خلافاً لهم ان سارتر يبحث فيه عن طريق غير مطروق لتجاوز الماركسية التي ادرك تماماً قصورها وعدم كفايتها ، وهذا رغم انه لم يمض الى آخر الشوط » .

هذه المرافعة المدعمة بالحجج كانت الوحيدة من نوعها : لان فلسفة سارتر في قسمها الاكبر « الوجود والعدم » و « نقد الفكر الديالكتيكي» لا تبرح مجهولة الى حد ما « ان سارتر لم تقرر دراسته في البرنامج. والدينا ما يكفينا من النصوص الالزامية » ان سارتر الفيلسوف عرف عن طريق شراحه اكثر مما عرف عن طريق اعماله .

الله ليس روائياً ...

اما مؤلفاته النقدية في الأدب . فهي على عكس اعماله الفلسفية : كثيرة القراء . وهؤلاء يحبونها . ويكثرون من الاستشهاد بها في موضوعاتهم . ويقول فنسان ، وهو الصف التاهيبي لدخول دار المعلمين العليا : فيما ارى أن كتاب سارتر عن بودلير هو مثال يحتذى في فهم عمل وحياة . انا نجد فيه كل زوايا المقاربة التي نجدها في النقد الحديث ، ومن غير ما تحيز مذهبي . فثمة الشرح الحياتي ، والتحليل النفسي ، والبنى ، ونقد النصوص ، وكل ذلك بخيال وعاطفة يحفزان دوما على الرجوع الى النص . انه يقرأ كما تقرأ رواية ،ومعذلك فهو يضع يدنا على حقيقة شخص واقعي ومعقد ، شاعر ، بودلير ».و (فيرونيك) تحب ايضا كتاب بودلير . وتحب ما كتبه سارتر عن جان جينيه ، بل وايضا كتابه الكبير عن فلوبير « ابله العائلة » الذي لم تقرأ منه الا المجلد الأول . ولكنها تضع في المقام الأول مقالاته التي جمعت تحت عنوان مواقف لقد اشتريت منها المجلدان العشرة ، منذ أن قرات المقال الاول الهام عن مورياك « الله ليس روائيا ومسيو فرنسوا موريك ليس روائيا ايضاً . » حتى آخر المحادثات التي اجراها سارتر بعد ان كف بصره انك تلقي فيها دوما الذكاء وكرم النفس وتحس انك قبل انسان اكثر ما هو مجرد كاتب همه ان يصوغ عبارات جملية ، انسان مهتم بمعرفة كل شيء . يكتب باندفاع ، ويجيد الكتابة عن الرسم ، بقدر ما يجيدها عن الشيوعيين ، والامر كذلك عن فياتنام وديكارت . ثم هنالك مقدمة كتاب نيزان « عدن ــ العربية » التي حفظت منها مقاطع . واعتقد انه لم يكتب احد عن الصداقة بمثل هذا الجمال منذ مونتين . »

هذا الحماس يخفف منه طلاب آخرون « ان مشاحنــات سارتــر وصداقاته مع الشيوعيين اشياء تعز على فهمي » هذا ما تقوله فاليري احدى طالبات الجامعة . يوما هو معهم ، وفي الغداة ضدهم . لا شـك في أنه ينبغي ان نكون افضل معرفة بالظرف التاريخي في تلك الحقبة » لقد لفظت الكلمة الكبرى : الحقبة . فعندما ماتسارتر كان هؤلاء الفتيان في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرهم . معاركه ليست معاركهم. وصداقاته وعدواته تعود لتاريخ اصبح قديما . لعل بعضهم قد قرا « حفلة الوداع » لسيمون دو بوفوار ، أو «مع افضل ذكرياتي» لفرنسـواز ساغان . فحفظوا منهما صورة انسان شيخ ؛ حار العواطف ؛ ومؤثرة ولكنه في الوقت نفسه قد طعن في السن . لكـن الغريب انه تختلط بهذه الصورة صورة (بولو Poulou) صورة سارتر الصبي كما تتراءى في كتابه « الكلمات » كلهم او جلهم قد قرؤوا هذا المقطع من السيرة الذاتية ، وكلهم او جلهم يؤكدون انه واحد من الكتب التي يؤثرونها « انّ الناس ، الذين يقصون قصة حياتهم ، يفعلون ذلك ، بصورة عامة لكي يظهروا انفسهم ، ويكشفوا عنها في مختلف أحوالها . ذاك امر لايعني احدا سواهم ؛ وما هو بالذي يثير الاهتمام . اما سارتر في كتابه فانه يحاول أن يفهم كيف اصبح ما هو عليه ، كما لو كانت المغامرة تتعلق بشخص آخر . وهي طريقة في التحليل يمكن ان تصلح لكل منا ، حتى ولُو لم يكن لنا ذكاء سارتر ولا موهبته » .

بقيت الروايات ؟ نظرات غامضة ، وهز اكتاف . « طرق الحرية مطول ويبعث على الضجر » الغثيان ــ متصلب . كتاب فلسفة فيه بعض اشخاص » لكن الاقاصيص التي تضمنها كتاب « الحائط » في منجاة من موقف اللامبالاة . ثم « ان في أعمال سارتر ، كما تعلم ، كومة اشياء تم تجاوزها ، كما انها لا تعنينا . لكنه اجمالا اكثر اهمية من كتاب هذه الايام » .

« بيير لوباب »

مهمّة سارتر المستحيلة

فرانسوا فوريه

في الفترة الجميلة من حياته ، كان سارتر يكتب طوال النهار ، في كل الايام . كانت ثمة مشروعاته الكبرى : فلوبير ، نقد العقل الديالكتيكي ، وفكرة عن الأخلاق . ولكنه اذ كان لوحده الحقبة بكاملها « متورطاً » في كل شؤون الساعة ، فانه كان بلا انقطاع يكف عن التاليف لكي ينشط ويفعل ، اي لكي يكتب ايضاً ، ولكن في موضوعات اخرى . ولعل هذه الكتابات الجانبية هي صوته الحقيقي وعبقريته الحقيقة . وهي التي اعطته تلك القدرة الكبرى على تجسيد عصره . ولكن ماذا عسانا نقول في هذا المخطوط الذي كتبه في عام ١٩٥٨ ، ولم ينجزه ، وقد طبع على حين غرة ؟ انه عمل اساسي جداً ، بحيث لا يجوز تركه للمتبحرين في العلم دون سواهم ما دام الامر يتعلق بجزء كبير من مؤلف كان يعتزم سارتر ان يكون الجزء الثاني من « نقد العقل الديالكتيكي » وهو نص تركه سارتر كما هو ، لم يبدىء فيه ولم يعد ، فهو بذلك عرضة للانكار ، ولكن لم ؟

ان ما يسهل قراءة هذا العمل الذي لم يتم هو بالطبع كتب سارتر الأخرى ، التي عنى بنشرها بنفسه ، وأولها الجزء الأول من هذا « النقد » الذي ظهر في العام ١٩٦٠ ، ولكن ايضاً « الوجود والعدم » لان سارتر ظل طوال حياته وفياً عنيداً للحدس الاساسي الذي حدسه ابان مراهقته ، لتلك الفكرة التي يحدثنا ريمون آرون انهما طالما ناقشاها معاً ، حين كانا طالبين ومؤداها أن الوعي المنفصل جذرياً عن الوجود

هو مبدأ فهم العالم . وهذا الوعي هو حرية صافية خالصة محددة بغرضها منوياتها . وهي ليست . كما عند الاقدمين ، حرية داخلية وعلاقة بالوجود . ولكنها خيار وجودي . انخراط في العالم ، واذن فعل ، معاناة . تلك هي نقطة الانطلاق في كتابه « نقد العقل الديالكتيكي » مثلما هي في « الوجود والعدم » .

ولكن كيف التوفيق بين انطولوجيا الوعي وبين « مفهومية » التاريخ ان مقدمات جذرياً ذاتوية ، كمقدمات الوجودية السارترية تقود الفيلسوف بصورة منطقية الى التقدير بأن ثمة « أفهاماً » للتاريخ وحوادث الماضي ، بقدر وجهات النظر الفردية في هذا الماضي . فالذي شارك في المقاومة يفسر الحرب العالمية الثانية على خلاف تفسير الذي « تعاون » . واذ ذاك فالمشكلة الرئيسية امام سارتر هي الخلاص من هذا المنطق ، وكامل الجهد المبذول في « النقد » بجزأيه ينصب على محاولة التوفيق بين حرية الفرد المطلقة ، وبين حقيقة شمولية التاريخ . (٠)

لم هذا الجهد الثابت ، والذي كاد ان يكون مؤثراً ، لفرط كونه سلفاً محكوماً عليه بالاخفاق ؟ تلك هي كامل قصة العلاقات بين سارتر والماركسية . في فترة « الوجود والعدم » لا وجود لهذه الماركسية . او لم تكن وجدت بالنسبة له . وفيما بعد الحرب دخلت حياته الفكرية لا كفلسفة بل كسياسة . وبهذا المعنى كان سارتر لواء طبقة المثقفين الفرنسيين في زمنه ، مهتزاً بريح العصر موظفاً خصوبة فكره التي لا مثيل لها ، لفهم الشيوعية السوفياتية . وفي عالم ثقافي خلو من اي ــ تقليد ــ ماركسي حقيقي ، برزت مسألة ماركس من خلال مسألة الاتحاد السوفياتي . لا جدوى .. فلقد كانت اسوأ فترات الستالينية يومئذ في موقع تجسيد الديالكتيكية الماركسية .

ومن هنا دخلت تلك المصعبة المزدوجة التي راح يتخبط فيها سارتر اذ وجب عليه ان يدخل في صلب الوجودية الأهلية نظرية في التاريخ

توضح تحرك الشعوب ذاك التحرك الكبير الذي اعقب الحرب العالمية الثانية . وهذه النظرية التي كان مشهد العالم آنئذ يوحي انهـا الماركسية . لها معتمدون رسميون . موضع شبهة ؛ ولكن لا سبيل لاتقائهم : الاتحاد السوفياتي والشيوعيون . وكانت مهمته ان يفكـر فيهم خيراً مما يفكرون في انفسهم . فمن جهة كان عليه ان يقـدم للماركسية ماركس مقدمات فلسفية غير التي ساقها مؤسسها . ومن جهة اخرى كان عليه أن يقدم للماركسية ستالين حجج الاتباع . وانها

لقفزة خطرة مزدوجة لم يتمها والدليل انه تخلى عن مطمح اتمامها انـه ترك في ادراج مكتبه هذا المخطوط الذي نشر اليوم .

إن « الاقتصاد » (*) الفلسفي فيه مماثل لما رأينا في الجزء الاول ، الذي يجب أن يكون حاضرا في اذهاننا حين نشرع في قراءته . وعند سارتر ، أن اصل التاريخ هو ممارسة الفرد وهي ممارسة يعمل بواسطتها جريته ، في وضع عالم محدد بالندرة ، اي بالحاجة . وهذه الممارسة او اي مجموع من هذه الممارسات تتعرض لخطر السقوط في « الجمعية السلبية »(*) حيث تصاد الحرية بدبـق الامتثالية ، والداخل بالخارج، ومبادرة الطائفة من الناس في نسقية الجمهور الكبير . ولكن هذا السقوط، الذي تعيشه كل المجتمعات ، يهيب ايضا الى الثورة ، لان الوعي انما هو نفي للمادية العاطلة . وهكذا فان سارتر في بحثه عن « اخلاق » وجد سياسة : هي العضوية الثورية عند الفرد وعند الجماعة .

ومن ثمة استطاع القيام بعملية تطويق مزدوجة للماركسية . انه يسترجع منها أولا كل نقدها للراسمالية ، فيدمجه مرة واحدة في تحليل العطلي العطالي المعاصر ، وهو لا يناقش « راس المال » اطلاقا ، بـل يلحقه بمذهبه او منظومته . ثم انه يجد السفح الاخر للماركسية : الإرادة الثورية عبر منافذ الحرية في نسيج السلبية الاجتماعية : تلـك

الاوقات التي تجعل فيها الجماعة من حريتها الثورية عوضا عن مجموعة من الاشخاص يتحكم فيهم من الخارج الضغط الاجتماعي .

بقي ان نعرف ما اذا كانت هذه الاوقات ــ الثورات ــ قادرة على اقامة مجتمع متحرر ، ام انه محكوم عليها بأن تسقط في العملي العطالي. وهي مسالة لن يفتا سارتر يدور حولها ، لانها مسالة الثورة الروسية ، ووضع المجتمع الستاليني .

إن مفهوم ثورة تدوم ، اي ثورة تبقى وفية لروحها ، مع تجسدها في المؤسسات ، هل يمكن أن يكون له معنى ؟ إن كل جهد سارتر في هذا المخطوط الذي لم يشا نشره هو ان يجيب بنعم ، مخولا الحزب الثوري الذي قاد تحرك « الجماعة المنصهرة » صلاحية الاستمرار في تجسيد الثورة والحقيقة ، رغم الممارسة العطالية . وذلك هو مايسبغ على هذا الكتاب الذي الف عام ١٩٥٨ ، ونشر اليوم صفة المفارقة بحيث يبدو غريبا لفرط ما هو مرهون « بتاريخ معين » . لان كل جهد سارتر منصب فيه على تبرير بقاء الرقابة الثورية في الاتحاد السوفياتي على الرغم من وجود الستالينية . وعلى كونه مجتمعا تترصده الممارسة العطالة في كل حين ، فان الاتحاد السوفياتي كان يخلص منها لانه مجتمع ماركسي . فالفته مع الفكر الديالكتيكي تسمح له بأن « يفكر » الغرب ، في حين أن العكس غير صحيح .

لقد كان بود سارتر ان يضيف الى هذا التشخيص المطول ، والايجابي آخر الامر ، للثورة السوفياتية في القرن العشرين ، التي يسميها ــ مهما في ذلك من غرابة ــ قيادية ــ تحليلا للديموقراطيات الغربية البورجوازية التي يسميها « مجتمعات متفككة » . الا انه لم يكتب هذا التحليل الذي لم تبق منه سوى مذكرات منقوصة مضمرة لا سبيل الى تأويلها . ولكن هذه المذكرات تسمح لنا بأن نقيس طموحه الى

الانخراط في دراسات تاريخية ، ولكن لا تعنينا على أن نفهم لماذا عزف عن ذلك وهل كان ذلك العزوف سببا في اهمال الكتاب .

إذ كيف نفسر هذا الاهمال ؟ اترى مرده الى ذلك الطموح الفلسفي المحض الذي شاء تحقيقه في « نقده » والذي ابان ليفي ستراوس وريمون آرون تعثره ومطباته بعد ان نشر الجزء الاول منه . ولكن سارتر - ولو لم يرد على منتقديه قط - فانه لم يتنكر مرة لمحاولته المزاوجة بين الوجودية والماركسية .

وأجدني اميل الى الاعتقاد بانه ان كان شيء من كتابه هذا الذي احتفظ به ، قد بدا لعينيه عتيقا رثا ، فهو الفكرة التي كونها فيه عن الاتحاد السوفياتي . لانه اذا كانت فلسفته ، افتراضا ، تتفق مع مفهوم ماركسي لينيني للتاريخ المعاصر ، فانها ضمنا ظلت تفضل اليسارية الثورية . وهو تفضيل متضمن في قوله بضرورة الثورة في الممارسات الفردية ، ضد المجتمع الذي ينكرها . ومن ثمة يمكن القول إن سارتر كان اكثر راحة في جو الثقافة التحررية ـ ثقافة ١٩٦٨ ـ منه في محاولة اعطاء الديكتاتورية السوفياتية صفة العقلانية . وكذلك وجب عليه . لانهاء كتابه الذي الفه ١٩٥٨ ، ليس مجرد تاليف جزء ثان ، بل اعادة كتابة الجزء الاول . الى هذا الحد كان امرا صائبا ان يدعه في سباته . كشاهد على فترة سابقة من حياته ، تلك الفترة التي ترد الينا اليوم .

(*) مفهومية Intelligibilite

(*) يرى القارىء في غير موضع من هذا الملف ان سارتر لم يكن يؤمن بشمولية التاريخ على نحو غيره من المفكرين .

(*) الاقتصاد الفلسفي : عبارة يراد بها الاقتصار على الاساسيات .

(*) الجمعية السلبية . Socialisation Passive

الخلاص بالعمل

برنار بوار ودلبش

مات سارتر منذ خمس سنوات ، تبدأ بعدها عادة فترة « المطهر ». لكن لا بالنسبة اليه . فهوذا من جديد في الواجهة التي لم يغادرها قط . أهو دليل على انه يهمين على العصر ؟ لندع الحكم للاجيال التالية . فعجلات المستقبل تتقن عملها . وهي آخر الامر تقوم به ، ولا خيار لنا .

الشباب ، في الحسبان ، هم قضاة الدرجة الاولى . وفي ذلك شرف لهم . يهمس في آذانهم خصوم سارتر : « سارتر ، إنا لا نعرفه » . ولكن الامر اكثر تعقيدا . وقد سأل الزميل بيير له باب طائفة منهم . انهم يحبون من اعمال الفقيد دراساته النقدية الادبية . اترى الفيلسوف والروائي خاسرين في السوق ؟ إن عدد ما يطبع من (كتبهما) لا يقول ذلك . ولئن كان مسرحه لا يمثل ، فان اعماله المسرحية في طليعة الكتب رواجا . وتاتي في اولها « الجلسة السرية » و « الايدي الملوثة » ثم « الغثيان » و « الحائط » . تلى ذلك « الكلمات » رغم شهرتها المستحقة بأنها عمل رائع .

وحياة سارتر . هل كثر متتبعوها لافتقادها التجانس . أليس كذلك؟ هنا أيضا يلزمنا التفريق . فاول سيرة كاملة له وضعتها آني كوهن سولال ، مستفيدة من مضي خمس سنوات على وفاته . وكتابات سارتر الذاتية ، وكذا كتابات ذويه لم تستنفد فضولنا الذي ما زال يسعى ، ويكسب سكينة ودعة .

إن الرجل الذي ساد الافهام ، منذ نهاية الحرب وحتى الثورات الطلابية ، لم يكن الشيطان ولا الرحمن كما صورته ثلاثة اجيال افتقرت الى معلم في الفكر وفي العمل . كان قبل كل شيء فتى موهوبا ، معدا للعبقرية ، عقلامصمما على ان يسود العالم بالكتب ، مصهر مفاهيم ، وصور وكلمات .

واما سلطته التي لا سابق لها ولا مثيل ، فقد ارادها ، ولم يغتصبها. وقد عاقب نفسه عليها . اذ كان دوار الخلق لديه لا يواتيه الا مصحوبا بنقيضه : بغض الذات الذي نلمسه في تندره على البورجوازية ، وفي التزاماته خلافا للطبيعة ، وخلافا للوقت المناسب ، وفي الكتب التي لم ينجزها ، وشجاراته الظالمة ، وفي حسراته المتأخرة ، وقبوله آخر الامر ما كان ينكره .

إن المفكر المعيب والاقرع يمحي . اما الفنان الذي لم يستطيع ان ان يخنقه في نفسه فانه يكبر على امتداد البصر . ليس لنا ان ننسى الاخطاء المكابرة . ولكن « مضى » الاعمال الخيالية ، كيف لنا الا نتأمله مذهولين ؟

إن سارتر قد اراد ان يكون انسانا عظيما فكانه . وكان حلمه الاسمى: الخلاص بالعمل . وقد كان يقترب منه في حياته . وميتا ما زال يقترب .

ب. بوارو دليش
الناقد الادبي الرئيسي في جريدة
(له موند)

★ ★ ★

ايضـاحـات

(*) ظهر لسارتر بعد مماته خمسة كتب لم تكن طبعت حال حياته . منها : مذكرات حرب غريبة ، ودفاتر لاقامة اخلاق ، ورسـائل الـى القندس ، وسيناريو عن فرويد . وقد صدرت هذه الكتب عام ١٩٨٣ . اما خامسها وهو نقد العقل الديالكتيكي الجزء الثاني فقد ظهر في هذا العام . والمقالات التي اعتمدناها في هذا الملف تعود للتاريخين المذكورين .

(*) كان سارتر في هذا العام موضوع ثلاثة كتب جديدة . والذي بلفت النظر انها من تاليف نساء . عنوان اولها : لا شيطان ولا رحمن . وهو من تاليف آني كوهن سولال . وقد جاء في ٧٣ ص . وعده النقاد اكمل سيرة وضعت حتى الان . وقد تقاضت المؤلفة مليون فرنك ثمنا لجهدهـا .

الثاني من تاليف جانيت كولومبل استاذة الفلسفة بجامعة ادوار هريو في ليون وعنوانه : سارتر ، رجل في موقف . (يرى القارىء مقالا للمؤلفـة) .

اما آنا بوشيتي فكان عنوان كتابها : سارتر والازمنة الحديثة . ٣٢٨ ص . وقد اثنى عليه النقاد ثناء جميلا .

(*) دلت الاستقصاءات أن سارتر ، وبروست ، وكامو قد استأثروا تقريبا باهتمام الدراسين . وقد ظهرت مئتا دراسة عن سارتر بالفرنسية، ومثل هذا العدد بالانكليزية والالمانية ، وكذا الامر بلغات اخرى . وسواء كان العام خصبا ام جديبا فانه يظهر خلاله عشر مؤلفات ومئتان الى ثلاثمئة مقالة عن سارتر في مختلف فروع المعرفة وقد ازداد هذا العدد بعد موت سارتر .

(*) بلغ عدد ما طبع من كتب سارتر ما يلي :

١ ـ الجلسة السرية (١٩٤٧) ٢ر١٥٠ر٠٠٠ نسخة .

٢ ـ الايدي الملوثة (١٩٤٨) ٢ر١٠٠ر٠٠٠ نسخة .

٣ ـ الغثيان (١٩٣٨) ١ر٩٧٠ر٠٠٠ نسخة .

٤ ـ الحائط (١٩٣٩) ١ر٨٣٢ر٠٠٠ نسخة .

٥ ـ الوجود والعدم (١٩٤٣) ١٦٥ر٠٠٠ نسخة .

وطبع من مؤلفاته الروائية في دار (بلاياد) التي لا تنشر إلا أعمال الخالدين ٣٥٠٠٠ نسخة .

★ ★ ★

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

حلم الأخوة الثلاثة

وقصص آسيوية اخرى

تاليف
كلود دوبو ـ بوكيه

ترجمة
موفق شقير

★ ★ ★

حديث جدتي

قصص وحكايات للاطفال

اقتباس : سعد صائب

★ ★ ★

سيدة الثمار

قصص للاطفال

مقبولة الشلق

شعر

نشيد لسيّدة السواد

محمد عمران

قصة

الحلم

محمّد حيدر

شعر

نشيد لسيّدة السواد

محمد عمران

هل قلتُ : أنتِ حبيبتي؟ ! / اني اعتصمتُ اذن /
يدٌ كيد الآله تضم أجزائي ، وتحملها اليكِ يدٌ
تدثرني / تقدمَ كوكبٌ وأضاءني / مطرٌ وناولني
الطريقَ / خرجتُ من وجهي
الى امرأة /
أهذا الماءُ عرشكِ ؟ /
هذه الشرفاتُ
قصرُ يديكِ ؟ /

سبحان الذي أسرى
بأحزاني
من البيت العتيقِ ،
الى
مدائن وجهكِ
الاقصى

هل قلتُ : أنتِ حبيبتي ؟! / صيفٌ
من النارنج يرفعني /
رأيتُ اللهَ في عينين من مرٍ ،
وكلمني البهارْ

. . . يتقلعني الماءُ /
غيمٌ على جسدي ،
وسلالمُ برقٍ /
هنا قبةُ العاشقين /
يكلمني خازن الوقت :
« اني فتحتُ لك
الطيبَ » /
أدخلُ في الابانوسِ . . . /

سلاماً لمجد السوادِ
الذي
يتجلى

. . . وكانت سماءُ أريج / صعدتُ الى
حضرةِ العنبرِ /
احتضنتني كواكبُ
من صندل وبهار ،
وكلمني خازنُ الطيبِ :
« اني فتحتُ لك
الوقتَ » /
صليتُ
[« ايتها القبةُ من شهدٍ وعسجد
عاليةٌ غرفُ الطيبِ
والشهوةُ
المعلقةُ على
الصلاةِ ،
عاليةٌ
الصلاةُ
المعلقةَ على
الشهوة »]

. . . ودخلتُ في الكستناءِ
قلبي ،
بأشجاره السبع ،ـــ
يتوقف على بوابات النار /
كيف له ،
هو الفاني ،
أن يدخلَ ألوهة هذا السواد /

لهُ
أن يحتفلَ
على
طريقة
الطينِ :
يرفعُ كأسهُ ،
ويشربُ
نخب الفانينَ
من كواكب
التراب

ولهُ أن يغني
/ زيتونةً غربيهْ

تضيءُ زيتَ الشرقْ
آنستُ في الجانب من دمشقْ
نيرانَها الخفيهْ
مزملا بالعشقْ
أصعدُ في أغصانها القصيهْ
أعبرُ شوق الافقْ
مرتدياً أسرارها العلويهْ /

ولهُ أن يصلي لحضرتها فيه :
/ طوبى لقلبي الذي وسعَ البحرَ
والريحَ قلبي
الذي
مثلُ النور فيه ،
كما الزيت منِ شجر باركتهُ
الفصولْ /

ولهُ أن يكلم أيامهُ :
انهمري في السوادِ العظيم ،
هنا القبةُ الثامنةْ
حيث تغفو السماءُ
على حلمةٍ ،

والترابُ
على روحه الكامنه ْ

ولهُ أن ينادي على الماءِ :
/ مدَّ سريركَ ،
انيأ زوجكِ اليابسه ْ /

ولهُ أن يدخل وردة الليلِ ،
ويكتبَ وجههُ
على
امرأة
من
كستناء

ولهُ
أن يسمي السوادَ ،
ويعرضَ اسمهُ
على
الماءِ
والهواءِ
والضوءِ
والترابِ ،

ويأمرُها أن تسجدَ لهُ / . . .
الا البياضُ . . /
ـــ اهبطْ جسدَ الفضةِ

ولهُ أن يغني :
/ تأخرتَ ياقمر اللوزِ ،
في الكأس جرحٌ ،
وفي الجرح آنيةٌ ،
وعلى الآنيهْ
وردةٌ ،
وعلى الوردةِ الموتُ ،
ياقمر اللوزَ ،
هذي موائدكَ الباقية /

ولهُ
أن يغني :
/ نلتقي ،
نقطف الليل كأسينِ ،
نفترشُ القبلاتِ ،
ونغفو
أنتِ خبأت في الوسادة جرحا
وأنا ، تحتها ، أهدهد جرحا

ثم نغفو ،
يدٌ على شرفةِ القلبِ ،
وأخرى سريرُ شعرٍ ،
ويغفو
معنا الليلُ /
ثم نولدُ صبحا /

ولهُ
أن ينادي
/ أنتِ
يالؤلؤةَ الليلِ ،
ياقرنفلةً سوداء ،
ياقارورة الفلفلِ ،
يامسكَ الريحِ ،
ياخيزرانةَ العنبرِ ،
ياقامة النبيذِ ،
يامدار الزيتِ ،
أنتِ ،
يا امرأة العنب الأسودِ ،
السلامُ على غاباتك

لهُ أن يسكب السوادَ في جسدِه

ويشربَ
نخبَ
الغاباتِ
الطازجة

هو ذا يتقدم على ايقاعِ دمه /
حاملا أعضاء المتوسطِ ،
محرقاً، خلفه ، شيخوخةَ الرملِ ،
واصلاً الماءَ بالماء ، /
وجهه زيتونةٌ ،
وجسدهُ . . . /
جسدٌ مثقلٌ بالثمار القتيله
جسدٌ من مفاتيحَ ضائعةٍ ،
وبيوتٍ كليله
جسدٌ موغلٌ في طفولتهِ ،
يتقرى تضاريسها البخيله
لايذكرُ . . .
الملاجةُ جرحٌ أم عيدٌ ،
وطنٌ أم مقبرةٌ ، /

لايذكرُ . . /

دمشقُ ياسمينةٌ أم مشنقةٌ .

بوابةٌ ، أم قفلٌ . /

لايذكرُ . . . /

نساءً بعدد الوجعِ ،

مدنٌ بعدد الاغتصابِ ،

شوارعٌ

فنادقٌ ،

غرفٌ ،

بعدد التشردِ ،

أصدقاءً بعدد الخيبةِ ،

لايذكرُ . . . /

خمسون غصناً ،

والشجرة خضراءُ ،

خمسون فأساً ،

وما زالت الجذور في الأرض ،

خمسون موتاً ، . . . /

يسمي الامكنةَ :

الملاجة → حجرٌ تحلبُ الخبزَ ،

في اناء الطاعةِ ،

وتشرب الجوعَ

طرطوس → سريرُ شهوة ،

قائمتان على البحرِ ،

وقائمتان على الزيتون

والوسادةُ برتقالٌ

طرطوس أيضاً ← قميصٌ

مزرٌ بالغفلةِ ،

رملٌ

يمحو الخطوات

دمشقُ ← غمامةٌ

لاتمطرُ سوى الاغتراب

أمٌ ، بألف ثدي

عشيقةٌ — في الاصبع

ألف خاتم ،

لألف عابر شهوة . .

يسمي الأزمنة :

الملاجة ← جهرٌ يعلن فيه العصيانَ

يُلعنُ ،

ويساقُ الى امرأةٍ

تعلمه التوبةَ

الى أبناء ،

يعلمونه الخضوع

ثم الى بيت

يعلمه الانتماء

ينطوي في الملكِ ،

ويدخل الطاعة

طرطوس ← معطفٌ واقٍ ،

قبعةٌ

على القلبِ

تحميه من الريح

وستائرُ

مرخية على البحر

يحدث أن يتعرى

فتتناوله مدفأةٌ مستسلمة
وتضمه الى جسدها الميت

دمشقُ ← وجهٌ على الورقِ مهاجرٌ في الاشياءِ
يتمردُ ، فيهبط الشوارع
ويغيبُ في اشتهاءات المرايا
مصلوباً على حلم ،
يرى نفسه في حصرة جدار
يسمي النساء ← خشبةً
الأصدقاء ← مسامير
والوطن ← صليباً
ويعدُ موتهُ
بعد قيامتهُ
ويسمي نفسهُ = محمد عمران
الملاجة = ١٩٣٤
[طفلٌ ،
هبط العالم في حاضنة الحرب]
الأب بدر =]
[عجوز ينحني ليلتقط
حبة قمح مقدسة]

الأم سعدى =

[قبرها ضاع بين قبور النساء]

الجد = غانم

[لم يكن ساحراً أو نبيا
كان وجهاً من الأرض / مخضلةٌ بالتهجد
/ لحيته والسماءُ على شفتيه رغيفٌ
من الشكر
وجهُ تراب ، تناولني
ذات فجر ، وقبلني ثم غابْ
لم يكن ساحراً ، أو نبيا
كان وجهاً من الطين مكتسياً بالرضى /
« الجسمُ جسرٌ الى الله تعبره الروحُ » /
عيناه في ضفة الألقَ الأزلي / ويوم
مشى نعشه الارجوانيُ ، دقّت له في
السماء الخليلةُ = كان الملائكة البيضُ
يمشون فوق الهواء بألحانهم = لا تدقُ
الخليلةُ الا لموت ولي / وحين ثوى
في الثرى رفعته الملائكُ / أخبرني

السندبانُ : رأى كوكباً، أو شهاباً
يشق الضريحَ ، ويحمل جسماًمن الضوءِ /
أخبرني السندبانُ : سمعتُ الملاكَ
يكلمه وهما يصعدانِ السماءْ
لم يكن ساحراًاو نبيا
كان سراً = عصاهُ تضيء الطريقَ =
« أضيئي مباركتي » /
فتنير الطريقِ / ويمشي
لم يكن ساحراً اونبيا
غير أني رأيت في يده الاشجار تمشي
رأيته يتهادى في الينابيعِ / غير أني
سمعتُ الماء يدعوه « يا أبي» والهواء
وسمعتُ الاشياء تهتف باسمي
عنده ، وهو يحضن الاشياء
وذات نهار تناولني ،
ثم قبلني في فمي :
« يا حفيدي ! »
وأهداني عباءته التي من نورْ
وأهداني عصاهُ وقال : تلقيها

على الديجورْ
وناولني كلام السرِ ، ثم
طوته نارُ الطورْ]

. . . ينتهي الآن من جده ِ ،
ويعودُ يسمي علاماته َ الفارقهْ
[كان طفلا لهُ صحبةٌ ، لا
تزالُ ، مع الغيم َ والعشبِ / يجلسُ
في حضرة الحلمِ عريانَ الا من الشوقِ
لامرأة ، يتقرى تضاريسها ،
وينامُ على قمرٍ أخضر
تحت قوسِ سحاب هتونٍ /
وحين تجيءُ له الشمسُ يرفعها
بيديه ِ الى فمه ، ويقبلُ حلمتها
المالحهْ]

. . . وله أخواتٌ تزوجن َ ، أنجبن ذريةً صالحهْ
وله . . ليس يذكر /
. . . شعرٌ ،
بقايا رفاق ،
بقايا نساء َ

وله . . / ليس يذكرُ /

بعض بلاد .

وبعضُ طريق الى نفسه .

وله . . / ليس يذكرُ / بعضُ السماء

لا بقايا

سماء

لهُ

عصاهُ من خشب

عباءته من صوف

وكلمةُ السر ضاعت

في لحم امرأة

اسمها = دمشق

[أسري /

أذاك الطورُ ؟ أم جبلٌ من القصدير ؟ /

ليس النارَ ما انستُ ، /

لا أحدٌ يكلمني]

لا

بقايا

سماء

لهُ

[« ـــمن أنتَ ؟ »

« ـــتعرفني الدماءُ » ،

« ـــسفينةٌ بيضاءُ أم غواصةٌ ؟ »

« ـــبحرٌ » ،

« ـــيدٌ سوداءُ أم عنقٌ جميلٌ ؟ »

ـــ« مدينةٌ حمراءُ »

ـــ« قنبلةٌ بلا عينين ، أم مدنٌ ؟ »

ـــ « رمادُ »

ـــ« أين تحملك الرياحُ ؟ »

ـــ« الى الحداد »

ـــ« الى الجنوب أم الشمال ؟ »

ـــ« أنا الجهاتُ » ،

ـــ« وأين تتجه الجهاتُ ؟ »

ـــ« الى الدماءْ »

ـــ« الى الأمام أم الوراءْ ؟ »

ـــ« الى الدماءْ »]

لهُ

بقايا

أرض

يسمي نفسه فيها شاعراً

في النصف الثاني

من وردة الدمِ ،

موشومَ الحنجرة بالحربِ ،

على صوته الحرائقُ ،

وفي شفتيه الرماد

يقدم رؤياهُ فيها =

أنا الاعمى ، الذي عيناه من حجر ،

أرى من شرفة الحجرِ

خطى الفولاذ تصعدُ ، والسلالم تنحني

وتئن ، والمدنَ ـــ الدخان تغوصُ

تحت رمادها . . .

. . . وأرى الذي أنشأت من خلقي الجميلْ

يهوي ، أرى الارض التي أبدعتُ

تسقط في العويلْ

وأرى ، أنا الاعمى الذي عيناه من حجر ،

أرى ، في غيهب الحجر الطويلْ

برقاً على الانقاض . .

برقٌ ؟ !

لا !

هو الخشب الذليلْ

بيدي ،

هو السر القتيلْ

★ ★ ★

قصة

الحلم

محمد حيدر

— ١ —

الحادث الأول :

وقع هذا الحادث عندما كنت عائداً من دكان والدي في قريتنا القديمة سلمية .

اقول : « كنت عائداً من دكان والدي ... » .
ولكن هذا القول ليس اكيداً مئة بالمئة — فهو لا يستند الى دليل قاطع ، وانما يعتمد على الظن والتخمين :

فانا لا اعرف ما اذا كنت عائداً ، فعلا ، من الدكان. لأنه من المحتمل انني كنت عائداً من الحارة الشرقية ، كما تبادر الى ذهني لأول وهلة . لذلك يجب التريث في هذه النقطة ، ووضع العبارة السابقة المتعلقة بالدكان بين قوسين — أو تعليق الحكم ، كما تقول الفلسفة التعيسة الحظ .

اما **زمان الحادث** ، فكان بين العصر والمغرب على وجه اليقين ــ

وعلى سيرة الحارة الشرقية ... فان دكان والدي يقع فيها ، أو في بدايتها على الاصح ، حيث يعتبر الحدّ الفاصل بينها وبين السوق الرئيسي في سلمية ــ وقد جرى لي في هذه الحارة حادث بسيط ، ومع انه لا علاقة له بالحادث الأول فلا بدّ من ذكره ؛ لأنه جرى قبله بقليل :

كان من عادتي بعد الغداء (ولا يوجد زبائن في هذا الوقت) ان اغادر الدكان ... فامشي قليلاً بإتجاه الحارة الشرقية ، حيث توجد مصطبة صغيرة امام بيت العيتاني . وكان في البيت شجرة من الكرز (على الأرجح، كانت من الرمان) ــ كانت الشجرة تظلل المصطبة ... وعلى هذه المصطبة استلقي وانام . ولكنني لم استطع النوم في يوم الحادث بالذات : كنت قد غفوت ، او في طريقي الى الإغفاء ، عندما أيقظني صياح فتاتين مراهقتين ...

كانتا تتشاجران ــ لم يكن الشجار مؤذياً ، كانتا تتماسكان حيناً وتتباعدان حيناً آخر ... وهما تتبادلان الشتائم والصياح ــ وقد جذبني هذا المنظر ... فتركتهما تتشاجران ولم ارجع للنوم .

من المعروف ، نفسياً ، ان المرء يستمتع بالقتال وينجذب اليه ما دام بمعزل عنه ــ ولكنّ يجب ان اعترف بأن العامل النفسي المذكور ، لم يكن له اي تأثير في الموضوع . فالدافع الحقيقي للتفرج ، ان إحدى الفتاتين ، كانت غضّة الى درجة تستثير البكاء ــ كنت مأخوذاً بمفاتنها الجسدية ، وكانت تبرز بأشكال رائعة خلال العراك ــ وعندما رأيت القتال يزداد في العنف ... قمت للفصل بين الفتاتين .

امسكت إحداهما ، وحاولت إبعاد الأخرى .

إن كلمة « **امسكت** » ليست دقيقة في هذا المجال : لان الفصل بينهما يقتضي « **احتضان** » إحداهما بيد ، وإبعاد الأخرى ــ واعترف بأنني **كنت احتضن الفتاة الجذابة .**

كنت **اشعر نحوها** برغبات غير مالوفة ، وكانت رائعة جداً هذه الرغبات ... حتى انني اطلت عملية الفصل ، فوق ما يستلزم الامر بكثير — وعلى الرغم من انني لست بريئاً بصورة تامة إلا انـه لايمكـن القول بتاتاً بأنها كانت رغبات فاسدة : فانا لم اعرف الرغبات الفاسدة في اي يوم على الاطلاق لذلك ارى ، تحقيقاً لمبدأ العدالة ، ان اشطب عبارة « **اشعر نحوها** » ... واستخدم العبارة التالية : « **وقد اثارت** الفتاة في نفسي رغبات غير مالوفة » .

وكان صياح الفتاتين قد ارتفع حتى ايقظ مسامع الجيران ، فأخذوا **يطلون** من فوق الحيطان ومن خلال الابواب — فإذا خشيت تأويل الامر تأويلا سيئاً ، صحت على الفتاتين بصوت غاضب ، ودفعتهما في اتجاهين مختلفين ... ورجعت بعد ذلك (كما اذكر) الى الدكان .

هذه الحادثة ، هي التي جعلتني اظن انني كنت عائداً من الدكان — وهناك سبب آخر ، هو : عندما وقع الحادث الاول (ولا يخالجني الشك في هذا الامر) كان الدكان ورائي ... وكنت في طريقي الى البيت. وهذا يعني ، حسب العادة اليومية ، انني كنت في الدكان .

كنت قد قطعت ما يقرب من مئة متر ، عندما رأيت صفاً من رجال الدَرَك يعترضون طريقي وقد حسبتهم أول الامر ، إحدى دوريـات مكافحة تهريب المخدرات .

يجب ان اقطع الحديث لأسجل هذه الواقعة الصغيرة ، وقد تذكرتها الآن : بعد ان انتهيت من الفصل بين الفتاتين ، رجعت الى المصطبـة وحاولت النوم . هذه اللحظة ، وقفت أمامي سيارة مليئـة بجنـود الهجّانة المسلحين بالرشيشات — كانوا يلاحقـون افراد العصـابة التي **قامت بخطف عدة فتيات في سلمية ، وفي الخليج العربي ... وخاصة في الكويت** — ودون اي سبب واضح ، وضع احد الجنود فوهة الرشيش في صدري وهو يصرخ : « الا تريد ان تقول لنا من هو رئيس العصابة؟ سوف ترى » .

وهذا ما دعاني للظن بأن رجال الدرك يعترضون طريقي لسؤالي ايضاً عن افراد هذه العصابة ، أو عصابة تهريب المخدرات . ولكنني فوجئت بأحدهم يتقدم نحوي ..

الحقيقة ، انه لم يتقدم نحوي — كان يسألني وهو ما يزال في مكانه.

لم يسألني مباشرة ، وبصورة صريحة . كان يتكلم بصوت مسموع وكانه يخاطب نفسه ، او كانه يقرر امراً مفروغاً منه .

كان يقول : « فلسفة ... مدرس فلسفة »

وعندما سمعته ، قلت لنفسي : حتماً يقصدك يا محمد . ذلك انه لم يكن امامه سواي — هناك بعض الاشخاص الذين يسيرون على جانبي الشارع ، ومع انهم من اهالي سلمية ، إلا انني لم اعرف واحداً منهم . وهذا ما جعلني اشعر ، قليلاً ، بالدهشة !

قلت : نعم ... انا مدرس فلسفة .

ارخى لجام حصانه . او بالاحرى (كما اتذكر) ربطه ببرميل الى يمينه ... وكان واحداً من عدة براميل موضوعة على نسق واحد لقطع الطريق وتفتيش المارة .

كان في يده بندقية —

سألني : محمد حيدر ؟

أجبته دون تردد : نعم محمد حيدر .

(الى هذه اللحظة ، بدا لي ان الامر لا يمت إلي بصلة — **كانني في**

حلم)

فاجاني بسؤال صريح : تخرجت من الجامعة عام ١٩٦٢ ؟

قلت : في عام ١٩٥٤ تخرجت .

قال : **الكابتن** يقرر ذلك .

وامسك بذراعي ، وهو يبتسم ، وكأنه يقول : اخيراً وقعت .

ثم اخرج قيداً من جعبة السرج ، ووضعه في معصمي بعد إن قرنني برجل آخر ... وهي العادة المتبعة لئلا يهرب السجين .

كان قريني مدنياً . طويل القامة . ذا لحية . وكان يشبه الممثل ريشار بازهارت .

(اظن انني لا ازال اذكر اسمه . وقد ظهر على هذه الصورة في احد الافلام ، وكان يمثل دور مجرم هارب ... في نفق تحت الأرض)

اقول كان يشبه ريشار بازهارت . ولكنه كان يبدو لي احياناً كالممثل غريفوري بيك في فيلم « المأخوذ » ... لدرجة انني ظللت فترة طويلة وانا اتساءل : هل هو ريشار بازهارت ، أم غريغوري بيك ؟ قطعت اخيراً انه الاثنان معاً ... **شخصيات بآن واحد .**

تجمّع رجال آخرون على صوتي وانا اكرر بدهشة تشبه الصراخ : قلت لك تخرجت عام ١٩٥٤ والذي دعاني للتكرار ، انني لمحت في صوته (بشعور غامض) ان **تاريخ التخرج هو عقدة الموضوع** . وربما كان مصيري يتوقف عليه .

اقترب ثلاثة من رجال الدرك يتقدمهم **مدنيّ** ، واخذوا يفرقون الناس بأعقاب البنادق . وعلى الرغم من كون الرجل المدني لم يشترك إطلاقاً بتفريق الناس ، ولم يعط اي امر صريح للدرك ، فقد لاح لـي بصورة مؤكدة انه **الكابتن** .

(من الغريب انه كان يضع على ذراعه رتبة **سرجان** ـ والغريب الثاني في الأمر ، ان الشخص المدني لايحق له بتاتاً ان يضـع رتبـة عسكرية) .

وعندما وصلوا اليّ ، تاخر رجال الدرك ووقفوا بهيئة استعداد ـ اما الدركي الذي ألقى القبض عليّ ، فقد **دفعني** نحوه وهويقول : هذا . .

ولكن السرجان اسكته بنظرة قاسية ، وكانه يسائله عن القيد ـ تجمد الدركي وكانه صعق . . . حتى ان يده ظلت معلقة في الهواء.

يجب ان اعترف بأن كلمة « **دفعني** » ليست دقيقة تماماً ، وفيها شيء من الظلم . اعني انها لا تنطوي على شيء من العدل بحق الدركي : لأنه دفعني بطريقة مَنْ يمازح صديقاً ، لا أكثر ولا أقل . وحتى انه خيّل لي ، لفترة قصيرة ، ان القضية من اولها الى اخرها لم تخرج عن نطاق المزاح .

(دائما كان يخيّل لي انني في حلم)

رفع السرجان ذقني باحدى يديه ، وعرّض وجهي للضوء الذي كان ينتشر من حبل المصابيح الكهربائية الممتدة على عرض الشارع . . . وبطوله الكامل .

(كان قريني في القيد قد اختفى هذه اللحظة)

ودون أن ينظر السرجان مباشرة اليّ : اخذ يتأمل وجهي من الجانبين ـ

تعلق بصري بوجهه : كان وجهه يفصح عن خيبة الامل والانزعاج ؛ لان النتيجة (كما اظن) ليست مطابقة لما يريد ـ اعني : ليست مطابقة للمهمة الملقاة عليه .

انني اتسرع دائماً في اصدار الاحكام . لذلك يجب اجراء تعديل بسيط على الحديث السابق ـ لم تكن خيبتهواضحة كانتنوعامن الشك. لم يكن واثقاً بأني الرجل المقصود : « **محمد حيدر ـ خريج فلسفة عام ١٩٦٢** »

وقد لاحظت ان ارتياحه كان واضحاً ، لدرجة انني لم أخطىء في تأويله وادراك معناه : كان مرتاحاً لأني لست الرجل المطلوب .

(قلت لنفسي : لاتطمئن اليه يامحمد . وربما كانت فخاً هذه الحركة)

بالطبع ، لم يكن بامكانه ان يكشف علانية عن ارتياحه ، لان رجال الدرك كانوا قد تجمعوا حولنا وهم ينتظرون النتيجة بلهفة ... وكان الشر في اعينهم بادي الوضوح .

افلتني السرجان ، وقال بلهجة صارمة جداً : انت مراقب منذ الآن، وعليك ان تثبت وجودك في الكراكون كل يوم .

* * *

تابعت طريقي الى البيت وانا اشعر بخوف شديد ــ لم اكن مذنباً في شيء ، ولكن فكرة **المراقبة** هي التي اخافتني .

وعلى سيرة الخوف ، يجب ان اقول : ان القضية لا تتعلق بالشجاعة او الخوف . انها مسألة نفسية . فعندما نقول لإنسان **انت متهم** ... فإنه يشعر على على الفور بالخوف . او بتعبير ادق : يشعر بالارتباك ويختلط الامر عليه ، وتصبح حجته ضعيفة حتى أمام نفسه . وهذا ناجم عن عدم قدرة المرء على تفسير سلوكه وتسويغه ــ لان كثيراً من اشكال السلوك ، نقوم بها عادة دون تفكير ، او درجنا على القيام بها منذ زمن طويل ، وبالتالي لا نستطيع ان نجد تفسيرا لها . **كمثال واقعي** على ذلك ، قضيتي الآن ــ فلو سألني السرجان : لماذا تحب النوم على المصطبة امام بيت العيتاني ؟ لماذا لاتظل في الدكان بعد الغداء ؟ لما استطعت ان اقدم له اي تعليل مقبول . الجواب الوحيد ، هو **لا اعرف** .

عودة الى حديث الكراكون :

كان الناس يتناقلون قصصاً متنوعة عن الكراكون ــ كارغام المساجين على اكل الملوخية ، والقضامة المالحة ، او سماع الاغاني ، او المشي فوق قشور الموز . وقد سمعت ايضاً (ولا استطيع ان اقطع بصحة ذلك) انهم كانوا يرغمون المساجين على التسابق فوق البلاط المدهون بالزيت ... وهم حفاة .

ان سكان سلمية ، يحفظون بعض القصص عن اشخاص خرجوا من الكراكون ، وقد اصابهم الخبال نتيجة لسماع الاغاني . او خرجوا بأنوف فطس نتيجة المسابقات . لذلك وجدتني ارتجف من الخوف .. حتى اوشكت ان اعود الى السرجان (ولم اكن قد ابتعدت كثيراً عنه) فاعترف له بحادثة الفتاة في الحارة الشرقية ، تفادياً من الوقوع في امور كهذه ــ وكان اكثر شيء يخيفني : سماع الاغاني او اكل الملوخية بالذات

(قلت لنفسي : من المستبعد يا محمد أن يستخدموا هذه الاساليب التاليــة :)

١ ــ ان الدراسات النفسية المعاصرة ، تتركز على معرفة بنيــة الشخصية وتكوين العقل ... وقد توصلوا بنتيجة هذه الدراسات الى علم نفس جديد ، يطلقون عليه اسم : كيمياء النفس ــ ان **المنطق** يلعب دوراً اساسياً في هذا العلم ، وهو يعتمد على المبدا التالي : **عندما يقتنع بذنبه ، ينهار** وهذا ما يُعرف ، شعبياً ، باسم غسيل الدماغ .

٢ ــ ان الكراكون مخصص للمجرمين ، وليس للعباقرة المصابين بأمراض غيبية ــ العباقرة من امثالــك يا محمد (وهم نادرون جداً) يستعملون معهم اسلوب « السجن المفتوح » : ان السجن العادي،يتيح لك المكان الملائم للاستقرار والتفكير . أما السجن المفتوح ، فانه يؤدي ، بتأثير الحيرة والتوقع ، الى تصدع الشخصية وتعطيل البصيرة)

والذي ادهشني ، ان القيد قد اختفى وانني طليق اليدين . وكان قريني قد اختفى ايضاً ، ولكن غريغوري بيك ظل يلازمني .

(ان التفكير في هذه المسألة ، يجعلني أرجح ان قريني هو **مونتغمري كليفت** ، وليس ريشار بازهارت أو غريغوري بيك : لأن الجدران كانت مغطاة بصوره ، وباعلانات عن فيلمه الجديد :**اني أعترف**)

شعرت بطمأنينة بسيطة لاختفاء القيد والقرين ــ ولكن حادثة احتضان الفتاة ، كانت تقلقني بدرجة اشد مما كانت عليه أثناء حدوثها وذلك على الرغم من عدم وجود صلة ظاهرية بينها وبين الحادث الاول ــ وقد عزوت ذلك الى الشبهات التي احاطت بالموضوعين .

تابعت طريقي الى البيت . . .

كانت العيون الخفية ترصدني على طول الطريق ــ وعند وصولي الى البيت ، خلوت بنفسي استعيد الحوادث التي مرت .. وارتبها واحدة بعد أخرى . ولكن النعاس اخذ يسيطر علي .... حتى انني لم جد مساحة زمنية لتركيز فكري في شيء .

خلعت ملابسي استعداداً للنوم . . .

- ٢ -

الحادث الثاني

وقد وقع هذا الحادث **في الكويت** ، **في** ساحة واسعة ... امام مدرسة اعدادية للبنات ــ وكانت بدايته على النحو التالي :

وجدت نفسي في سيارة عتيقة . وكانت تشبه سيارة « ابو حَنُوف » من سلمية ... وذلك في الاربعينات ــ وقد ادهشني جداً هذا الامر : لأنني لا اعرف كيف ومتى جئت الى الكويت . كما أنني لا املك سيارة، ولا اعرف قيادة السيارة . ولم اكن من أصحاب السيارات في اي يوم. ولكنني لم أتوقف كثيراً عند هذا الأمر ؛ فقد كنت بحاجة قوية للنوم .. وقلت : سوف تبحث هذا الأمر فيما بعد يا محمد ــ تركت التعب يأخذني ... وغفوت .

كانت تغطيني رائحة مياه البحر ... وكنت بين اليقظة والنوم — صحوت فجاة ... كانت السيارة تتحرك الى الامام والى الخلف. وقد حسبت في البداية انها تتحرك تلقائيا ، ولكن حينما نهضت ، رأيت شخصا يبتعد عن السيارة — لم استطع تمييزه جيدا بسبب الليل . يضاف الى ذلك ، انه كان خارج دائرة المصابيح الكهربائية التي تضيء الشارع .

كان الشخص يدير ظهره الي ، ولكنه بالوقت نفسه ؛ كان يتلفت من حين لآخر ليتاكد من نتائج العمل الذي قام به . اعني ليعرف ما اذا كانت السيارة ما تزال في مكانها — ظللت اراقبه حتى وصل الى بيدر من سنابل القمح واختبأ وراءه . وبما انه لا يوجد بيادر قمح في الكويت، فقد قلت لنفسي : لا تخف يا محمد . هذا حلم — وفي هذه اللحظة ، اخذت السيارة تتراجع باتجاه اعدادية البنات : ان تراجع السيارة ، لم يكن بتاثير قوة الدفع ، ولكن لان الأرض كانت تنحدر الى اسفل — وعندما اوشكت سيارتي ان تصل الى باب الاعدادية ؛ خبطتني سيارة كانت قادمة من السوق : كانت الصدمة من القوة ، بحيث صارت سيارتي باتجاه منطقة السالمية ... بعد ان كانت باتجاه البحر .

لم ار السيارة التي صدمتني ، ولكن شعورا غامضا اوحى لي ان صاحبها قد مات .

تراكض رجال مدنيون وبعض عناصر الشرطة ، وطوّقوا السيارة . (من الغريب أن رجال الشرطة كانوا يلبسون لباس الدرك المعروف في سورية ايام فرنسا ... علما بانه لا يوجد درك في الكويت) .

لم يكلمني احد منهم . وقد عاملوني برقة زائدة وكانني اناء ثمين جدا ويخشون عليه من الكسر — كانت معاملتهم توحي بأنهم يعتبروني مجنونا . وقد تأيد هذا الامر بما يلي : كانت سيارتي تتجه ،دون ان يقودها احد او يرافقها احد ، في طريق ترابية مطموسة المعالم . وفجاة كنت في مشفى ... **يلوح انه للمجانين** .

(كنت واثقا انه مشفى مجانين ــ ولكن الذي ادخل الشك في نفسي ، ان النوافذ اخذت تفتح ... وتطل منها **رؤوس للقرود** ــ صرخت في اعماقي وقلت : وقعت يا محمد) .

كنت لا ازال في سيارتي عندما وصلت الى المشفى ــ كانت الساحة مضاءة بنور ساطع جدا يبهر العيون ــ تقدم نحوي عدة ممرضين ، وفتح احدهم باب السيارة الخلفي ثم امسك ذراعي برفق ــ كان يحمل ابرة . واخذ يرفع كم السترة ليغرزني في ذراعي . سحبت ذراعي بقسوة وقلت له : لست مجنونا .

اجابني بهدوء من تعود هذا الدفاع من المجانين : اعرف ... هذه الابرة للتهدئة فقط .

وعندما قام بمحاولة ثانية لغرز الابرة ، خرجت من السيارة وصرخت في وجهه بصوت عال : انتظر . دعني اتحدث معك عشر دقائق ... خمس دقائق ... دقيقة واحدة ... فاذا وجدتني مجنونا فاغرز الابرة ــ عند ذلك اخذ يستعمل القسوة ، يؤازره رجل من الشرطة واثنان من الممرضين . وقد استطاع في النهاية ان يغرز الابرة ، ولكنني سحبت ذراعي قبل ان يسري اي شيء من السائل فيها . وكررت الصراخ بانني لست مجنونا .

اقبل شخص اسمر . لحيته بدون حلاقة منذ أيام ــ وكان يرتدي معطفا يشبه تماما المعاطف التي يرتديها رجال العصابات في الافلام ــ لم يكن في هيئته الشعثاء ما يدل على انه طبيب او شيء من هذا القبيل .

(شعرت انه الخبر النفسي في المؤسسة ــ اعني المشفى) .

حدثته بقصتي . شرحت بالتفصيل كيف وقع الحادث . اقسمت بانني لم ار السيارة التي صدمتني ، ولكنني اظن ان صاحبها قد مات ــ تظاهر بالتصديق . (من المحتمل انه صدقني فعلا) ثم قادني بلطف وهو يهز راسه ... وكانه يقول : سنرى .

اوصلني الى الطابق الاول . وهناك وضعني في غرفة شبه عارية ــ تأملني قليلا ... ثم تركني وحيدا دون ان يقول أي شيء .

في الغرفـة سرير حديدي . امـا الفراش ، فكان مطويا وملفوفا بالبطانية على السرير ... وهي الطريقة المتبعة في السجون والمعتقلات ــ في الغرفة ايضا مغسلة ، واضبارات متناثرة فوق الارض : جذبتني اضبارة صفراء ... وكانت موضوعة على طاولة صغيرة . وعلى الرغم من كون الغرفة شبيهة بغرف الحبس الانفرادي ، فان الطاولة المذكورة كانت من نوع الطاولات التي يضعونها في المشافي الى جانب سرير المريض.

(اغبياء الى درجة تستحق الضحك والاشفاق : يريدون تمويه الوضع فلا اعـرف ما اذا كنت في السجن ام في المشفى ــ ولكن لماذا الاضبارات يا محمد ؟ انتبه ...)

تناولت الاضبارة .

كان مكتوبا عليها بخط سميك واضح جـدا ، وبلون بنفسجي ، ما يلي :

الدرس الاول ــ تاريخ حياتك :

وكان هـذا هـو العنوان الرئيسي ــ وتحت هـذا العنـوان ، وبخط عادي :

الاسـم

العمـر

المهنـة

تاريخ الحياة

ثم ، وبخط اصفر قاتم :

اكتب ملاحظاتك على الدروس .

تنبيه : التعليمات في الداخل .

وفتحت الاضبارة وقرات التعليمات . وكانت من سطر واحد :

« يمكن ان تكتب الحياة الحقيقية ، او التي تحب أن تكون ، او الاثنتين معا » .

حاشية مهمة جدا .

من الجائز ترك الاوراق فارغة ــ

وكان في الاضبارة مجموعة من الاوراق لكتابة الاجوبة .

اعدت الاضبارة الى الطاولة ، واتجهت نحو الاضبارات الاخرى ــ وكانت (كما خمنت) تحتوي الدروس المطلوبة .

قعدت على الأرض ، وشرعت أقرأ عناوين الدروس :

١ ــ اللاشعور والأنا الأعلى .

٢ ــ الف باء الماركسية .

٣ ــ الشيخ والمريد : كطريقة تربوية .

٤ ــ المنطق المادي .

٥ ــ اثر الحمامات العامة المختلطة في المذاهب الفلسفية .

٦ ــ الثورة العالمية القادمة : جنسية أم تشريعية ؟

٧ ــ تفسير الاحلام .

٨ ــ راس المال .

٩ ــ التفسير الاقتصادي للفتوحات العربية .

١٠ ــ التضاد : كمبدأ للشخصية .

١١ ــ التحقيق الجنائي في ضوء علم النفس .

توضيح :

لم تكن الاضبارات تحتوي على مواد الدرس ... كانت مجرد عناوين للدروس – وكان عليّ ان اكتب آرائي حول الموضوعات الآنفة الذكر .

كان الخبير النفسي يقف تحت غرفتي ...... وكان يراقبني من هناك –

يبدو ان الغرفة مهيأة لهذا الغرض : كان الجدار الذي يطل على ساحة الشغل مصنوعا من سيور حديدية رقيقة ، وحبال من الخرز والقصب ، كالتي كانوا يضعونها قديما على ابواب دكاكين الحلاقين . اما ارض الغرفة ، فكانت شفافة ... ومزروعة بالثقوب .

كان الخبير يراني ، وكنت أراه –

تبادلنا النظرات الصامتة فترة طويلة – كان شعاري : **لن اقرا الدروس** . وكان يجيبني بعينيه ، ودون ان يظهر على وجهه اي قلق او انزعاج : **ستقرا** .

وكان شعاره : الانتظار –

– ٣ –

كنت في أول النوم ... عندما سمعت طرقا على الباب . وكما يحدث عادة مع النائم ، فقد ظننت ان الطرق في الحلم – ولكنه توالى فاستيقظت .

ذهبت لافتح الباب ، وبقايا النوم ما تزال ظاهرة عليّ . وكنت اتساءل بالوقت نفسه عن هذا الطارق الليلي !!

(من النادر أن يزورني احد ، خاصة في الليل) .

قلت لنفسي : من الطبيعي ان يكون احد الاصدقاء يا محمد ، وقد سمع بما حدث لك مع الدرك ، فجاء ليطمئن عليك .

فتحت الباب . . .

سألني مباشرة ، وقبل ان استطيع تمييزه : محمد حيدر ؟

ووضع قدمه في الداخل ليمنعني من اغلاق الباب ، وهي العادة المتبعة لدى الدرك والعصابات .

قلت : انا محمد حيدر !

قال : **الكابتن** يريدك . تفضل .

قلت : شكرا للكابتن على هذه الدعوة ، ولكنني لا احب أن أزور احدا في الليل .

صرخ : اغلق فمك .

(غريب !! كيف يعرف انني اتكلم من فمي ؟)

قلت : لقد كنت مع **السرجان** منذ ساعات ، وقد طلب مني أن اثبت وجودي في الكراكون عند الصباح فقط .

(كان سؤالي بلهجة الاستفهام ، وليس من قبيل الممانعة او السخط) .

امسكني بشعري وهزني بقسوة . . . ثم رفسني رفسة عنيفة وهو يدفعني الى الداخل ـ وفي الضوء ، تبين لي انه احد عناصر الفرقة السرية التابعة لجهاز الدرك الاعلى ـ عندها راح من عقلي الوهم ، وايقنت انني لست في الحلم كما ظننت من قبل : لان جهاز الدرك الاعلى ، لايضع في حسابه الا الاشخاص الذين يعتبرهم خطرا على الصحة العامة

توضيح :

أ ـ الحقيقة انني لم اره يرفسني ـ شعرت بخبطة قوية على صدري . . . وقد دفعتني هذه الخبطة الى الداخل . وبما انه لم يكن امامي سواه ، فقد قلت لنفسي : هو الذي خبطك يا محمد .

٢ ـ كان يضع على ذراعه إشارة الفرقة السرية ، وهي **باقة من البقدونس .**

٣ ـ كانت الباقة ذابلة منذ فترة طويلة ، ولهذا لم إشم رائحتها عند فتح الباب .

٤ ـ عندما يقوم احد العناصر بمهمة رسمية ، فانه يضع على ذراعه باقة بقدونس . . . ويجب ان تكون طرية : هذا يعني انهم كانوا يراقبونني قبل وقوع الحادث الاول ـ تاريخ الجريمة موضوع ثانوي : **الادانة قائمة على اساس النية .**

ارتديت ملابسي بسرعة ـ ولكنني قبل ان اخرج ، تذكرت أن شعري منبوش . رجعت الى الفرفة واخذت امشط شعري : فوجئت باصابع الرجل السري وهي تتساقط من شعري واحدة بعد اخرى . . . . . . جمعتها عن الارض ووضعتها في كيس من الورق ، واعطيته اياه قبل ان نخرج من الباب ـ تناول الكيس . . . وصار يعض إصابعه . . ثم أعادها الى مكانها وهو يبكي .

خرجت معه وانا افكر في الامر ـ قلت لنفسي : انت الى الهلاك يا محمد .

« تذكرت قصص التعذيب في الكراكون ، فارتجفت . . . حتى أن اسناني تحركت من الخوف » .

كانت تنتظرنا سيارة أمام الباب ـ

قلت له : القمر جميل . ما رأيك في الذهاب مشيا الى الكراكون ؟

اخذ يضحك حتى كأنه يقع على الارض . . .

قال ، وكأنه من رجال الدرك الحقيقيين : اذا مازحتني مرة ثانية ، سآخذك شحطا الى الكراكون ـ ثم حملني وارقدني في السيارة بعناية زائدة .

وجدتني افكر من جديد : لماذا يريدني الكابتن ؟ لقد تركته منذ قليل .

(بدا لي ، بالحس الداخلي ، ان **الكابتن والسرجان هما شخص واحد**) .

وتساءلت : هل كان الكابتن ينصب فخا ؟ هل كنت واهما في مودته ؟ ام انه اسلوب من اساليب التحقيق ؟ استفهامات كثيرة لم اجد عنها الجواب ـ

ايقظني الرجل من افكاري وهو يقول : انزل .

كنا أمام الكراكون ـ

(على الرغم من كل الظواهر الواقعية ، ظللت اعتقد انني في حلم) .

كأنه تناسى ما كان بيننا من مزاح ، دفعني باتجاه المدخل بقسوة . . . اكثر مما يلزم .

ضربت يده وصرخت عليه : اتركني . الطريق واضح . انا لست سجينا عندك ، وهذه المناورات لا تجوز عليّ .

حتى اذا اراد ان يبادلني الضربة بمثلها . . . حدقت فيه وقلت : ستكون مسؤولا أمام الجهاز الاعلى . سأقول لهم كل شيء عن اصابعك . . . اذا ضربتني .

أجابني وهو يهمس بمودة : لا تغلط يا محمد . انا معك . انا من الخليج ـ ثم انقض عليّ ولوى ذراعي وكأنه يحاول منعي من الفرار . . . وخلال ذلك قال : الكابتن يراقبنا بالمنظار . لا تخف منه . ليس هو المسؤول عنك .

تظاهرت بالمقاومة وسألته : من المسؤول اذن ؟

قال : **الاوامر تجيء من الخليج وليس من سلمية .**

سألته بلهفة : من اي خليج ؟

جرني الى الداخل وهو يقول : لا اعرف . سمعت انها **تجيء من الكويت .**

(وصرخ في اعماقي ذلك الشخص : محمد ... لقد هلكت) .

وعندما صرنا امام الحراس ، اخذوا يتفرسون في بنظرات من ثلاث خانات :

١ ــ خانة الشراسة والتشفي والحقد .

« **لا اذكر** ابدا انني اسأت الى واحد من هؤلاء » .

٢ ــ خانة الشفقة .

٣ ــ خانة الحياد والاعجاب .

اوصلني الى غرفة يجلس فيها شخصان ، وقال لاحدهما : الكابتن يريده .

« كان الشخص المشار اليه يتصدر الغرفة ... برتبة **شيف** » .

لم يظهر على الشيف اي عنصر خاص ــ اقتصر على نظرة عادية قائلا : اقعد ــ ثم حول كرسيه الدوار صوب زميله ، وتابع حديثا كان دخولنا قد قطعه .

قال الشيف لزميله : جربت معه كل الاساليب ، ولكنه لم يعترف .

سأله زميله باهتمام : وبعد ذلك ؟

اجابه الشيف : ضربته كفا واحدة ،

وتمهل قليلا .... ثم تابع وهو ينظر اليّ : بصق دما . كسرت له الفك .

أخذني الاعجاب فسألته : دم حقيقي !!

قال ، وكأنني كنت أمازحه : ماذا كنت تظن ؟ عصير بندورة ؟

تابعت : اي فك كسرت ؟

قال : الفك الامامي .

سألته بدهشة كاملة : لا يوجد فك امامي عند الانسان ؟!

ضحك بغبطة شاملة حتى وكأنه ينبطح على الارض .... .. وقال : انت جديد على الصنعة . الفك الامامي في قاموس الدرك ، يعني الاسنان .

ـ تقصد كسرت له اسنانه ؟

ـ الاسنان الامامية بما فيها الانياب .

ـ كل ذلك بكف واحدة !!

نظر الاثنان الى بعضهما ... ثم نظرا الي بدهشة !!

قال الشيف بارتياح واضح : الا نعجبك ؟

ولوح بكفه برهانا على قوله ... وكانت كفه كخف الجمل ـ

قلت : فيك البركة . هذا يعني انك كنت تستطيع قتله لو اردت !

ـ استطيع ...!! هه ... ها ... بكل سهولة .

سألته : جربت نفسك من قبل ؟

فحصني مليا عند هذه النقطة ... وظهر الغضب عليه وكأنه اهين ـ قام من وراء طاولته ، ووقف امامي كالبعير ـ اردت الوقوف من باب الادب والاحترام . لكنه وضع كفه على كتفي وكبسني وهو يامرني بالجلوس ـ احسست أن جبلا قد ركب علي .

(من الغريب أن يده الثانية كانت من القطن واوراق الخس) .

سألني وهو يخن : لماذا يريدك الكابتن ؟ مطلوب ؟

قلت : يبحثون عن خريج للفلسفة عام ١٩٦٢ ـ اسمه محمد حيدر .

ــ يعني انت .

ــ لا أعرف . أنا محمد حيدر ، ولكنني تخرجت في عام ٥٤ .

(وجدت بصري يتعلق ، رعبا ، بكفيه) .

« رآني أنظر في يديه ... »

قال : تريد ان نجرب ؟

وقبل ان يسمع جوابي ، امسك يدي وضغط ... .. شعرت ان روحي قد خرجت من اذني : قفزت وانا أنبح كالكلاب .

توضيح :

استخدم يده القطنية المزخرفة بأوراق الخس .

في هذه اللحظة اقبل احد رجال الدرك وطلبني لمقابلة الكابتن ...

كنت امسك يدي المعطوبة عندما دخلت ــ ومن حسن الحظ ان الكابتن كان مشغولا بقراءة بعض الاوراق ، والا لكان قد راى دهشتي الشديدة : كان غير الذي رايته في المساء عندما وقع الحادث الاول. **كان الكابتن الحالي من قريتنا القديمة سلمية !!**

لماذا بدلوا السرجان ؟ وكيف جاء الكابتن الجديد من سلمية ؟ كان الحادث الاول قد وقع في سلمية ... **فلماذا يجري التحقيق في الكويت ؟**

(وأدركني الخوف) .

كان يقلب ببطء في اضبارة أمامه ــ لم يرفع وجهه عنها . وبين حين وآخر ، كان ينكش اذنه ويضغط انفه من الجانبين . وكان يفعل ذلك عندما يطيل النظر في احدى الاوراق ــ واخيرا اشار لي بالجلوس . اعني : أدار رأسه بازدراء ناحية الكرسي ... وفهمت انها دعوة للجلوس .

جلست على الكرسي ـ لم يظهر عليه انه يعرفني . من المحتمل انه لايريد ان يعرفني . فعلت مثله ؛ وحبست كل ما يشير الى وجود معرفة سابقة بيننا .

تابع قراءة الاوراق ... وكانت اضبارتي حتما ـ

شعرت بحاجة شديدة للعطاس . وقد حاولت ان امنعه بكل الوسائل : بالضغط على الانف . بالكز على الاسنان . بالشد على البطن والخاصرتين . واخيرا طويت كل جسمي وانحنيت الى الامام حتى اوشك وجهي ان يلامس الارض ـ لكنه غلبني فعطست : عطست مرتين متتاليتين .

« كنت اعطس كالماعز ... بصوت كالشخير » .

فوجئت بالكابتن يثب عن كرسيه ويجفل ... ضحكت بصوت مرتفع . بصوت عال جدا . لم اضحك في حياتي مثل هذا الضحك ـ انفجر هو ايضا بالضحك . ثم اربد وجهه فجاة وقفز نحوي كحزمة القش ؛ وخبطني على وجهي بعلبة من الكرتون وهو يصيح :

جاسوس . حقير ـ ساريك الآن كيف يكون الضحك .

رن الجرس (كان الزر بلون اصفر) فدخل رجل في ضخامة الفيل ... وكان حليق الرأس ـ قال له الكابتن وهو يرتجف من الغضب : اسحبه .

سحبني الرجل الى القبو ـ

الكابتن وراءنا : يقرصني احيانا ؛ ويضربني احيانا بالاضبارة على مؤخرة الرأس . ومن حين لآخر يضع نملة في اذني اليسرى .

« كان يحمل في جيبه علبة من النمل » .

(من الغريب انه لم يستخدم النمل في اثناء التحقيق) .

سألته ونحن في طريقنا الى القبو : هذا النمل للتعذيب ؟

قال : لا ... هؤلاء اولادي .

اولادك ؟!

وبكل رصانة يجيب : زوجتي نملة .

وعلى الرغم من الخوف ، اندفعت بالقول : كان الله في عونك على هذه الحياة .

وصلنا الى القبو ...

كان القبــو مزدحما بادوات فريدة : دواليب . كماشات . علب كبريت . كرابيج . بسكويت . اسلاك كهربائية . خيطان . منافيخ . بيض مسلوق . حبال معكرونة تنزل من السقف . كبة نية . باقـات بقدونس على الجدران . مقاعد اسفنجية مثبتة بالارض ... وادوات اخرى لم اشاهدها من قبل ـ وقد ذكرني هذا القبو **بدكان اسماعيل القندور في سلمية** . وكان هذا الدكان مضرب الامثال . لا تطلب شيئا الا وجدته فيه : اكياس حمام . فلفل . قباقيب . تكاشات بابور . قرفة . جوزة الطيب . دواليب عتيقة للسيارات . طاولات . مصائد للضباع . اسطوانات . دجاج . زيت كاز . كراسي مخلوعة . جنازير . روايات ارسين لوبين وشرلوك هولمز وتغريبة بني هلال . زعتر أخضر . بطاطا مقلية . بيض مسلوق .

كان الدكان يحتوي ما هب ودب ... حتى ان اهالي سلمية كانوا يطلقون عليه اسم : « جراب سيدنا اسماعيل » . ويقصـدون **النبي اسماعيل** ـ وتقول الاخبار القديمة بأن هذا الجراب كان يسع الدنيا بأسـرها .

« اعتقد ان اسم **اسماعيل** لصق بالغندور من هذه النقطة » .
عندما رأيت القبو ، قلت لنفسي : وقعت يا محمد .
أخذ الرجـل الحليق يجسني وكأنه يبحث عن نقطة للبدء ... نقطة انطلاق .

فتح الكابتن الاضبارة وشرع يقرأ ،
كان يغمغم بسرعة ... يخن كأزيز النحل ـ وعندما وصل الى ما يريد ، اتجه اليّ ملوحا بورقة ... وشرع يقرأ بصوت مرتفع :

اخبارية رقم ٣ :

ان فقدان الحمامات العامة المختلطة ، سوف يؤدي في نهاية الامر ، الى تدهور شامل في صحة الشعب ـ وعلى الدولة ان تتحمل مسئوليتها في هذا المجال .

ان كلمة « صرخ » ... لا تكفي لوصف الصوت الذي اخرجه الكابتن ـ يمكن القول بأنه : زار ، ارغى ، ازبد ، خار ... وهو يصيح : تدهور شامل ؟! **يا جاسوس يا حقير .**

(**جاسوس . حقير ...**

لقد كرر هذه التهمة مرتين ـ أكان يوحي لي بشيء ما ... أكان يريدني ان اعرف ، بطريقة غير مباشرة ، ان قضية الخليج غير واردة على الاطلاق ؟)

قلت : هذه أول مرة اسمع هذا الكلام .
وتابع القراءة وكأني غير موجود :

اخبارية رقم ٥ :

« تقوم الدولة ، علانية ، بمكافحة عصابات خطف الفتيات في سلمية والكويت . ولكنها تتغاضى عنها في الخفاء ، وتقوم بتشجيعها في كثير من الاحيان — وهذه جريمة لامثيل لها على الاطلاق : إن الهدف من ذلك، تشويه الحس الجمالي عند الانسان »

صرخت : لم اسمع بهذا الكلام .. لم اقل هذا الكلام .

لم ار الرجل الحليق ، ولكن من الواضح انه ثنى ساقه لتشكل مع ركبته نوعا ممتازا من المطارق البشرية .

وجاءتني ضربة من الخلف ... قفزت وانا احتضن طاولة الكابتن بيد واحدة .

« كانت الثانية غير صالحة للعمل »

تلقائيا ، وكأن الاثنين قد تمرنا طويلا على هذه الحركة ؛ او انهما اتقناها لكثرة الاستعمال .

اقول : تلقائيا امسك الكابتن بشعري واخذ يدقني على الطاولة .

« تمنيت في هذه اللحظة ان اكون حليق الراس ، واقسمت ان افعل ذلك فيما بعد »

ويبدو ان الخبط على الراس ، لم يشبع غليل الكابتن ، لانه مالبث ان اكب علي واخذ يعضني خاصة في الاذنين .

انقذني حليق الراس من اسنانه ... واجلسني على مقعد مثبت في ارض الغرفة — رايت ان الواجب يقضي بشكره ...
قلت له : شكرا .

همس ،وهو يربط يدي بسيور من الجلد : لاشكر على واجب .
« شرع بعد ذلك يفك رباط الحذاء »
قلت له همسا : خفف الضرب . جسمي ضعيف ، لايحتمل .
قال : سامحني . اعيش على الضرب .
قلت له : اتكل على الله . انا لا احب ان اقطع رزق احد .

صرخت : انا مدرس فلسفة ولا علاقة لي بوزارة الصحة . لم اسمع بهذا الكلام من قبل .

« لم اكن كاذبا ، ولكن خيل لي أنني طبيب سابق »

خلع الكابتن سترته ... كان يستعد للمعركة ــ المعركة من طرف واحد بالطبع .

جرس الهاتف يرن ــ الطرف الآخر يتكلم . أما الكابتن ، فكان يردد وقد تبدلت هيئته : حاضر ... حاضر ... امرك سيدي .

وقبل ان يغادر القبوء التفت الى حليق الرأس وقال له : سأعود بعد نصف ساعة .

حليق الرأس في حالة ارتياح . كأنه تخلص من عبء ــ
اشعل سيكارة وسألني بلهفة : سمعت انك دكتور عظيم .
ولم ينتظر جوابي : وانما رفع قميصه واشار الى خاصرته اليمنى وقال : معي نخزة قوية يادكتور .

قالوا انها الزائدة . حولوني الى المشفى مرتين . لم استفد شيئا.

اشرت الى يدي المربوطتين ...

تلفت نحو الباب ... ثم فك الرباط ــ تناولت السيكارة منه دون استئذان ، وسحبت منها سحبتين عميقتين ... ثم اخذت اتحسس منطقة الالم واضغط .

آخ ... آخ ...

سألته : يأتيك الوجع قبل الاكل أم بعده ؟

قال : دائما يجيء . قبل الاكل وبعده .

ــ يمشي الوجع من الخاصرة الى الخاصرة ؟

ــ كل البطن يوجعني يادكتور .

ــ تحس وكانه معك مغص ؟

ــ مغص شديد يادكتور .

قلت له : بسيطة . لايوجد معك زائدة . التهاب خفيف في الكولون.

قال : عندك أدوية دعاية ؟ حالتي تعبانة .

ــ عندي في البيت أدوية كثيرة . كلها أدوية ممتازة : افلاطون . ارسطو . باسترناك . داريل . نابوكوف . فيرجينيا وولف . موبي ديك أو الحوت الابيض .

ــ ياليت يادكتور . معي آلام قوية في المفاصل . يقولون ان دهن الحوت يشفيها .

ــ دهن الحوت ممتاز . خاصة الحوت الابيض الاميركي ماركة ملفيل .

ــ عندك أدوية المانية ؟

ــ كان عندي دواء الماني اسمه الجبل السحري . مفقود الآن. هيدجر الماني ، لكنه صعب . عندي ادوية فرنسية . اندريه جيد . مالرو . كامو . ريغردي ــ الروس عندهم دواء عالمي اسمه دوستويفسكي.

ــ يعني هذا احسن دواء ؟

ـ دوستويفسكي ، فرجينيا وولف ، هوميروس : هذه أفضل الادوية التي ظهرت في تاريخ العالم حتى الآن .

ـ عندك دواء عربي ؟

ـ ادوية عربية كلها قديمة : ابن الهيثم . ابن خلدون . ابن سينا . جابر بن حيان . ولكن **المتزلة** أحسن دواء عربي .

ـ إن شاء الله تطلع بالخير والسلامة يادكتور .

ثم همس وكأنه يخشى أن يسمعه أحد : سأخفف الضرب .اصرخ عندما اضربك . الكابتن خائف الآن . عليه تحقيق في حادثة قتل سجين .

ـ كيف قتله ؟

ـ عضه من اذنــه واكلها .

تعوذت بالله من هذه العبارة ـ

وقبل أن يتاح لي استكمال صورة الرعب هذه . عاد الكابتن متجهم الوجه . . . وهجم فورا عليّ : كانت الاضبارة في يده ـ خبطني بها مرارا على راسي .

(قلت لنفسي : اعطس في وجهه يامحمد . لكنني خفت من النتيجة، خاصة بعد أن سمعت بحادث قتل السجين . لذلك تراجعت)

كان يخبطني بالاضبارة ويقول : : اعترف .. . اعترف .

وتناثرت محتويات الاضبارة في أرجاء القبو . لكنه ظل ينهمر بالاسئلة عليّ . . .

« من الواضح انــه يحفظ التقارير غيبا »

وتذكرت ماحدث في البداية ، فصحت : انا خريج عام ٥٤

لمحت ظلالا من الشك في وجهه ـ أخذت هذه الدلالة وكررت :انا خريج عام ١٩٥٤ كان الرجل الحليق قد فرغ من خلع الحذاء ،وشرع في تثبيت قدمي ...

في هذه الاثناء وقع بصري على البسكويت والبيض المسلوق-تذكرت انني لم آكل منذ ساعات . اي منذ وقوع الحادث امام إعدادية البنات-شعرت بالجوع .

سألني الرجل الحليق : خائف ؟ سأخفف الضرب .

صرخت : انا جائع . جائع . جائع .

وصاح الكابتن : ارحمني ايها الإله . جائع !!

ثم ركع امامي وهو يبكي : جائع ... لماذا لم تقل ذلك ؟! لماذا ؟

قلت : الخوف انساني الجوع .

وقف الكابتن ... ثم احضر لي بسكويتا وبيضا مسلوقا وبطاطا مقلية مع رغيف .

قلت له : لا استطيع ان آكل البيض والبطاطا بدون فلفل وملح .

ظهرت الحيرة عليه ـ كان يتطلع حواليه وكأنه يخشى ان يراه أحد ، ثم فتح الاضبارة واخرج منها كيسا صغيرا من الملح .

قال لي وهو يرش الملح على البيض والبطاطا : لقد عانيت الجوع طويلا قبل ان اصل إلى رتبة كابتن ـ الجوع كافر .

ثم اخرج كيسا آخر من الفلفل ، واخذ يرش ...

حرك الفلفل حساسيتي ، فعطست ....

اتكأ الكابتن في البداية علي ... واصطدام رأسه برأسي بعنف خفيف ـ تراجع بعد ذلك وسقط على الارض . وعندما نظرت إليه لم اتمالك نفسي وانفجرت بالضحك كالمجنون : كان وجهه ملطخا بالبطاطا المقلية والبيض المسلوق .

ظننت ان الكابتن سينهض . لكنه ظل كما هو ... دون حراك .

صرخت : يا إلهي . لقد مات ـ **سأعترف** بكل شيء . **سأعترف** بكل الجرائم الماضية والحاضرة وكل المستقبل القريب . **سأعترف بما** وقع .. والذي لم يقع ... وبكل الجرائم في سلمية والكويت .

كان الرجل الحليق قد استدعى الإسعاف .

شرع الطبيب يفحص الكابتن ـ رفع راسه وقال : انتهى .مات .

وعندما اوشك رجال الاسعاف ان يأخذوا الكابتن ، **قلت للطبيب:** أنا طبيب مثلك . وهذا ابن بلدي من سلمية . اريد ان **اودعه** .

تراجع الطبيب ، وتراجع رجال الاسعاف .. وادار وا وجوههم صوب الحائط ـ

انحيت على الكابتن لآخذ كيس الملح ـ فتح عينيه وهمس : **لاتعترف بحادثــة الفتاة في الحارة الشرقية . سيقتلونك** ، حتما ، اذا أعترفت .

ـ كيف يحاسبونني على شيء جرى في سلمية ؟

قال : **الفتاة في الخليج الآن .**

سألته بجزع ولهفة : في اي خليج ؟ في الكويت ؟
ولكنه اغمض عينيه قبل ان يجيب ـ ومات مرة ثانية .

★ ★ ★

- ٤ -

الحادث الثالث

وقد جرى هذا الحادث في مكان مجهول نوعا ما ... أو بالاحرى في عدة امكنة . وعلى الرغم من ان هذا الحادث يتكون من عدة حوادث جزئية ، فانه يعتبر حادثا واحدا على وجه التاكيد — وقد وقعت بعض هذه الحوادث في جبال المانيا الغربية ، وبعضها في سلسلة جبال لبنان، وبعضها الآخر في قرى دمشق — ولكنني ، وحتى الآن ، لا أستطيع ان اجزم بانها وقعت في الاماكن الآنفة الذكر ؛ لان الغموض كان يلفها من البداية الى النهاية .

وقبل ان اسرد هذه الحوادث ، أعود للتذكير بانها تعتبر حادثاواحدا من كل الجوانب — لكنني سأرويه مجزأ حادثة حادثة :

١ — وجدت نفسي فجأة في ساحة إحدى القرى ، وكانت**على الارجح** احدى قرى دمشق ....

اقول « على الارجح » ... لانني ، وخلال كل وجودي في القرية المذكورة ، كنت احس انني في مدينة **نورنبرغ في المانيا الاتحادية . وقد** تعزز هذا الاحساس بقرينتين :

الاولى ، انني رايت في ساحة القرية احد رجال الشرطة الاتحادية، وكان يعمل لحساب مدينة **كولونيا بالذات .** وقد ظل هـذا الشرطي يطاردني في كل انحاء المانيا ، حتى وصلنا الى نورنبرغ ، وهناك اختبأت في القصر الامبراطوري فلم يعثر علي .

الثانية ، ان شعار مدينة نورنبرغ كان مطبوعا على عدة أماكن من القرية — ولولا اللغة العربية والكتابات العربية ، لما كان لدي أدنى شك في انني في نورنبرغ .

اعـود الى القرية :

كنت ابحث عن دراجة لاستئجارها ، وكان الغرض مـن ذلـك، الذهاب الى احدى المزارع لشراء عسل : لان احدى طالباتي في الكويت **(واعترف بانني احب هذه الطالبة)** كانت قد اوصتني قبيل العطلـة الصيفية ان اجلب لها شهداً من سورية ـ كنت في سلمية عندما سألت عن الشهد المطلوب . وقيل لي بأن هذا النوع من الشهد ، لايوجد الافي قرى دمشـق ... وفي مزرعة **« الشويخ »** بالذات ـ والشويخ هذا .. رجل من اصل الماني ، ولكنه يضع عمامة صغيرة على راسـه ؛ ومن هنـا فقد اطلق عليه السكان لقب « الشويخ » ـ وكان هذا هو سبب مجيئي الى دمشق . وقد تبين لي خلال البحث ، ان المزرعة غير مطروقة ،وانه لابـد من إستئجار دراجة للوصول اليها .

٢ ـ اما كيف انتقلت الى دمشق ، والى هذه القرية ... فلا ادري ـ كل ما اعرفه انني وجدت نفسي فيها وقد استاجرت دراجة ـ وعندما سالت عن الطريق الى المزرعة ، قيل لي بأن احد اللحامين (واشاروا الى دكان لحام معين هو الوحيد الذي يعرف الطريق ... وان دكانـه هـو المدخل الوحيد ايضا الى هذا الطريق .

اتجهت الى دكان اللحام واخبرته بالغرض من مجيئي .

تفرس في ... واخذ يقيسني من كل الجوانب ؛ ثم سألني : مـن ارسلك إلي ؟

قلت : سكان القرية ارسلوني اليك .

.قال : اعرف ذلك . ولكن من ارسلك من سلمية الى هذه القرية

قلت : مروان الاحمدي وخالد العيتاني .

سألني بلهجة الشاك : هل تحمل كلمة السر ؟

ادركت حينئذ سبب هذه الاسئلة ـ ذلك انني نسيت تماما ، في غمرة انشغالي باستئجار الدراجة ، ان مروان الاحمدي وخالدالعيتاني قد وصفاه لي وزوداني ببطاقة السر .

اخرجت البطاقة ووضعتها امام عينيه : كانت موقعة من الاثنين . . وعليها **صورة غزال ـ**

وبعد ان تثبت اللحام من البطاقة ، أشار الى بوابة صغيرة في آخر الدكان ، وقال : الوضع خطير . انصحك بعدم الذهاب . يترصدونك منذ فترة . قلت له اريد الحصول على الشهد ولو كلفني ذلك حياتي .

قال : انـا عملت واجبي .

ـ شكرا .

لاحظت فورا انه من المستحيل مرور الدراجة . . . فتركتها عنـد الباب الخارجي ودخلت ـ كانت البوابة أصغر مما قدرت ، لدرجةانني لم استطع المرور منها الا بعد ان ضغطت نفسي بمقدار الثلث . وعندما اصبحت في الجانب الاخر ، فوجئت بأنني مازلت امام دكان اللحام،وانه لا اثر لطريق الى المزرعة ـ والمفاجـأة الثانيـة ، أن الـدراجـة قـد اختفت من امام الباب ـ وعندما سألت اللحام ، اشار لي بعينه . . . وفهمت انـه « مرصود » .

رجعت الى ساحة القرية ، وسألت كل الأشخاص الذين وجدتهم هناك عن الدراجة . ولكنني لم اظفر بطائل ـ كانوا يهزون رؤوسهم بدهشة . . . وكانني اسألهم عن شيء لم يسمعوا به من قبل . وقد لاحظت انني متبوع . ادركت انهم من رجال الفرقة السرية التابعة لجهاز الفرك الاعلى . (كانت رائحة البقدونس في اذني) وعندما عزمت على مغادرة الساحة ، احتك بي احد الأشخاص وقال : الدراجة في دكان البرادعي .

٣ ـ كنت اعرف ، كما ذكرت من قبل ، أنني في احدى قرى دمشق ولكن عندما نظرت الى دكان البرادعي ، ادركت فوراً انه دكان البرادعي « ابو حجاز » الملاصق لدكان والدي في قريتنا القديمة سلمية . وقد كنت اعرف « ابو حجاز » معرفة تامة .. ومع انني كنت انظر له الدكان في أثناء غيابه ، فقد تهيبت دخول الدكان واحجمت كنت انظر له الدكان في اثناء غيابه ، فقد تهيبت دخول الدكان واحجمت لانني خشيت أن يكون الأمر احبولة جديدة للايقاع بي : بعد ان اخفقوا في المرة السابقة خلال الحادث الأول .

٤ ـ قررت الذهاب الى المخفر وتقديم شكوى بخصوص الدراجة المسروقة ، ولكنني وجدته مغلقا ـ اتجهت الى الكراكون الثاني في طرف القرية ، واخبرت رئيسه بالسرقة . ولكنه قال : لاعلاقة لنا بهذا الامر نحن مختصون بشؤون المواطنين الداخلية .

صرخت باستغراب : الست مواطنا ؟ اليست السرقة شانا داخليا؟!

قال : لا ترفع صوتك في وجهي ... وانا لست مسؤولا عنك .

ـ كيف ؟

قال : السرقة شأن داخلي ، ولكنك لست مواطناً .

شعرت بالخوف ـ ولكنني تشجعت وقلت : الم تر الهوية ؟ ماذا قرات فيها ؟

زجرني قائلا : كراكون الساحة هو المختص .

ثم امسك بيدي وسجني بغضب .... وعند الباب الخارجي للمخفر همس في اذني : قضيتك صعبة . مطبوع على هويتك بالحبر السري، **خاتم البوليس الاتحادي في المانيا الغربية .**

(تذكرت : عندما قدمت له هويتي ، اخرج **نظارة صغراء** من الدرج وقرأ الهوية)

عدت مرة ثانية الى الساحة قرب دكان اللحام ، فوجدت الكراكون مفتوحاً . ولكنني قررت عدم الدخول ، لانني علمت خلال السؤال عنه ان رئيسه من اصل الماني ، وانه يشتغل بالوقت نفسه سماناً بقصد التمويه ــ كانوا يشيرون الى الدكان ... قائلين بلهجة غامضة : **دكان الألماني** .

كان الدكان مركزاً غير مباشر لجمع المعلومات عن الاشخاص المطلوبين للسلطة في المانيا الغربية ، وفي مدينة كولونيا بالذات ــ وقد ذكرني دكان رئيس الكراكون بمقهى النوفرة في دمشق ... وكنت امر به وانا في طريقي الى حمام السلسلة .

(ارجح ان الدكان يقع في ساحة الدهلة في الكويت ، وليس في قرى دمشق)

٥ ــ اقترب مني احد الاشخاص وطلب اشعال سيكارة (كان نفس الشخص الذي احتك بي سابقاً) .

وقال لي خلال ذلك : سارق الدراجة قادم للانتقام منك

اسرعت الى دكان اللحام واخذت سيفاً كان معلقاً على الواجهة ، ولكن تبين لي انه مصنوع من البطاطا المقلية والشوكولاته والبيض المسلوق .

٦ ــ وحتى ابعد الشبهات التي اخذت تحيط بي ، قررت الذهاب الى المتنزه الواقع في اطراف القرية . فقد سمعت بشهرته ورايت الناس يذهبون اليه . كان المتنزه مبنيا في اعالي سلسلة من الجبال ، ويمتد بالوقت نفسه على طولها . (كانها جبال الايفل في المانيا الغربية)

صعدت الجبل حتى وصلت الى المدخل الوحيد للمنتزه ، وهو فتحة مربعة مغطاة بشبكة حديدية يحرسها رجال الدرك . وبعد ان يتثبتوا من هوية الزائر ، يرفعون الغطاء ثم يغلقونه بعد مروره . وسمح لي رجال الدرك بالمرور فوراً دون السؤال عن هويتي . لكنهم اخذوا يفتشون امتعتي . وكان سؤالهم الوحيد : **معك كبه نيه طريه ؟**

ولم يتركوا لي اي فرصة للجواب : سألوني فقط ... واستداروا الى الزوار الاخرين . من الواضح تماماً انهم لا يريدون الجواب !! وقد اثار شكوكي وخوفني هذا الامر ، لان اسمي كان مطبوعاً ، وباللون الاصفر ، على كل قطعة من المتاع . عدا ذلك ، فان الدركي الذي اعترضني في سلمية اثناء الحادث الاول ، كان بين الحراس — وبما انني لم اجد حلا لهذا اللغز ، فقد اخذت اضعف نقطة في الموضوع وقلت لنفسي : **محمد ... انت في حلم .**

حملت امتعتي ومشيت ــ

تجولت طويلا في المنتزه .. .ولكنني لم اجد ما يفسر هذه الشهرة الواسعة التي يتحدث بها الناس ، اللهم الا اذا كان السقف هو المقصود . كان من الحرير البنفسجي ، توشيه خيوط صفراء . وكان شفافاً مليئاً بالثقوب ، ويمتد على المساحة الكاملة فوق سلسلة الجبال .

تسلقت احد الاعمدة ، حتى وصلت الى السطح الخارجي للسقف ، وهناك جلست ــ ومن خلال الثقوب .. كنت اسمع اصوات الناس بكل وضوح .

٧ ــ تذكرت ان سيارتي موجودة في نهاية الشارع .. حيث كنت قد تركتها منذ زمن طويل (لايوجد عندي سيارة ، ولا اعلم كيف جاءت الى هذا المكان : فقد تذكرت ، وبطريقة غامضة ، ان سيارتي في نهاية الشارع ... اي الشارع الممتد على طول السلسلة الجبلية)

قررت احضار السيارة والذهاب الى احدى القرى المجاورة للبحث عن كبه نيه . ولكنني عدلت عن ذلك ، بعد ان اخبرني السكان بانني لن اصل قبل منتصف الليل ، وأن الطريق الى القرية غير صالح للسيارات . يضاف الى ذلك ، ان استخدام السيارة يخضع لموافقة رئيس الحرس .

٨ ـ استأجرت دراجة من احد سكان الجبال واتجهت صوب القرية . وفي طريقي وجدلا طفلا رضيعاً على الأرض . وضعت الطفل في كيس ، وحزمت الكيس على مؤخرة الدراجة ـ وعند مشارف القرية توجهت الى اقرب بيت وأعطيتهم الكيس . ولكنهم رفضوا استلامه قائلين : هذا ليس لنا .... هذا ليس لنا . ولا نعرف أي شيء عن الكيس .

اخبرتهم بوجود طفل رضيع في الكيس ، وقلت لهم بانني غريب .. ومن المحتمل ان يموت الطفل من الجوع ـ وبعد ان تشاور افراد العائلة في الأمر ، وافقوا على استلامه . وعندما فتحنا الكيس ، لم يكن للطفل اي وجود .

(سمعنا الرصاص من الشارع المجاور ... فصاح افراد العائلة : أهرب قبل ان يصلوا ـ وتناولوا الكيس ، ووضعوه في علبة من الكبريت)

٩ ـ يتناقل سكان الجبال ، بخوف ، القصة التالية :

« منذ سنتين جاء صياد غريب الى المتنزه ، واستأجر حصاناً لزيارة القرية . ولكن الحصان جمح به وهبط الى قعر الوادي .. ولم يرجع الصياد منذ ذلك اليوم »

وعندما سمع سكان الجبال بقصة الرضيع ، اخذوا يبتعدون عني بذعر . وصاروا يتهامسون ، كلما رأوني : **الطفل الرضيع هو الصياد .** الطفل الرضيع هو الصياد .

١٠ ـ عندما وصلت الى القرية ، لم اجد « كبه نيه » في المحلات التي تبيعها ـ وقد اقترح علي اللحام الذي سألته (وكان يشبه اللحام السابق ولكنه ليس هو بالذات) اقول : اقترح علي ان يعمل لي صفيحة بدلا من الكبه النيه ـ (الصفيحة ، يسمونها في سلمية : لحم بعجين) وجدت الاقتراح مقبولا ، لأنه خير من الرجوع فارغ اليدين .

قال لي اللحام : لا يوجد عندي صنوبر . ابحث في الدكاكين .

اخذت انتقل من دكان لدكان . ولكن الغريب في الأمر ، انني كنت أسأل عن جوز بدلا من صنوبر . وحتى الآن لا اعرف كيف تم هذا التبديل ـ المهم ، انني كلما سألت دكانا اجاب بالنفي . وكان الجواب واحداً : لا يوجد عندنا جوز . . . لا يوجد عندنا جوز ـ كانوا ينظرون الي وكانني احد رجال الدرك الذين يبحثون عن مخدرات ، او يسألون عن عصابة خطف البنات .

وعندما وصلت الى آخر القرية ، اسندت الدراجة الى الحائط وتناولت سيكارة .

كنت : كما قلت ، في احدى قرى دمشق ، ولكنه تبين لي بعد ان اسندت الدراجة ، انها قريتي القديمة سلمية ـ لم اشعر بالاستغراب هذه المرة ، لانني كنت اعرف انني في الحلم . . . ومن الممكن ان يحصل هذا الانتقال بسهولة .

كنت امد يدي الى جيبي لأخرج القداحة . . . عندمارايتابيامامي: كان يلبس قنبازاً باليا ، اما الجاكيت فلم تكن معروفة من كثرة الترقيع لم استطع ان اميز ماذا كانت جاكيت فعلية أم انها مجموعة من الخرق صُنعت على هيئة جاكيت . وعندما رأيته يمد يده ؛ ظننت انه رآني ويريد أن يسلم علي ـ تناولت يده لأقبلها . . . ولكنني فوجئت به يقول: **حسنة لله • حسنة للعاجز الضرير ـ** شعرت ان سكينا تخترق احشائي الى القلب .

صرخت وانا ابكي : انا محمد يا ابي ... انا محمد .

اجابني معاتبا : لماذا لم تحضر جنازتي ؟ اين كنت ؟

سألته بدهشة : جنازة !! لم اسمع بذلك . كنت في المانيا يا ابي . ولكن لماذا تتسول ؟ ارجع الى البيت .

قال : ليس لي بيت في سلمية . راح البيت يا محمد .

سألته : كيف راح ؟

قال : اكله الجراد .

ـ الجراد لا ياكل البيوت يا ابي .

قال : هذا جراد من نوع جديد . جراد في هيئة انسانية .

ـ عجيب يا ابي !! جراد في صورة انسان ؟

قال : اتركها على الله .

قلت : تركتها على الله . ولكن كيف مت يا ابي ؟

قال : مت وانا شحاذ . مت وانا اشتهي سحبة واحدة من السيكارة

بحثت طويلا عن القداحة لاشعل السيكارة ... فلم اجدها ـ امسكت مفتاح البيت الذي استأجرته في الجبال ، وحككته على حذائي كما يحدث في الأفلام ... ولكنه احترق الى آخره قبل ان اتمكن من اشعال السيكارة ـ

تساءلت : كيف استطيع ان اشعل سيكارة لابي ؟ واين اتركه وليس له بيت ؟

* * *

١١ ـ كان علي ان اعود الى دمشق . لذلك اخذت طريقي الى السوق لابحث عن مروان الاحمدي أو خالد العيتاني للعناية بوالدي خلال غيابي . ولكنه أصر على العودة الى المقبرة قائلا : لا يا محمد .. لا اريد ان اعيش عند الناس . صار القبر افضل .

وعند وصولي الى بيت الخباز (وكنت أمشي بجانب الحائط) رايت طائرة قادمة من السوق ـ كانت تواجهني تماماً على ارتفاع منخفض . ضحكت عليها كثيراً لانها كانت مقصوصة الذنب . وعندما صارت الطائرة فوق راسي ، بهرني لمعان الرصاص الذي ينطلق منها ... دون ان يصيبني اي شيء ثم جاءت طائرات اخرى واخذت تلقي منشورات على الناس ـ تناولت منشوراً وقرات :

محمد حيدر . خريج الفلسفة عام ٦٢ ـ مطلوب فوراً .

ركبت الدراجة وهربت باتجاه القرية التي جئت منها اعني القرية في منطقة دمشق حيث كنت ابحث عن الشهد ـ كنت اعتقد انني اسير في الاتجاه الصحيح . ولكنني فوجئت كل المفاجاة عندما وجدت نفسي في الكويت ... امام مدرسة البنات ـ

كانت الطالبة التي أوصتني بالشهد ، تنتظرني هناك .

كيف اراها خاوي اليدين !

« وشعرت ان احزان الدنيا رماح على رئتي »

كانت الطالبة تبتسم ... وهي تومىء الى شريط من الحرير الاصفر ـ كان الشريط على فمها ، وكان عليه **باللغة الالمانية** ، وباللون البنفسجي : **« قُرْصُ من الشَّهْد »**

اخذتها من فمها ... وكان النعاس في عينيها وعيني ـ

- ٥ -

جلسة التحقيق الأولى

كان بجانبي ساعة استيقظت ـ على كرسي مبطن بالجلد ؛ وقد ارخى ذراعيه على المسندين . لعله كان يفكر في شيء ... أو مجرد ذهول ، وكان رماد سيكارته هو الذي اوحى لي بالذهول .

رمى بسيكارته القديمة على الارض ـ اشعل سيكارة جديدة وابتسم بطمأنينة ، ثم حياني بايماءة . لكنني ظللت انظر اليه بجمود .

كانت الاضبارات ما تزال متناثرة على الارض ، **اما الاضبارة الصفراء** فكانت على طاولة صغيرة لم ارها من قبل ـ تناولها واخذ يقرا اجابتي عن الاسئلة :

الاسم : (لا شيء)
العمر : (لا شيء)
المهنة : (لا شيء)

اذا كانوا يقصدون الجانب القانوني ، فلا معنى لهذه الاسئلة والاسئلة الاخرى : انهم يعرفون الجواب عنها معرفة تامة ـ واذا كانوا يعتبرونها اختبارات نفسية فهذا غباء : اي طالب يدرس علم النفس ، يعرف ان المقصود منها اكتشاف الميول الكامنة . اما اذا كانوا يعتبرونها اختباراً فلسفياً لمعرفة المدرسة التي انتمي اليها ، فهذا هو الغباء الحقيقي . فالاسم والعمر والمهنة والهوايات والممتلكات ، لاتدخل ابداً في تكوين الشخصية . وباستثناء دورها في التعامل اليومي ، فليس لها اي مردود .

رفع رأسه عن الاضبارة وقال : تعليق ذكي .

ـ كلا تعليق سخيف .

ـ لماذا سخيف ؟

ـ اقلع عن هذا الاسلوب الرقيع في المديح والنفاق . اتظنه بالنسبة لي عقب آخيل ؟

قال بشيء من العبوس : تخاطبني وكانني المتهم !!

ـ لقد حذرتك منذ لحظة ... اترك هذا الاسلوب الرخيص في التحقيق : انت تعرف من انا ، وانا اعرف من انت . وكلانا يعرف اننا لسنا في الكراكون مع الكابتن .
قال : ماذا تفعل لو كنت مكاني ؟

ـ لا افعل اي شيء . اجلس امام المتهم وانتظر .

ـ ما الفائدة من الانتظار ؟

ـ الثمرة الناضجة تسقط تلقائيا .

قال : جوابك سخيف . اريد جوابا آخر .

قلت : لو انتظر القاتل لمات القتيل .

قال : لماذا لم تجبني ؟

قلت : كنت استعمل طريقتك في التحقيق .

قال : اريد الجواب ـ ما هي الحكمة من الانتظار ؟

قلت : **عندما يتصدع الجسد ، يستسلم العقل** ـ هذا هو المبدأ ... ولكنه لا ينطبق علي .

اعتدل في جلسته وسألني بصلابة : ولكنني مضطر الى انهاء التحقيق
قلت : هذا شأنك .

قال : حديثك عن الشخصية ، موجز وغامض . ما هو رأيك الصريح؟

ــ مكوّنات الشخصية ثلاثة : الفكر الالهي ، والوراثة ، والحرية .

تبدل وجهه وسألني بشيء من الخوف : ألم نر بعضنا من قبل ؟

« كنت أعرف قصده ... ولكنني احتفظت بريبتي في الداخل » .

قلت : لا أظن . ولكنني رأيت أكثر من محقق ، وربما تكون واحداً منهم .

قال ، وقد أصابه الارتعاش : رأيتهم في أحلام النوم ؟

ــ لا ... كنت في اليقظة .

قال : اذن نحن من مدرسة واحدة .

قلت : جائز ... ولكن الدور مختلف بالتأكيد . وأنا لا أنتمي الى أي مدرســـة .

ابتســم ابتســامة فاترة ، كأنها خيبة أمل ، وتابع القراءة .

تاريخ الحيـاة :

١ ــ لا أشتغل بالســياسة .

٢ ــ لا أنتمي الى أحزاب .

٣ ــ خريج الفلسفة عام ٥٤ .

تعليـق

اذا كانوا يقصدون التاريخ الاجتماعي ، فقد أجبت عـن السؤال.. لماذا التكرار ؟! أما تاريخ الحياة الشخصي ، فلا جواب عنه .

سألني : لـماذا ؟

ــ الحياة الشخصية مرتبطة بالرغبة ، والرغبة سر مقدس لا يجوز الكشف عنه .

ـ سر مقدس ام أنها متبدلة ؟

« وكان في صوته شيء من التهديد »

اجبته بحزم : عند الآخرين ... نعم ـ عندي .... لا ـ **فالرغبة ابدية ، ولا توجد الا رغبة واحدة** . اما الرغبات الاخرى : فهي سلوك يومي بقصد التلاؤم .

لم يقل شيئا ـ وتابع القراءة :

اكتب ملاحظاتك على الدروس ...

واتجه الى الاضبارات ليرى ماذا كتبت ـ تناول احدى الاضبارات وقلبها . ثم تناول اضبارة ثانية ؛ طريقته في التقليب تدل على انه قرأ كل شيء ـ تركته يقلب ... واغمضت عيني .

كنت بحاجة الى سيكارة . ولكنني خجلت ان اطلب منه ـ لا اعرف كيف قرا افكاري ... فتحت عيني على صوته ـ اشعل لي سيكارة وهو يقول : ملاحظاتك تتميز بالشراسة والوقاحة .

وشرع يقرأ ملاحظاتي على الدروس ـ

١ ـ **المنطق المادي** : كل الناس يحبون المال ، ولا حاجة للمنطق .

٢ ـ **الف باء الماركسية** : الالف والباء على الرأس والعين ... ولكن اين بقية الحروف ؟

٣ ـ **الثورة العالمية** : جنسية أم تشريعية ؟

لا جنسية ولا تشريعية ... **بل لغوية**

(لا اعرف لماذا ضحك حتى وقع على يديه)

٤ ـ راس المال :

آ ـ كتب ماركس « راس المال » ... فجاء الماركسيون واضافوا اليه جذعا وكثيرا من الاطراف .

ب ـ المال له راس واحد ، هو : البخل .

ملاحظــة :

الجمع بين القضايا السياسية والقضايا النفسية في اختبار واحد ، حيلة رخيصـة .

سالني بلهجة طبيعية : لماذا حيلة رخيصـة ؟

ـ لانكم تعرفون انه لا رابط بين السياسة والجنس .

ـ ما هو الهدف من وضعها اذن ؟

ـ عندما يشغل المتهم بقضايا فرعية خلال التحقيق ، فانه يقـع في التشتت العقلي ... وبذلك تشتبه الامور عليه ويضيع .

ـ لهذا اتقيت الاجابة ؟

ـ لا تكن غبيا . اختصرت فيها شفقة عليك .

اصابته الرعدة وهو يقول : شفقة عليّ ؟!

ـ اريد لك النجاح في مهمتك .

« هذا جسده ... تخلى عن الارتعاد »

وتابع القراءة :

٥ ـ **التفسير الاقتصادي للفتوحات العربية** : لا علاقة للاغذية بهذا الموضوع .

٦ ـ **الشيخ والمريد كطريقة تربوية** : هذا السؤال احبولة ـ **لاجواب**

٧ ـ **أثر الحمامات العامة المختلطة في المذاهب الفلسفية** : لاسباب شخصية ، **لاجواب** .

٨ ـ **تفسير الاحلام** : لقد كان سقراط تعيسا في زواجه ، فحمتل الانسانية كلها هذه التعاسة ... وانتج فلسفته ـ وهكذا رئيس الجوقة **فرويد** : اسقط طفولته الكريهة على الانسانية جمعاء .. وباض التحليل النفسي بالتقسيط ـ فالاحلام ليست تحقيقا للرغبات الجائعة او المكبوتة كما يرى فرويد ، وليست خرقة نمص بها زنخ الجنس : **الاحلام** ، تعبير عن رغبة الانسان في الخروج من نطاق السببية ... تعبير عن كراهية الانسان لمنطق العقل .

٩ ـ **التضاد ، كقانون للشخصية** : وهذه حماقة اخرى من حماقات فرويد ـ فالشخصية لها قانون وحيد : هو الشخصية .

١٠ ـ **التحقيق في ضوء علم النفس** : هذا الدرس لا غبار عليه ، لكنه ينطبق على العامة ، اما الخاصة .. فان ادانتهم الوحيدة تكون من الداخل .

١١ ـ **اللاشعور والانا الاعلى** : حتى الآن لم تتضح العلاقة بين الطرفين ، ولا اظن احدا بقادر على ذلك . ولكنني ارى ما يلي :

اولا ـ اذا كان الانا الاعلى كثيف الظل ، فان الشخصية ، ودون اي مبرر ، تظل رازحة تحت شعور من الاثم . واللاشعور هو الذي يحمل العبء ويتكفل باعادة التوازن الى الشخصية ، ولكن على حساب الشخصية بالذات .

ثانيا ـ اذا كانت العلاقة بينهما قائمة على البغضاء ، فلااحد يستطيع ان يتنبأ بالنتائج .

ثالثا ــ اللاشعور يمثل التكوين البدائي للشخصية ، اما الأنا الأعلى فهو تجسيد للمطلق . ولكن الاثنين يتصفان بصفة واحدة ، هي : **عدم الخضوع لمنطق السببية ــ**

توقف عن القراءة . . .

ازاح الاضبارات المتراكمة ، وتناول اضبارة لم تكن موجودة من قبل ــ وعندما رآني انظر اليها بفضول ، وضعها بجانبي على السرير . .

قرات العنوان ، وكان مكتوبا **باللون الاصفر** : **((شخصي جدا محمد حيــدر))**

سألته : لمن هذه الاضبارة ؟

قال : لي . اضمها في اوراقي الخاصة . اقصد اوراقي غير الرسمية

(**وفي الداخل** ، قال لي **الشخص الاخر** : محمد . كن منه على حذر)

قال ، وكانه يعرف داخلي : احتفظ بهذه الاضبارة **للمؤسسة** .

اجبته بدون اكتراث : ولكن اضبارتي الرسمية **صفراء** ايضا !!

قال : نستعمل هذا اللون للحالات النادرة الخاصة .

وضحكت في وجهه بوقاحة . . .

وسّع عينيه وكلّ اعضاء الوجه : لماذا تضحك ؟!

قلت : تستعملون اللون الاصفر لانكم تعرفون انني احبه . لهــذا اضحك ــ ولكنني اريد ان اسألك : بأي دليل تعتبر حالتي نادرة ؟

قال : لا تزال تصرّ على انك خريج الفلسفة عام ٥٤ .

قلت :

اولا ــ انا لا اصرّ على شيء .

ثانيا ــ هذه حياتي . . . ارتبها كما اشاء .

ثالثا ــ ربما أكون خريج عام ٥٤ .

قال : هذه نقطة جديدة .

قلت : لا يوجد شيء جديد .

انحنى عليّ وكأنه يخشى ان يسمعه احد وقال : ان المجلس الاعلى للامراض النفسية معجب بك ، وقد كلفني أن اسلمك هذه الهدية ...

وناولني كيسا من الورق ملفوفا بعناية ، وكان فيه :

شوكولاته وبطاطا مقلية وبيض مسلوق ـ

تذكرت انني جائع ...

تركته يبحث في الاضبارة وانصرفت الى الاكل ـ

بدات بالشوكولاته ... حتى اذا وصلت الى البطاطا المقلية والبيض المسلوق ؛ توقفت ـ

قال لي ؛ دون ان يرفع وجهه او يقطع البحث : انا لا اخاف من العطاس . الملح والفلفل في الكيس الصغير .

رفعت يدي عن الاكل ، ونظرت اليه باستغراب ابله ...

قال : نحن لسنا في الكراكون . نحن نهتم بدراسة السلوك .

سألته : من اي مدرسة انت ؟

قال : من مدرسة التحليل النفسي .

قلت : لكي تفهم الانسان ، يجب أن تدرس الفلسفة .

ظهر الخجل عليه ـ

قلت له : لا تخجل . لقد نجحت حيث اخفق الاخرون .

قال ، وكأنه يخاطب نفسه : لقد اخفقت في كل شيء ـ وعندما ينشغل المحقق بأمور دخيلة ، فانه لن يصل اطلاقا الى الهدف . **لقد وقعت في الفخ .**

جلسة التحقيق الثانية

قال : تهذي في نومك وتكرر دائماً كلمة « الكابتن » ... الكابتن — لقد سجل جهاز المراقبة ثلاثة من الكوابيس حتى الآن .

قلت : لقد سألتني عن كل شيء . ألم يخطر لك ان تسألني عن هذا العض في اذني ؟ الا تعرف من هو الكابتن ؟ انظر ... هذا هو الكابتن لقد اكل قطعة من اذني .

(الحقيقة انها كانت عضة صغيرة في الأذن)

ظهر الغضب عليه واختل هدوءه لأول مرة —

قال : هل تعتقد انني امرتهم بذلك ؟!

— لا هذا ليس من عملك . والأذكياء مثلك .. يتعاملون بالمنطق ويفتشون عن الدوافع . ولكنني اظن انهم يأخذون رأيك في كل امر .

قال بوحشية ارعبتني : لا اعرف شيئاً عن الموضوع . لا اعرف شيئاً عن الموضوع .

وضغط الزر الذي يستعمله المرضى : فدخل فوراً احد مساعديه — قال له بصوت شرس آمر :

اذهب حالا واعتقل كابتن الكراكون .

(اردت ان اقول له بأن الكابتن قد مات — ولكنني آثرت السكوت ، وقلت لنفسي : محمد ... من المحتمل ان الكابتن مات في الحلم)

اخرج محفظته الجلدية من جيبه الداخلي ، وسحب منها بطاقة وكتب امر الاعتقال بصوت مسموع — ثم وضع البطاقة تحت عيني ..

كان الشعار : **دائرة العلاج النفسي : المفوض العام** —

تراخى على كرسيه المبطن بالجلد ... وكأنه شاخ فجأة مئة عام ـ شعرت بالشفقة عليه . قلت له : آسف . ظننتك تعلم .

اجابني بصوت محطم : هــذا اقسى موقف واجهته في حياتي . اخشى ان تظن بأنك موقوف . لقد وضعتك في هذا المصح لتكون تحت اشرافي الخاص ـ انت « حالة » فريدة من نسيان الذاكرة . تتذكر كل شيء بدقة . تتذكر انك خريج الفلسفة . تتذكر احداث هذه السنوات بكل تفاصيلها ، ولكنك تستبدل فترة بفترة وسنة بسنة واشخاصا بأشخاص : لا تزال تصر على انك خريج الفلسفة عام ٥٤ ، لا تزال تستبدل سلمية بالمانيا ... والمانيا بالكويت ـ

توقف فترة ثم قال : يمكنك أن تغادر المصح الآن اذا اردت .

اخذت منه سيكارة ـ اشعلتها واستلقيت على الفراش ...

فكرت قليلا ثم قلت : سابقى .

ترك كل شيء كما هو عليــه ـ الاضبارة الصفراء على الكرسي ؛ والاضبارات الاخرى متناثرة : بعضها على ارض الغرفة ، بعضها على السرير ، بعضها الآخر على الطاولة الصغيرة .

كان رئيس دائرة العلاج النفسي في طريقه الى الباب ...

سمعته يقول لنفسه : **عندما يقتنع ينهار** .

وقبل ان يغادر الغرفة ، تلفت نحوي وودعني بإيماءة ...

تساءلت وانا في غاية الحيرة : هل هو ريشار بازهارت ام غريغوري بيك ؟

(كان شبح بيتر فالك في دور كولومبو ... هو الغالب على الاثنين) .

فجأة ، ولا أعلم ما اذا كنت مستيقظا أم انني ما ازال في الحلم ... رأيت كل الاضبارات والتقارير تحترق : كانت تتحول تدريجيا الى بسكويت ، وبطاطا مقلية ، وبيض مسلوق .

* * *

حوار خاص ـ معزول عن التحقيق .

قال لي ...

« اريد ان اسألك سؤالا خاصا . هذا السؤال لن يدخل في شريط التحقيق » .

واقفل آلة التسجيل ـ

قال ...

« لقد حيرت الجهاز بكامله ـ **لم نستطع ان نعثر على دليل يتعلق بحادثة الفتاة في الحارة الشرقية** ، او دليل يتعلق بحادثة الطالبة في الكويت ـ لماذا ؟ »

قلت ...

« لن يدخل الجواب في شريط التحقيق ... أصدقك ـ ولكن : هل يدخل في اضبارتي التابعة للمؤسسة ؟ »

« لا ... لا » .

« لماذا اذن تسأل ؟ » .

« اريد ان اكتشف نقطة الضعف في تفكيري » .

قلت ...

« تبحثون في غير ميدان ـ هذا هو الخطأ الذي وقعتم فيه من البداية » .

كان حلقه قد جف ...

« كيف ؟ »

« **هناك شخصان باسم محمد حيدر** . محمد حيدر خريج الفلسفة عام ٦٢ ، وهو الذي تبحثون عنه . ومحمد حيدر خريج الفلسفة عام ٥٤ وهو انا ـ واذن : كيف يمكن ان تحصلوا على دليل ضدي وانالست الشخص المطلوب ؟ »

صاح ...

« لماذا لم تقل ؟! »

« وكيف اقول ... ولم يسألني احد عما اذا كان يوجد محمد حيدر آخر !! »

« لماذا تركتنا نعتقلك ؟ »

« لم اجد خسارة في الامر – لي عدة سنين وانا اريد ان استأجر بيتا أسكن فيه – قلت لنفسي : محمد ... جاءت الفرصة . السجن افضل من هذا البحث الملعون » .

ركع امامي ...

« اريد الحقيقة ... اريد الحقيقة – اتوسل اليك » .

« اتمنى ان اكون محمد حيدر ، خريج الفلسفة عام ٦٢ » .

تلوى قليلا ... وسقط على الارض دون وعي –

وقع **الحادث الرابع** في المانيا الغربية –

في قرية صغيرة تابعة لمدينة كولونيا . وكان اسم القرية ينتهي بمقطع : برغ BERG مثل نورنبرغ ، آنسبرغ ، بنسبرغ ، كودسبرغ – وقد حاولت فيما بعد ، ولاسباب شخصية ، ان اتذكر اسم القرية ، ولكنني اخفقت .

والغريب في الامر ، ان سكان القرية ، وهم من الالمان بالطبع ، كانوا يتكلمون اللغة العربية . ولكنني لم اتوقف كثيرا عند هذه النقطة ، فقد كنت اعلم انني في الحلم . الامر الوحيد الذي لم استطع تفسيره (حتى لو كنت في الحلم) هو انني طبيب ولي عيادة في كولونيا .

وقد وقع الحادث على النحو التالي :

كان من عادتي ان اذهب الى القرية المذكورة في كل عام ، حيث اقضي ثلاثة اشهر ... وتكون عادة في فصل الصيف – كنت املك « فيلا » وارضا زراعية امارس بعض الهوايات ، مثل تربية الغزلان والديوك **وكلاب الصيد** . وكانت هذه الكلاب من نوع نادر جدا ، ولا تستخدم الا في صيد الاسماك في الخليج .

أما السكان ... فقد كانت معرفتي بهم عميقة الجذور . ولهذا فقد خصصت غرفة من الفيلا للعلاج . وذلك من الصباح حتى الظهر . وكان العلاج دون مقابل .

وفي احد الايام جاءني قائد الدرك ومعه فتاة بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة على التقريب ، وذلك لمعالجتها من جروح في ظهرها ووجها وفخذيها – وباستثناء احدها ، وهو عميق ، فان الجروح الاخرى لم تكن بالغة الخطر .

وكان اسم الفتاة **ميريام** –

والموضوع ، كما اخبرني قائد الدرك ، هو كالتالي : كانت ميريام تعمل في حقلها عندما مر احد رجال الدرك من الخيالة ، وكان في جولة تفقدية –

(في المانيا الغربية يسمون هذه الجولة : دورية الحقول) .

وقد عرج الدركي على الحقل لسؤال ميريام عن احد لصوص الحقول . وعندما علم الدركي أن ميريام وحدها ، تظاهر بالعطش ... وبذلك قادها الى الكوخ . وهناك حاول الاعتداء عليها . ولكن ميريام قاومته ، وبذلك استطاعت الافلات منه بعد ان اصيبت بجراح .

عندما جاءت ميريام الى العيادة ، كانت مرعوبة جدا بتأثير الصدمة النفسية ، لدرجة أنها لم تسمح لي بالاقتراب منها . ونظر اليّ قائد الدرك ... فأومأت له دون ان ترانا ميريام .

ذهبت الى البراد واحضرت كأسين من الشراب – تناول قائد الدرك الكأس التي اشرت اليها ، وقدم الثانية الى ميريام – وبعد قليل نامت بتأثير المخدر الذي كان في الكأس .

حملتها بمعاونة قائد الدرك الى غرفة العلاج – كنت خلال ذلك أقول لنفسي : الدركي معذور – كانت ميريام جذابة الى درجة تدفع المرء للبكاء . ولئلا يظهر اي شيء على وجهي ، فقد تظاهرت بالغضب وطلبت من قائد الدرك تسريح الدركي فورا واحالته الى القضاء .

ودعني قائد الدرك وراح ـ

بدأت اقص ملابس ميريام ... ثم شرعت في العلاج ـ وقد لاحظت، وهذا يحدث معي لاول مرة ، انني مضطرب الاعصاب : كـانت رغبات عنيفة غير مألوفة تستيقظ في نفسي ...

(ليس من اللائق أن يفعل الطبيب ذلك ، ولكن يجب ان اعترف بأنني قبّلت ميريام) .

تناولت جرعة من مهدىء قوي ... ثم تابعت العلاج .

وبعد ان استيقظت ميريام ... أخذتها الى الاريكة : كنت اقوم بعملي كطبيب كامل ـ اعني ان هيئة الطبيب كانت واضحة على وجهي .

ذهبت الى المطبخ واحضرت كأسا من الشاي ـ قلت لها بابتسامة هزيلة : هذا الشاي طبيعي يا ميريام ـ

ابتسمت بدورها ... واخذت تشرب الشاي .

وصارت ميريام تتردد على العيادة لتغيير الضماد والكشف على الجروح : كانت في البداية تجفل كلما اقتربت منها . ثم صارت طبيعية بعد عدة ضمادات . ولكنهـا لم تتخلص من الخجل وهي تتعرى من ثيابها ... وانا اضغط على ظهرها وبطنها وفخذيها .

وهنا يجب ان اعترف بأنني بالغت في تصوير خطر الجروح ؛ وذلك لاطالة مدة العلاج ـ وفي كل مرة ، كان عليّ ان اتناول الحبوب المهدئة... لئلا تنكشف الرغبات التي كانت تميل الى الظهور .

وكان حديثنا في اثناء تغيير الضماد (وهذا امر طبيعي) يدور حول الدركي ، وكيف جرى الامر ـ يجب أن أكون صادقا ، فاقول : كنت دائما أقود الحديث في هذا الاتجاه .

تمنعت ميريام في البداية وهي خجلى : كانت التفاصيل قليلة جدا . وكانت تروي الحـادثة بصورة متقطعـة مبهمة ... وتنهيها بأسرع ما تستطيع . لكنها يوما بعد يوم (وكانت الالفة تنمو بيننا اعمق من طبيب ومريض) صارت تتحدث بوضوح . اعني ، بالتفاصيل الدقيقة وبالحركات .

لم اكن « بريء النية » ... ولكنني لم اقترح ابدا على ميريام اعادة تمثيل الجريمة . جاء الموضوع طبيعيا ... وهذا بديهي الى ابعد الحدود .

كنت اقول لها : من الاول يا ميريام ـ نزل الدركي عن الحصان ... صار يسالك عن احد اللصوص ... وبعد ذلك ماذا حصل يا ميريام ؟

وتبدا ميريام بالكلام ... ويحمر وجهها من الخجل ... فأستحثها على المتابعة واقول : وبعد سؤاله عن اللص ... تظاهر بانه عطشان . وصلتما الى الكوخ .

وتتابع ميريام الحديث : ذهبت لاجلب لـه الماء من الغرفـة ، فتبعني ...

وتتوقف ميريام /

وبعد ان تبعك يا ميريام ؟

امسكني من الخلف .

كيف يا ميريام ؟

وهكذا وجدت نفسي ، في ضوء العيادة الهزيل ، اقوم تدريجيـا بتمثيل دور الدركي : اما تلقائيا ، او بإيحـاء مني ، أو بنـاء على رغبة ميريام .

(تخليت عن الحبوب المهدئة في هذه المرحلة) .

كنا نتحدث في غرفة العلاج . ولكن مجيء بعض المرضى بعد اوقات الدوام ، كان يقطع الحديث . وهذا ما جعلنا نقفل العيادة ، وننتقل بصورة عفوية الى غرفة النوم ـ لا استطيع القول بانها اقترحت هـذا الانتقال ... ولا استطيع القول بانني اقترحت هذا الانتقال : في حالات كهذه ، لا توجد بدايات واضحـة . تنمو الرغبات بصورة متوازيـة وتشتعل بآن واحد .

(ان حادثة احتضان الفتاة في الحارة الشرقية ، تجعلني دائما تحت الشعور بالذنب . لذلك اميل ، بصورة لاشعورية ، الى ادانة نفسي ـ وبناء على ذلك ، فإنني أقول بكل حزم : حاولت اكثر من مرة ، وبجهد صادق ، ان اتخلص من ميريام وأعود الى كولونيا . ولكنني فشلت : كنت اتعرض الى اغراء ساحق من جسد ميريام ـ

وبسبب هذا الوسواس الاخلاقي ، فإنني **اتخيل احيانا ما ليس بموجود** ... او اضخم اشياء ليست بذي بال ـ كمثال واقعي على هذا الامر ، ما حدث بيني وبين ميريام :

١ ـ لم اكن دركيا في يوم من الايام . ولكنني ، منذ سماعي بقصتها مع الدركي ، صرت اعتقد انني دركي ـ وقد بلغ بي الامر ، انني صرت اعتقد اعتقادا جازما بانني انا الدركي الذي حاول اغتصاب ميريام .

٢ ـ تخيلت أيضا انه سبق لي ان رأيت ميريام في كولونيا ... وفي مسبح « اغريناباد » بالذات ـ ولكنها نفت هذا الامر ... وقالت بأنها لم تذهب الى كولونيا على الاطلاق .

٣ ـ صرت اخلط بينها وبين الطالبة الكويتية التي اوصتني بأن اجلب لها الشهد من دمشق ـ حتى انني سألتها عما اذا كانت تحب الشهد ... او ما اذا كانت من طالباتي في الكويت . وكانت تعتبر سؤالي نوعا من الملاعبة والمزاح) .

* * *

في اول مرة امسكت ميريام (كما فعل الدركي) صرخت مرعوبة ـ لكنها ما لبثت ان اعتذرت : الحتّ عليّ حتى قبلت تمثيل الدور من جديد .

كنا نبدأ التمثيل في نهاية الغرفة قرب الجدار . تماما كالذي حصل في الكوخ : تنحني ميريام على الماء ... ثم الف ذراعي حول خصرها ونأخذ في العراك ـ وعندما نتعب ... نرتمي حيث نحن على الارض . ثم تعودنا بعد ذلك ان نتجه الى السرير : كنت اضع وجهي على وجهها ، ونظل طويلا دون كلام ـ وفي احدى المرات (ولا أعلم كيف) قبلت ميريام .

كنت في البداية امثل دورا ، وكنت اجعلها تشعر انه مجرد دور . ولكن رغباتي كانت تاخذ طريقها الى الظهور ـ صرت اضغط عليها بطريقة مكشوفة ... وكانت تعرف انها رغبة حقيقية وتستعذب ذلك وتطلب التكرار .

في الايام الاخيرة ، وكانت جراحها قد تماثلت للشفاء : كنا نقوم بالدور من بدايته الى نهايته . ولكنني ، في آخر ضماد ، توقفت عن اتمام الدور .

سألتني : تعبت ؟

ـ لا .

اذن ؟

اخاف ان اجرحك يا ميريام .

اجابتني بيقين كامل : اجرحني .

« وانجرحت ميريام » .

* * *

وفي صباح يوم السفر ، استيقظنا مبكرين انا وميريام ـ وضعنا الحقائب في السيارة ـ اعطيت مفاتيح المزرعة والفيلا الى ميريام .

قلت : الى العام القادم يا ميريام .

قالت : انا خائفة .

ـ من أي شيء يا ميريام ؟

قالت : سأتزوج ابن المختار بعد الحصاد .

ـ سأودعك اذن نهائيا يا ميريام .

* * *

كانت القرية هادئة ... وفي الافق علائم موت وشيك : كانت النيران تزحف من كل الجهات ... وتلتهم المزرعة والعبادة والبيت ـ

وكما يحدث في الافلام ــ وجدت نفسي خارج المانيا ، في عربة من العربات التي تجرها الخيول . كنت اعبر بها سلسلة من الجبال الثلجية، وكانت تسير كالريح . وكانت معي الطالبة الكويتية التي اوصتني بأن أجلب لها الشهد ــ

وعلى الرغم من كوني في الحلم ، فقد تساءلت : من اين جاء الثلج... وأنا في الخليج ؟

« أعتقد أنني كنت في اوائل اليقظة واواخر الحلم » .

كانت الطالبة في حالة تشبه النعاس ... وكانت الجراح تغطي وجهها وظهرها وفخذيها ــ

كنت ، وكانت الطالبة ، ملوثين بالدم ...

سألتها : من اين جاء هذا الدم ؟ **هذه ليست دمائي على الاطلاق** .

واستيقظت فجأة من الحلم ... وكانت الخيول تجنح الى جدار مسدود ــ

في صبيحة اليوم التالي جاء الخبير النفسي ــ سحب كرسيا وجلس قرب السرير ــ اخرج محفظته الخاصة وتناول منها بطاقة **صفراء اللون**.

سألني : هل رأيت هذه الصورة من قبل ؟

كانت صورة غزال يقف على قرنيه ديك ــ

« وهي الشعار السري لمؤسسة الدراسات النفسية ، وشارة التعارف بين الاعضاء » .

بدأت بالجملة الاولى من التعارف : رأيتها على اسوار طروادة .

اجاب : في ذلك الوقت ، كان الغزال يقف على عرف الديك .

أعاد البطاقة الى محفظته ــ

قال بصوت طبيعي : ستشنق مع الفجر ــ اريد التقرير .

اعطيته التقرير الذي كتبته للمؤسسة . وكان من نقطة واحدة :

« الحمامات العامة المختلطة سابقة لأوانها » .

* * *

الحادث الاخير :

عند الفجر ، كانت جثة الخبير النفسي تنوس كالراية السوداء على أسوار السجن ــ

★ ★ ★

آفاق المعرفة

بولنا كوف :

والمعلمة مارغريتا

بقلم : سيد وروف
ترجمة : يوسف حلاق

شهريات المعرفة :

١- شعر التجربة
عند نديم محمد

صالح العياري

٢- بحث في المقامة العربية

فيرنر شولتزه
عرض : د. سامي الرباع

بولغاكوف :
والمعلمة مارغريتا

بقلم : سيد وروف
ترجمة : يوسف حلاق

في سلسلة « روايات عالمية » تصدر قريبا عن وزارة الثقافة رواية « المعلمة مارغريتا » للكاتب السوفياتي « بولغاكوف » . هذه الدراسة مقدمة للرواية ، كتبها الناقد السوفياتي المعروف « يفغيني سيدوروف » ، رئيس معهد غوركي للآداب . تنشرها المعرفة لتضعها بين يدي الرواية .

م. ا. بولناكوف

(١٨٩١ — ١٩٤٠)

بدا ميخائيل افاناسيفتش بولغاكوف الطبيب المتخرج حديثا من الجامعة نشاطه الادبي على اعمدة الصحف والمجلات كاتب قصص قصيرة ومقالات انتقادية . وفي نحو الثلاثين من عمره احس الشاب المنحدر من اسرة عمل العديد من افرادها اساتذة في جامعة كييف ان مصيره الادب وليس الطب .

وكان اهتمام بولغاكوف بالمسرح وشغفه به قد ظهرا وهو لم يزل على مقاعد الدراسة . وفي البيت كانت تمثل المشاهد والفواصل التمثيلية المختلفة . ونقرا في ذكريات بعضهم عن الكاتب ما يلي : « حيثما كان ميشا (*) كانت بالضرورة النكتة والضحك والمرح والظرف . كان الجميع يشدهون من سعة اطلاعه ومن معرفته بالادب والموسيقا الخ . كان ميشا معينا لا ينضب في ابتكار القصص . وبالاضافة الى ذلك كان يرتجل قصصا قصيرة تثير مرح الحاضرين وضحكاتهم العالية » .

وانتسب بولغاكوف بعد انهائه الدراسة الثانوية الى كلية الطب في جامعة كييف . إلا ان ميله الى المسرح لم يتغير ، فاستمر كاتبنا يدرس فن التمثيل ويتابع المحاضرات في تاريخ المسرح .

(*) وهو تصغير اسم ميخائيل .

وفي عام ١٩١٦ تخرج بولغاكوف «طبيبا بدرجة امتياز» ، وتوجه للعمل طبيبا ريفيا في مقاطعة سمولنسك النائية . وبوسع الواحد منا أخذ صورة واضحة عن حالة الطب آنذاك وعن الظروف التي عمل فيها طبيبنا الشاب من قراءتنا « لمذكرات طبيب شاب » التي طبعت في عامي ١٩٢٥ ــ ١٩٢٦ . ولا بد اننا سنتذكر لدى قراءة « المذكرات » ما في بعض الصفحات من نثر تشيخوف من دفء الرحمة الخفي وروح الديمقراطية الطبيعية والدعابة العفوية .

الا انه سيبرز أمامنا هنا أيضا ما اتصف به بولغاكوف من نظرة لا ترحم الى الاشياء ومن درامية تقترب من المأساوية . وتتصل قصته « مورفين » بكتابه « مذكرات طبيب شاب » بوشائج كثيرة . إنها قصة تتحدث عن مصير طبيب لم يتحمل رتابة حياة الريف . وفي القصة لمحات واضحة من سيرة الكاتب الذاتية .

قد يقول قائل : او تكون مدن الريف الصغيرة بمثل هذه البشاعة ؟ لكن لو ان احدا مثلي مكث عاما ونصف العام في الثلوج شتاء وفي الغابات المتجهمة الفقيرة صيفا دون ان يبرح مكانه ليوم واحد ، ولو ان احدا مثلي مزق غلاف صحيفة الاسبوع الماضي وقلبه ينبض كما لو انه عاشق سعيد يفض ظرفا ازرق ، ولو أن أحدا مثلي ذهب الى مسافة ثمانية عشر فرسخا على الزحافات الثلجية لتوليد امرأة . فلا بد ان شخصا كهذا سيفهمني » .

وادركت الحرب الاهلية بولغاكوف في مسقط رأسه كييف . لقد انهار نمط الحياة القديم ، وكان على كل واحد ان يختار طريقة لقد رأى بولغاكوف أفول حركة البيض الدموي ، وشهد الاحتلال الالماني لاوكرانيا عام ١٩١٨ ووحشية عصابات بتلورا . كان بولغاكوف ينتمي بكل نمط تربيته الى الفئات الليبرالية الديمقراطية من المثقفين الروس القدامى ، وقرر كالكثير غيره من أبناء طبقته مشاركة شعبه مصيره والمشاركة في بناء الثقافة الجديدة . ولم يكن اختيار هذا الطريق بالامر السهل .

فنظرة بولغاكوف لم تكن تتميز بوضوح المواقف الفكرية ، الا أن النفس العام لأفضل مؤلفاته كان يخدم موضوعيا قضية السمو بالشخصية الانسانية وتجاوز ما فيها من أنانية وأثرة وزيف ورياء ، وبهذا التقى مع المهمة التاريخية لتربية الانسان الجديد تربية اشتراكية .

وفي عام ١٩٢١ انتقل بولغاكوف الى موسكو . ومذاك اضحت هذه المدينة المتعددة الوجوه المعين الذي يغذي ابداعاته الشعرية والهجائية الاصيلة . واخذت مقالات الكاتب الشاب الهجائية واقاصيصه تظهر على صفحات جرائد موسكو ومجلاتها وتطبع في طبعات مستقلة . وكان بولغاكوف الذي يكن شعورا حادا بالكراهية لروح التملك والبيروقراطية وضيق الافق يتأمل بعين الاحتقار البرجوازيين الجدد الذين رفعوا رؤوسهم في فترة السياسة الاقتصادية الجديدة (النيب) . وحظيت اقصوصة بولغاكوف الخيالية الهجائية « البيضات القاتلة » (١٩٢٤) التي يسخر فيها من روح المغامرة لدى بعض المواطنين القياديين المتمسحين بالسلطة السوفييتية والمندسين فيها بتشجيع مكسيم غوركي واستحسانه وحظيت قصصه واقاصيصه المبكرة بنجاح لدى القارىء كما جوبهت بنقد حاد اتهم الكاتب « بسوء النية » و « الامزجة البرجوازية الجديدة » الامر الذي سبب له الكثير من المكاره والغموم .

كان يوم بولغاكوف موزعا بين نهار يكرسه لكسب قوته عملا في الجريدة وليل يكرسه للروح ، حيث كان ينضج نثر بولغاكوف الجاد . وقد عكف بولغاكوف الى جانب كتابته قصته الهجائيتين (« كتابات على اطراف الاكمام » و « نشيد الشيطان ») على وضع روايته الكبيرة الاولى « الحرس الابيض » ما بين عامي ١٩٢٢ و ١٩٢٤ .

وفي هذه السنوات أيضا كتب بولغاكوف اقاصيص عن الحرب الاهلية . واقاصيصه هذه تمثل على وجه العموم فروعا صغيرة من الجذع الروائي الرئيسي . فمن اليسير علينا على سبيل المثال ان نجد

مثل هذه العلاقة بين الفرع والاصل فيما لو قارنا اقصوصته « انا الذي قتلت » بتلك المشاهد من « الحرس الابيض » التي يصف فيها مظالـم عصابات باتلورا في كييف ٭

ولم يكن ميخائيل بولغاكوف ذا موهبة هجائية وحسب ، وانما ذا موهبة غنائية نادرة لعلها أن تكون النغمة الموسيقية الاساسية ، لنثره . الرواية فيما بعد بقلم بولغاكوف نفسه الى مسرحية « أيام آل توربين » ونهاية حركة البيض في اوكرانيا تقرن في اسلوبها ذاته سمات القصيدة الشعرية بسمات الكتابة البسيكولوجية الدقيقة . وقد تحولت هـذه الرواية فيما بعد بقلم بولغاكوف نفسه الى مسرحية « أيام آل توربين » (١٩٢٦) التي اخرجها مسرح موسكو الفني وجلبت لصاحبها شـهرة واسـعة .

ان « الحرس الابيض » و « أيام آل توربين » من الاعمال الاولى في الادب السوفييتي التي صورت الدراما العميقة لممثلي المثقفين الروس الحقيقيين الذين رفضوا الثورة . فالكسي توربين وميشليا يفسكي اللذان وحدا نفسيهما في معسكر البيض يعيشـان مأسـاة روحيـة وانهيار تصوراتهما عن الحياة . ويقابل بولوغاكوف بين هذين البطلين « ذوي الضمير الداخلي » وهاتين « النفسين الضالتين » وبين ضديهمـا ونقيضيهما الاخلاقيين شـرفنسكي وتالبرغ « الوصوليين » اللذين « لا يحملان الله في قلبيهما » . وفي نهاية رواية « الحرس الابيض » تبـرز صورة رمزيـة لانسان يحمل بندقيـة هو حارس القطـار المـدرع « البروليتاري » ، صورة رسمها بانفعالية داخلية صارمة وموضوعية لا تدع مجالا للشك في موقف الكاتب .

وكان لقاء بولغاكوف بمسرح « مخات » باعث الهام له على ابـداع مسرحيات هي اليوم فخر الفن المسرحي السوفييتي . وعلينا هنا ان نذكر في المقام الاول مسرحية « الهروب » (١٩٢٧) التي تكمل موضوع « أيام آل توربين » والتي صور فيها صاحبها بقوة فنية هائلة احتضار

معسكر البيض والمهاجرين . في « احلام » الدراما نصف الخيالية هذه تتداخل خيوط الواقع المأسوي باللا واقع الهزلي ويمتد الهروب المجنون لاولئك الذين خسروا انفسهم وروسيا والوطن . بعض هؤلاء سيعود بعد « صحوة الروح » وبعضهم الاخر سيغرق في العدم .

ولبولغاكوف رواية غير مكتملة هي « الرواية المسرحية » (١٩٣٦ ١٩٣٧) رواية « حياة السيد دي موليير » (١٩٣٢ ــ ١٩٣٣) وبعــود بولغاكوف مرة اخرى الى صورة المؤلف والممثل الهزلي الفرنسي العظيم في مسرحية « موليير » كما يكتب بولغاكوف فيما بعــد مسرحية عــن بوشكين هي « الايام الاخيرة » (١٩٣٥) يتطرق فيها من جديد لموضوع الفنان والمجتمع .

وجسد بولغاكوف موضوعه هذا أعمق تجسيد في كتابــه الاساسي رواية « المعلم ومرغريتا » التي عكف على كتابتها ما يقارب اثنى عشر عاما لكن الرواية ظلت قابعة في ارشيف الكاتب ولم تنشر للمرة الاولى الا في عامي ١٩٦٦ و ١٩٦٧ في مجلة « موسكفا » .

تسود هذا الكتاب حرية الخيال المبدع الموفقة وصرامة الفكــرة التركيبية والمعمارية . فهناك الشيطان يقيم حفلته الراقصة الكبرى بينما المعلم الملهم ، معاصر بولغاكوف ، يكتب في الوقت نفسه روايته الخالدة وهناك حاكم اليهودية يسوق المسيح الى الموت ، بينما مواطنون ارضيون بكل معنى الكلمة ممن يعمر بهم شارعا سادوفايا و برونايا في العقدين الثاني والثالث من قرننا يسعون ويتملقون وينتهزون ويخونون. الضحك والحزن ، الفرح والألم يمتزجان في واحد كما في الحياة ، وانما في تلك الدرجة العالية من التركيز التي لا تبلغها الا الحكاية الخرافية والقصيدة . ورواية « المعلم ومرغريتا » هي الى ذلك قصيدة غنائيــة فلسفية نثرية عن الحب والواجب الاخلاقي وعن لا انسانية الشر وعن الابداع الحقيقي الذي هو دائما تجاوز لما هو غير انساني ، وهو دائما نزوع الى النور والخير .

تكونت فكرة الكتاب شيئاً فشيئاً ونمت الرواية متغلغلة بجذورها في طبقات جديدة فجديدة من تربة ابداع بولغاكوف الفكري والصوري « وصية المعلم » وهكذا سمى الناقد إفينوغرادوف مقالته في الرواية . وبولغاكوف نفسه قال في رسالة له عام ١٩٣٨ اي قبل عامين من وفاته الى زوجته ايلينا سيرغييفنا بولغاكوف التي كانت الصورة الاولى لبطلته الرئيسية متنبئا : « انها آخر رواية قبل الرحيل » . .

تبدأ حركة كل احداث « المعلم ومرغريتا » ذات فترة في الربيع في اصيل يوم لم تشهد موسكو لحره مثيلا في بتريرشي برودي» مع ظهور الشيطان وحاشيته في العاصمة ذات الحجار البيض . وكانت قصة الجولة الفنية التي استغرقت اربعة ايام لتلك القترة « التي لا تريد دائما الا الشر فلا تفعل دائما سوى الخير » نقطة استناد الحدث في الرواية وهي التي مكنته من التطور المتسارع في الزمان .

ان موضوع الشيطان ، وهو احد المواضيع المحببة الى بولغاكوف ، يؤدي في « المعلم ومرغريتا » دورا واقعيا تماماً . ويمكن اعتباره مثالا باهراً على كشف تناقضات الواقع الحي عن طريق الفانتازيا المغالية في سخريتها . ان فولند يمر كالعاصفة فوق موسكو بولغاكوف منزلا العقاب بكل ما هو شائن وسافل .

ان الماورائيات والغيبيات لا تتلاءم مع هذا السيد . واذا لم يكن لشخص كفولند من وجود فمن الواجب اختلاقه .

ان التحول الخيالي للقضية يمكن الكاتب من تمرير مجموعة كاملة من الشخوص ذوي النفوس القبيحة امام اعيننا ومن تعرية اللامنطقي واللاواقعي من الناحية الاخلاقية في الحياة نفسها ان اللقاء المباغت بالقوة الشريرة يقلب ظاهر امثال برليوز ولاتونسكي وميغل والويزي وموغاريتس ونيكانور ايفانفتش الخ على قفاه . وحفلة السحر الشيطاني التي يقدمها فولند ومساعدوه في مسرح العاصمة « فاريتييه » « يعري »

بالمعنى الحرفي والمجازي بعض المواطنين المتواجدين في الصالة . لكن اهداف الشيطان مختارة . مع هذا ، بكل دقة . والذي يوجه اليها الضربات ويسددها هو القصد الاخلاقي للكاتب وصحيحة ملاحظة الناقد ب . باليفسكي اذ يقول : « لم يتعرض فولند ، الذي هو امير الظلام عند فولند لمن يعرف معنى الشرف ، ويعيش به ويتقدم . لكنه يتسلل على الفور ، حيثما يترك له ثقب صغير ، الى من تراجع وسقط وتوهم انه اختبأ : الى صاحب البوفيه وسمكه ذي الطزاجة من النوع الثاني » وقطعه النقدية الذهبية المخبوءة ، الى البرفسور الذي « نسي قليلا قسم ابيوقراط » ، الى الاختصاصي البارع جدا في « اكتشاف الأشياء القيمة .. » *

لقد استمد بولغاكوف صورة فولند الكلاسيكية ظاهر من التقاليد الأدبية الفنية السابقة ، لكنه أعاد تفسير هذه الصورة التي احتفظت ببعض صفاتها الاوبرالية دون شك وتطويعها .

ليس الشيطان هو الذي يخيف المؤلف وابطاله المفضلين . فقد لا يكون الشيطان . كما الاله الانسان ، موجودا بالنسبة الى بولغاكوف بالفعل . انما هناك ايمان آخر عميق يعيش في روايته ، هو ايمانه بالانسان التاريخي وبالقوانين الاخلاقية الثابتة . وليس انكار برليوز القصص الخرافي المتصل بالآلهة وتفسيره للغريب المريب في تبرير شيء برودي بكل هذه المهابة وفقرة الاقناع ما كان وما لم يكن هو الامر السيء في الموضوع ، بل افتراضه ان هذا « الذي لم يكن » كاف لان يجعل كل شيء مباحا . فالقانون الاخلاقي بالنسبة الى بولغاكوف كما بالنسبة الى كنط من قبله الذي لم يكن ورود اسمه في الصفحات الاولى من الرواية امرا عارضا ، كامن داخل الانسان ويجب الا يتوقف على الخوف الديني من القصاص الموعود ، من تلك الدينونة الرهيبة التي

* ب . ف . باليفسكي . كتاب بولغاكوف الاخير ، وذلك في المجموعة النقدية الادب والنظرية ، موسكو ١٩٧٢ ، ص ١٩٠.

يمكننا بسهولة تبين الموازة بينها وبين الصرع غير المجيد لمحد عالم لكنه فاقد الضمير كان يرئس الماسوليت .

والمعلم الذي هو بطل كتاب بولغاكوف الرئيسي وواضع رواية عن المسيح وبيلاطس بعيد هو الاخر عن التدين بالمعنى المسيحي ، الكنسي لهذه الكلمة . لقد كتب رواية ذات تعبيرية سيكولوجية هائلة ولدونة واقعية تكاد تكون ملموسة بالاستناد الى مادة تاريخية . وتبدو هذه « الرواية داخل الرواية » وكأنما تركز في بؤرتها التناقضات الأخلاقية الكونية التي يفترض في كل جيل وفي كل شخصية تفكر وتتألم ان تعمل على حلها . ان الروايتين المتداخلتين . رواية المعلم والرواية عن المعلم ــ مرآتان متقابلتان ، يتولد عن لعب الانعكاسات والمتوازيات بينهما كل فني يقرن بين الاسطورة والحياة الواقعية في حياة الانسان التاريخية . ومن بين شخوص الرواية تستقر في الوعي بشكل خاص صورة بيلاطس البنطي حاكم اليهودية الخامس في بردته البيضاء ذات البطانة الحمراء ان تاريخ جبنه وندمه يقترب بقوته الفنية من افضل الصفحات في تاريخ النثر العالمي .

ان « المعلم ومرغريتا » عمل معقد وقد سبق للنقد ان نوّه بالذاتية المطلقة لنظرة بولغاكوف الى الواقع الذي عاصره مما ترك أثره في فصول كتابه الهجائية ونقرأ لكونستنتين سيمونوف على وجه الخصوص مايلي « سرعان ما يتبين لابناء الأجيال السابقة لدى قراءتهم « المعلم ومرغريتا » ان المجال الاساسي لملاحظات بولغاكوف الهجائية كانت الأوساط الموسكوفية البرجوازية ، بما فيها الأوساط القريبة من الوسطين الادبي والمسرحي في أواخر العشرينات .

وينبغي ان نضيف اننا لا نشعر بوجود موسكو في ذلك الوقت ، ولا بمجال اوسع لملاحظات بولغاكوف في الرواية . وهذا احد الامثلة التي

اتبني محدودية نظرة الكاتب الى عصره . اننا نتردد احيانا في التفوه بكلمة « محدودية النظرة » حين نتحدث عن كاتب ذي موهبة كبيرة . وعبثا نتردد فهذه اي محدودية النظرة تعكس واقعا قائما دون أن تقلل من شأن الموهبة ، وتساعدنا على ادارك الموقع الفعلي للكاتب في تاريخ الادب . ✻

نستطيع الآن وقد عرفنا الطريق الحياتي الذي سلكه كاتبنا والتاريخ الابداعي الصعب لبعض مؤلفاته ان ندرك سبب تلك المرارة وذلك الضحك الساحق اللذين صور بهما سلوكيات بعض معاصريه الذين يعملون في الادب والفن . لكن ضحك بولغاكوف لايرفض فقط ، بل يؤكد مثلا في الخدمة المتفانية للفن ، هذا الفن الذي وهبه بولغاكوف حياته القصيرة كلها ، من كرامة وشرف .

نحس احيانا ، ونحن نقرا « المعلم ومرغريتا » كأن اطياف هوفمان وغوغو ودوستويفسكي تهوم غير بعيد عنا ، وباصداء اسطورة المفتش الاكبر تتردد في مشاهد الكتاب الانجيلية لكن التمثيليات الدينيةالخيالية التي بروح هوفمان تأخذ طابعا روسيا وتصبح بعد ان نفقد سمات الصوفية الرومنطيقية مرة ومرحة تكاد أن تكون حياته وتبدو موسيقا النثر الفوغولي اشارة غنائية الى المأساوية حين يندفع تيار الرواية الى حده الاقصى الاخير : « ما اشد حزن الارض مساء وما احفل الضباب فوق المستنقعات بالاسرار ! من تاه في هذه الضباب ومن تألم كثيرا قبل الموت » من طارق فوق هذه الارض وهو يحمل على كتفيه عبئا لا قبل له به لا بد ان يعرف هذا . وهنا يعرفه المتعب ايضا فتراه يغادر ضباب الأرض ومستنقعاتها وانهارها دون اسف ويسلم نفسه بقلب جذل الى يدي الموت وهو على يقين ان الموت والموت وحده يريح نفسه .

✻ ل . سيمونوف . راجع مقالته : في روايات م . بولغاكوف الثلاث ، وذلك في كتاب م . بولغاكوف . الروايات . موسكو ١٩٧٣ ، ص ٩ .

وفي الرواية خطوط اخرى تنتهي الى دانتي وغوته . لكن هذا كله بولغاكوف ، فهو وحده الذي يخاطبنا بعد ان صهر في نفسه انجازات سابقيه العظام الفكرية والاخلاقية . ان الموهبة الحقيقية فردة لا تكرر ابدا . وبقدر ما يكون في نهل الموهوب الحقيقي من معين الثقافة الانسانية ومن التقاليد الروحية من عمق وسعة وبقدر ما تقدم لنا من ابداع متوجه الى المستقبل كما نريد ان نراه في ذاتنا تكون قراءته اكثر تميزا واصالة .

لم يستطع المعلم ان ينتصر ولو جعله بولغاكوف ينتصر ، لاخل بقوانين الحقيقة الفنية وخان بذلك حس الواقعية . لكن اهو التشاؤم حقا ما يتردد في الصفحات الأخيرة من الرواية كما أكد بعض النقاد ؟ لا ننسى أن المعلم خلف على الارض تلميذا هو ايفان بونيريف الذي سقطت الغشاوة عن عينيه والملقب سابقا ايفان بيزدومني ، كما ترك وراءه رواية يقدر لها ان تعيش طويلا .

لقد كتب الكثير في « المعلم ومرغريتا » وفكر فيها الكثير وسيكتب فيها الكثير ويفكر الكثير . الكتاب متناقض ولن يشاطر القارىء الكاتب كل افكاره . لكنه لن يقف لا مباليا ، هذا امر يمكننا قوله يقينا . انه سيقرأ الكتاب وهو يبكي ويضحك ، وقد يوقظ الكتاب في نفسه قوى لم يكن ليشك بوجودها فيه من قبل .

« المخطوطات لا تحترق » هذا ما يقوله احد ابطال الرواية . وبولغاكوف نفسه احرق مخطوط روايته ، لكن هذا لم يخفف عنه عباه لقد استمرت الرواية تعيش فقد كان المعلم يحفظها عن ظهر قلب . واعيد ترميم المخطوط ، ووصل الينا بعد موت كاتبه وسرعان ما اكتسب قراء في بلدان كثيرة من عالمنا .

والآن حظيت مؤلفات ميخائيل افاناسيفتش بما تستحق من اعتراف واضحت جزءا لا يتجزأ من الثقافة السوفيتية يؤثر فنيا واخلاقيا في فن النثر والمسرح المعاصرين .

* * *

١ـ شعر التجربة
عند نديم محمد

صالح العياري

كلمة لا بد منها :

قبل ان ابدا بالكتابة عن الشاعر العربي السوري نديم محمد ، كنت قد سمعت اولا عن ديوان « آلام » قبل ان يقع بين يدي منذ مدة ليست بالقصيرة ، واذكر في اليوم الذي كنت مجتمعا مع بعض المهتمين بشؤون الادب ، سمعت الكثير من النقد الشعري الايجابي حول « آلام » . فثمة من قال بان ديوان « آلام » يعتبر افضل ما قدمته الحركة الشعرية

العربية الرومانسية ما بعد جبران ، وثمة آخرون من ذهب بهم التحمس وقالوا بأن « الديوان » ليس اقل روعة من فصل في الجحيم لرامبـو . وخرجت يومها بشغف شديد للاطلاع على اثر هذا الشاعر وتجربتـه الشعرية . ولم تتح لي الفرصة لقراءة اشعار نديم محمد الا بعد ان حصلت أخيرا على مجموعاته الشعرية التي اشرفت على اصدارها دار الحقائق اللبنانية . وكانت « آلام » هي التي اثـارت فضولي القديـم فاخذت المجموعة اقراها وكان اللقاء . وبايجاز ، قبل ان نشرع فـي الحديث عن اشعار نديم محمد ، يجب ان نأخذ بعين الخاطر ، المرحلة التي عاش فيها الشاعر ، والبيئة التي صنعت عجينة شخصيته الاولى ، ثم المناخ الادبي ، والمناهل الابداعية الشعرية التي تربى تحت ظلالهـا واخذ عنها روح الشعر .

مع بداية القرن العشرين ، وهي المرحلة التي نشأ فيها نديم محمد ، عرف الشـعر العربي الحديث اتجاهات جديدة في الكتابة الادبيـة والشعرية ، رافقتها في الحقيقة عـدة متغيرات سياسية واجتماعيـة وحضارية ، كانـت الارضية الخصبة المهـد الذي ثارت فيه الرومانسية العربية الشعرية ضد الكلاسيكية الادبية والشعرية ، وما كانت تمثله من سلطة على مستوى الكتابة الابداعية وتحديد شروط النص الادبـي . وقد هبت رياح التغيير الشامل على القصيدة العربية بعدالحرب العالمية الاولى ، وانتقلت اثار الرومانسية الاوروبية المتأخرة الى القصيدة العربية من خلال سبل المؤثرات الادبية الخارجية . وكان الدور ــ للغناء ــ مجددا مرة أخرى ، ممثلا لرمز الانبعاث والتحول . وفي هذا السـياق ، وجد الشعراء الرومانسـيون العرب شكلا تعبيريا جديدا للخلاص مـن وطأة الخوف الذي اصبحت تشكلهــ المدينة ــ والحاضرة وما اصبحتا تمثلانه من قيم مدنية واخلاق علمانية جديدة ، اخذت تزحف علـى النموذج الطبيعي الريفي والقروي ، وما كان يمثله مـن قيـم ثقافية واجتماعية تقليدية . ولكن أصول هذه الشعرية الرومانسية ليست

بطارئة على الشعر العربي الذي كان يمثل سجل الامة الحضاري . حيث كانت هذه الشعرية الرومانسية والغزلية الغنائية القديمة ، قد سبقت الشعرية الرومانسية الاوربية بمئات السنين . بل لنقل بأن هذه الشعرية الرومانسية العالمية ، قد ابتدعها الشعراء العرب الاندلسيون الجوالون (التروبادور) زمن مجد الحضارة العربية الاسلامية في اسبانيا وقد قدر مرة اخرى لعودة الشعرية الرومانسية العربية القديمة/الجديدة لتفجر قلب القصيدة الحديثة وتدفع بها الى براكان الحداثة الشعرية .

وكانت الموجة الرومانسية كبيرة بحجم الارث الذي مثلته ، فظهرت جماعة أبوللو التي كان يمثلها ابو شادي ، والبارودي وعلي محمود طه ، وابو القاسم الشابي ، وفي المهجر كان القديس والشاعر جبران خليل جبران هم اكبر من ارسى دعائم الشعرية الرومانسية العربية منذ بداية هذا القرن . وعرفت القصيدة العربية الحديثة انقلابا مهما على مستوى وسائط التعبير الفنية والموضوع . ويعتبر نديم محمد قريبا جدا من جيل الرواد الكبار وسليل الشعرية الرومانسية العربيةالجديدة فلقد اخذ عنهم الكثير اضافة الى انه تشبع من اجواء الرومانسية والطبيعة ؛ فجاءت قصيدته حاملة لتلك المناخات والرموز الشعرية الثورية التي عرفتها اخصب مرحلة شعرية عربية في هذا القرن .

الشعر والتجربة عند نديم محمد

عندما تقف على الموضوعات التي تطرق اليها شعر نديم المحمدنجدها في الحقيقة متنوعة بتنوع موضوعات عصره ، فالحركة الرومانسية التي تمثلت في شعره ، لم تترك موضوعا الا وتناولته ، ولذلك فان حصرها يتطلب جهدا وتنقيبا دقيقا حتى يفي المرء بهذا الغرض . ولكن اخصب الموضوعات الشعرية التي تناولها الشاعر ، ولنقل موضوعاته

الاساسية هي الحب ، دور «الكاس» في حياته ، المرأة ، الذات ، المجتمع الطبيعة ، العذاب ـ الفشل والخيبة . هذه هي الموضوعات التي كرسها نديم محمد في اشعاره واعطاها جزءا كبيرا من حياته .

اللغة الشعرية الفضاء الشعري

ان اهم ما يميز اللغة الشعرية عند نديم محمد ، يتمثل في خلو لغته من سلطة الاختبار اللغوي التقني بمعنى أنه لم يعط أولوية للهندسة اللفظية ولم يمل الى الصناعة الشعرية أي ان اختباره للفظ الشعري ، كان يحدده ايقاع روحه اللاهب في الزمن الشعري المتجمد . وبالتالي فان اية خارجية للبناء الهندسي اللفظي لم تجد طريقها الى قصائده . لقد كان نديم محمد يتنفس الشعر من رئتيه ، وكما كان يراه . كما انه كان ميالا الى محاكاة الواقع والتعبير عن التجربة بالصدق وبالوسائل التي تربى عليها ، وتدرب لسانه العربي بأسسها ، فهو سليل الريف الذي جعله يرث روح الكلام الريفي ويحافظ على السلوكات الحسية المباشرة . ومن خلال تربية نديم محمد البسيطة ؛ فان تعامله مع اللفظة واختياره للمفردة الشعرية ، لم يخضعه الى درجات قياس البنية الهندسية والتقنية الفنية . ان عباراته ولغته ، كانت تبيت بعمق بين المخارج التي تتشكل منها حتى بعد انتقالها من مستوى المباح الشفهي الى مستوى المباح المتجمد الكتابي . ان الشعر عند ندم المحمد قول يتبعه قول وذلك كما كانت تقوله العرب :

«فـرغ اليأس
ما رد الحـزن
مـن قتلي
والقى .... لوحدتي
اشـلائي
جمعت بعضهـا

وصارت
الى ركن عجوز
مصدع الاجزاء . »

هوذا ما كان يفهمه نديم محمد في نطاق التجربة الشعرية ، وان هذه التجربة تمثل عنده تجربة « ثنوية » بين جنس الموضوعات التي كان يتمثلها والاحساس الذي يولد معها . اذن ؟ وانطلاقا من ذلك وكما أشرنا سابقا ، لم يكن لوجود الاختبار اللفظي وصناعة الصورة الدقيقة والتقنية الثقافية الذهنية الشعرية في القصيدة النديمية ، اي وجود سابق على قول الشعر . ان الشعر كما يفهمه نديم هو لغة البوح التلقائي وهي لاتصير لنفسها الا اذا قالت الكلام الخاص فحسب . وبهذا المعنى فان الشفهي والكتابي الشعري يصبحان شيئا واحدا حين يتحققان في النص . وان الواحد هو الاخر في الكتابة الشعرية ، اذ ان خارجية الكلام الشعري وسريته يصدران عن قوة الخلق الواحدة التي هي من فعل الروح المبدع :

« ايها الزهو
نم غبارا
على الارض
وكحل عينيك بالادران . »

ولذلك فان قصيدة الشاعر لا يستيقظ قولها الباطني من سكونه ، الا حينما تجيء ساعة الولادة ، ولادة الكلمات من حيث هي كلمات فقط ولكن تجربة نديم محمد الشعرية لم تكن قول الكلام الشعري اولا واخيرا وانما هي تجربة للموضوعات تتم بواسطة فعل اللغة . واذا كنا نميل الى ان تجربة الشعر الاساسية ، تتمثل في تجربة الموضوعات والاشراقات الحسية المتعالية فان ذلك لا يعني من جهة ثانية استبعاد اللغة من الجوهر الذي جاء الشعر لاجله .

ان اللغة الشعرية وأصولها التقنية ، بقدر ما هي مولد للكلمات حين تستخدمها الموهبة الخلاقة للتعبير عن الموضوع ، فهي ايضا منفصلة بحدود ما عن المعاني التي يحملها الموضوع اليها ، رغم التباين الذي يحدث بينهما خلال لحظة الفعل الخالق في كل نص مكتوب . وهذا يعني أن اللغة برموزها واشاراتها والصناعة التي تمثلها تشكل الاس المركزي ــ للمكتوب ــ Ecrit وبدونه لن يكون للنص الشعري اي وجود تقني . وعندما نتحدث عن الوجود التقني للقصيدة ، فاننا نعني الشكل الاسمى الذي يحمل روح الشعر في القصيدة . وانطلاقا من ذلك فان نديم محمد لم تكن همـوم ثقافته اللغويـة وتركيبها الحسي الذهني بمستوى قوة وهموم موضوعاته الكبيرة . ولعل ذلك يرجع الى تخوفه وارتداده عن ما قام به رواد الحداثة الشعرية كون ذلك لم يكن يتناسب مع التكوين الداخلي الذي نما عليه والذي يمثل نموذج الريفي . وعلى هذا النحو فان ابتعاد نديم محمد عن التفجيرات التقنية والفنية التي رافقت فجر الحداثة الشعرية العربية ، يرجع الى اسباب معقدة ، ذاتية وموضوعية . اضافة الى ان الشاعر كان متقصدا طرد الاختبار اللغوي الحديث وتجربة تقنية الحداثة من قصيدته ، كمثل دعوات التخريب العقلي للغة الشعرية السائدة الخ .... حيث كان ينظر اليها على انها دعوات مبيتة ضد الاصالة الشعرية العربية وعدوة اللسان العربي . وهنا لا نستطيع ان نحاكم نديم محمد في رأيه هذا ، فنحن لسنا في حل من ذلك ، لان مثل هذا الرأي يتطلب نقاشا واسعا حول قضايا الحداثة . لكن ومع كل ذلك لم يكن نديم الشاعر منغلقا على الشعرية العربية القديمة ، وانما كان لديه ومن الموقع الذي يحتله ، اصرار مسبق على تجاوز القديم ضمن اطار الاصالة الشعرية العربية دون الخروج عنها . واستنادا لذلك فهو يفهم الشعر بانه ضرب من الكلام البسيط المصفى الذي يفيض به اللسان وتطرب له الروح العربية . وان الشعر عنده هو المرآة الحقيقية التي يرى فيها الانسان نفسه ، بصدقه ، وبكرهه ، بكبريائه ، وبنفاقه وكذبه وكل ذلك نقوله بواسطة القـول البسيط :

« مـن انـا ؟
شـهقة
مـن الامس
تنصب حريقـا
في وحشتي
واكتئابي . »

من خلال صدق التجربة وعفويتها الحسية . وهنا تبدو لنا اولى خصائص هذه التجربة في حدودها القصوى والتي تشكل أول عناصر التكوين الفضائي للقصيدة النديمية . وهكذا فان المعايشة اليومية للاحداث وخبرة الابصار الحسي والمرئي ، تصبح المانحة الاولى لشكل القصيدة وبنيتها وتركيب ألفاظها . الا أن هذه المعايشة اليومية وتجربة الشعر والعفوية تظل مشدودة الى النزعة الكلاسيكية الشعرية التي مثلتها اهم موضوعات الشاعر ، كموضوع الخمرة ، وهجران الحبيبة ، والخيبة في الحب ، والشعور بالفشل والمرارة وهذه الموضوعات كما قلنا قد استهلكها الشعر العربي القديم وكتبت فيها أعظم القصائد العربية القديمة . ولذلك فان حركة هذا الاس الثاني للفضاء الشعري النديمي لم تكن حركة ذهنية واعية باتجاه كسر شديد للقوالبالشعرية الجامدة وتجاوز لتقليدية الموضوع . وهذا بالضبط ما فعله بعض معاصريه من الرواد ، والذين هم اكثر موهبة شعرية منه ، حيث تجلت عندهم عناصر التكوين الشعري الجديد متجاوزة الموروث التقليدي السلبي والجامد . ورغم أن الشاعر نديم محمد قد رفض ــ المدينة ــ ودعى للعودة الى الريف ، وهي الدعوة الاصيلة لكل روح رومانسي ، فان هذه الدعوة للعودة النديمية ، جاءت محمولة في فضاء شعري عادي ومعبرة عن خيبة ذاتية صرفة لم تبلغ ذروة الشدو الشعري ويبقى الحسي المتعالي دونها :

« عد الى كوخك
[العتيق]
الى الشعر
الى الخمر
في عتاق الدنان
عنده ...
الى مسكب الزغاريد
في الريف
واجوائه الرطاب
الحسان . »

ومع أن الاحساس واضح لهذه التقليدية الشعرية الرومانسية في شعر نديم محمد ، الا انك تحس بالمقابل بجمالية التجربة واستحكامها لروح الشعر . ولا تخلو القصيدة أيضا من استشراف للموضوعات وبدائلها الجديدة ، فمثلا حين يفشل الشاعر مع المدينة ، ويضيع حبه فيها ، وبالتالي يصبح العالم برا جحيميا لا يطاق — وهي تجربة الذات في مقابل تجربة العالم — فان مولد المرأة الجديد بعد تجربة الخيبة ، يصبح خلاصا مشتركا للذات والعالم المتهدمين . وتصير المرأة مرة أخرى رمزا مثاليا للوحدة العليا بين الذات والعالم — المتمثل « بالمدينة » وتخرج الذات من الجحيم لتدخل في الجنة جنة الكأس والحب ، أي حب المرأة . ولكن هذا اللجوء الى المرأة كرمز خاص لانقاذ الذات/العالم من الزيف والعذاب والشعور الخائب بتفاهة الوجود ، يبقى أسير الحدود الطوبوغرافية لجسد المرأة وأخيرا فان الشاعر يعجز عن تحويل هذا الرمز الى نقطة التعالي الشعري ويبقى خارجا عن الديمومات الحسية الابدية والعالية للوجود المشترك بين الروح والجسد :

« متعيني بالدفء
والقبــل والخمــر
وما شئتــه
من المعصيات . »

ولعل التمظهر الحسي « للكبت » يشكل هنا احد العوائق الموضوعية للقصيدة ، وهو لا يؤهلها لسبر أعماق التجربة الشعرية الشاملة . واستتباعا لذلك فان القصيدة النديمية نجدها تنوء بثقل هذا «الكبت» المركب من بغضاء اهل القرية للشاعر الذي ابى الا أن يدرس في بلاد الفرنجة ، اضافة الى ظروف المرض ، وضعف المولد ، والفشل في الحب والعطش اللامتناهي لجسد المرأة وما يمثله لديه من لا ارتواء جنسي :

« وغفــا الليــل
حــولنــا
آثامنا ... القاتمات
والــى الورد
حملنــا
وافقنــا ...
يا حسرة العمــر
ما اقصر ليل السوائغ
الماتعات . »

وهو الذي قال بنفسه في مقدمة ديوانه « فراشات وعناكب » :
« وشيئا فشيئا ، وخطوة خطوة وقعت في ما لم يكن بد أقع فيه « الكبت » .وتوهمت ان في الخمرة حلا لمشكلتي ... واستعر جحيم الكبت في صدري ، حتى احسست له مخالب ونيوبا تجرح وتمزق ... وانهملت على جراحاتي لسعات الحب ... الى جانب ضعف مولدي ، ومرض ملازم ودمامة أو تشويه كما صوره لي اخوتي الخ .. »

وامام هذا الشعور الحاد والمركب بالنقصان ، تصدعت معالم الذات الشاعرة وعششت فيها المتناقضات الذاتية الخاصة والعامة وحرمتها من الوقوف امام مطلق المرآة .

واذا كانت المتناقضات التي تحدثها المقاومة بين ما هو خصوصي وما هو عمومي ، تمثل أحد ينابيع الشعر ، فان ذلك ما لم يصر الى مجراه المبدع في القصيدة النديمية . وان هذه القصيدة من جهة اخرى ، لم تصعّد « الضدية » التي تنتج عن المفارقة بين عالم الذات المتصور الذي تسعى الى تحقيقه ، وبين العالم الواقعي الذي هي تمثل جزءا منه . ان عالم المثال الشعري الذي كان يحلم به نديم محمد قد بدد ابراج تعاليه « الكبت » الذي اتعب روحه وجمل بينها وبين عظمة الشعر فرسخا طويلا ، رغم ضخامة عمق التجربة الشخصية للشاعر وخفقان موهبته الاصيلة بروح الشعر العظيم :

« أنا امس الالام
والسقم
والدمع
وآه الربى
وطيف الهضاب . »

واخيرا فان تهافت التعالي الشعري في القصيدة النديمية ، يبقى متراوحا ما بين التحقق المثالي العظيم ، وبين اشراقات وجودة الدنيا التي مثلتها القصيدة :

« اتركوني ...
اموت كالضوء
في وحشة كهف
وفي خواء ...

حفير .
اتركوني
امضي عزيزا
فلايحمل شيبي
مياسم التعفير . »

ونحن اذ نقر بخلو التعالي الشعري في قصيدة نديم محمد ، فان هذا لايعني اغفالنا للظروف والبيئة التي نشأ فيها. ومع ان هذا التبرير عادة ما يكون غير كاف امام مهمة النقد الشعري لان الموهبة تستطيع ان تكون ... حتى ولو كانت في بحر من عدم . ولكننا لا نختلف بان نديم محمد يعتبر ولا شك في ذلك من رواد الاتجاه الرومانسي للشعر السوري الحديث منذ بداية هذا القرن . وانه ولا شك في ذلك ، كان جسرا شعريا هاما عبر عليه شعراء ما بعد مرحلة الرومانسية الشعرية السورية . ويبقى اخيرا له الفضل في اختراق الانحلال الذي اصاب الشعر السوري والاستكانة الى التقليد في عصر نديم . فكان الرجل يمثل بشعره احد العوامل التثويرية التي دفعت بفجر الحداثة الى النور ، رغم رومانسيته الشعرية المتواضعة في حدودها الريفية الضيقة التي لم تستطع اختراق الحواجز الذهنية الكلاسيكية الشعرية العليا . وذلك مثلما تجاوزها باصالة عظيمة ، كل من الشابي وجبران خليل جبران ثم تلك الثورة الشعرية الرومانسية الكبرى التي احدثاها ولم تصر الى اكتمالها الشعري العظيم من بعدهما .

★ ★ ★

٢ـ بحث في المقامة العربية

فيرنر شولتزه

عرض: د. سامي الربّاع

يعتبر « فيرنر شولتزه » من اكبر المدافعين عن اصالة الموروث الادبي وحيوته .. ومن اقوى الباحثين ارادة علمية لنفض الغبار عن اساليب وانواع كتابية انقطعت عنها الممارسة الكتابية الحديثة .. كما انقطع السبيل الى فهم ذخائرها وتبيان المهارات الدقيقة التي تضمنتها ، وتحديد محتواها الاجتماعي كاستراتيجية ابداعية كاملة في سياق زمني معين .

والطريقة المثلى التي ينتجها هذا الباحث الالماني تبتعد تماما عـن ما هو معهود في دراسة الادب العربي .. اي ان هذا النمط من الدراسات التاريخية، الوصفية ، الذي يقترب من مدرسة « الحوليات » الكلاسيكية في التاريخ لا يتبين الا العصور الادبية ، ثم يرتكب غفلة تفحص ما هو راكد ومسكوت عنه في نسيج المتن الادبي وتكوينه شعرا كان او نثرا وما يجمل في نهاية المطاف .. هياكله البنائية . ومما لا شك فيه ان النقـد الادبي القديم بدرت منه جهود مثلى لفهم ما انتجه العرب من شعر ونثر .

يعتبر « شولتزه » « المقامة » ظاهرة ادبية فريدة من نوعها ذات خصائص مستقلة ومشتركة في نفس الوقت . ويبحث المؤلف في كتابه عن احتمالات وامكانيات الاواصر التي يمكن ان تمتد للظاهرة او تنحصر بها او تجملها تنقطع تماما مما يعد بعضه من قبيل الاهتمام بنظرية علم اجتماع الادب ... هذه النظرية التي لم يشرع بعد جديا في اقامة اسسها الا بكيفية جزئية وباستعمال العديد من المناهج والمفاهيم استعمالا مناسبا . ويعتقد المؤلف انه بالوسع اعتبار عمله والاعمال المشابهة منطلقا لابحاث رائدة تعد الدراسة المونوغرافية مثالا لها .. ومضمارا لتوليد الاجزاء وحصر الكل من خلالها على نهج التاسيس التدريجي لنظرية علم اجتماع الادب .

ومن هنا يأتي اختيار « المقامـة » لتكون مصدر التوليـد ومناط النظرية . والحقيقة ان « شولتزه » لا يدعي التنظير بقدر ما يؤكد على التشخيص والتحليل لوجوه المقامة المختلفة . وهذا من خصائص عمل الباحث البنيوي ، ومن بساطة الباحث المتواضع . ويعرض شولتزه طريقته في التحليل والتمحيص وجهازا مفاهيميا واسعا . ويكرس المؤلف كل هذا في تحليل المقامة ... اسباب وجودها ، وانقطاع انتعاشها وذلك في اطار الظاهرة الادبية العربية بكاملها . وهنا تتدخل سوسيولوجية الادب في مظهرها الثقافي المحض ... اي بتقييد الشروط الثقافية . ويسميها الباحث السنن Codes التي بواسطتها وفي ظلها كان الادب

(المقامة) ينتج ويلقى سبيله الى الذيوع . وتنطبق هذه السنن على صاحب المقامة الذي كان يتمتع بترحيب مجالس الخلفاء والامراء والوزراء ... وتنطبق ايضا على تفاوت زمن انتاج المقامة من حقبة الى اخرى . وان سيادة قانون المقامة على جميع الخاضعين لها والمادة الخاضعة لها هو مايجعلها شكلا ادبيا متميزا عن غيره من اشكال الادب الاخرى . ومن خلال اعتماده على البنائية في التحليل يبرز المؤلف العلاقة القائمة بين الواقع والخيال وبالتالي البنية النثرية الخصوصية التي تسبك خطى النص المقامي والتي تمثل وضعية فنية فريدة . ومن خلال كل هذا تبرز قدرة المؤلف البارعة على تحليل المقامة شكلا واجتماعيا .

ويؤكد شولتزه ان المقامة ليست بحكاية . فالحكاية ليس لها مؤلف ، ومن العبث ان نجد لها صاحبا اصليا . اما المقامة فهي على العكس من ذلك . فهي قد ظهرت في وقت محدد من الزمن ، ولها مؤلف ، ولهذا المؤلف سيرة حياة يمكن الرجوع اليها ، ومقلدون معروفون ، وبالامكان تمييز الاصل من المقلد .

ويتعرض الباحث لاصول المقامة ويتساءل ما اذا كانت تعتبر نوعا أدبيا ذا خصائص واضحة متميزة عن غيرها . ويقول انه من المعروف ان المقامة انطلقت في القرن الرابع الهجري وانتشرت في معظم البلاد العربية . ويعتبر شولتزه المقامة شكلا ذا انواع متعددة ، وهذا يجعل المقامة تشبه القصيدة . ولكن اذا كانت الانواع الشعرية العربية تجد مقابلاتها في الثقافات الاجنبية : فان المقامة تبدو عربية خالصة . اما الاسباب الحقيقية لظهور المقامة فهي غير معروفة ... فقد ظهرت مثل زهرة برية لا نعرف كيف تفتحت .

ويعتبر المؤلف ان هذا مبرر لدراسة هذه الظاهرة الادبية ـ الاجتماعية بدقة وتمحيص اكبر . وهو ما غفلت عنه كثير من الدراسات

التي تناولت الموضوع واتسمت بدراستها لجوانب معينة من الظاهرة . ومن هنا يستمد بحث شولتزه اهميته . فهو لايسعى الى دراسةشاملة فقط من خلال التحقيق القاموسي او السياقي او التداولي للمصطلح. وانما ايضا من خلال استخلاص وتوليد الضوابط التي تتكون منها المقامة ، وتحليل الحالة الاجتماعية التي حكمت العلاقة بين المؤلف والجمهور .

واذا كان شولتزه لا يختلف مع الثعالبي والحصري في ان الشكل المقامي لا بد ان تتوفر له ثلاث خصائص : رشاقة الاسلوب ، موضوع الكدية ، نسبة الخطاب ... فانه لا يعتبر هذه الخصائص مقتصرة على المقامة وحدها .. ومن هنا يقف على الخاصية الرابعة التي تمثل لديه اهم ضابط للشكل وتظهر في اتباع الافعال الحكائية لتسلسل لا يتغير . وبهذا المعنى فان البنية الحكائية هي اهم ما ينبغي ان يكون مناط المقايسة ، وبالتالي فهي تشكل اهم خاصية تنفرد بها المقامة عن غيرها من النصوص .

وهذه البنية تقوم على مبدأ اساسي هو مايحدد وضعها وقرابتهامع نصوص اخرى ، وهو بالتحديد مبدأ التعرف ... تعرف الراوي على البطل .. تعرف عيسى بن هشام على ابي الفتح الاسكندري . وهناك مبدأ آخر بمقتضاه تصبح المقامة نوعا من الخطاب الذي يتخطى الانواع.. لا نوعا أو شكلا مستقلا بذاته بالضرورة ، فهي تكون متوفرة على الحيازات التكوينيه للنوع من قبيل نسبة الخطاب مثلا . ويشير الباحث الى ان المقامة عبارة عن حكاية ولكن بمعنى التقليد والمحاكاة . ان من الخصائص الاساسية للحكاية هي نسبة الحديث فيها ، ويكون الحديث متناسباً مع وضع كل شخصيه....وبما ان النسبة تكون مرتبطةبالتقليد (اي تركيب خطاب مرتبط بالدور الاجتماعي للشخصية) فان كلمةحكاية تعني من باب الكناية الى جانب التقليد القصة .

اخيرا ، إن اهمية دراسة شولتزه تنبثق من التساؤلات الهامة التي يطرحها في نهاية البحث ، حيث يسأل : ماذا تفعل بالمقامة ؟ انه يدعو الى سلك طريقين ... الاول يدعو الى تجديد النصوص القديمة على ضوء اسئلة جديدة تطرحها العلوم الانسانية ولاسيما الاجتماعية منها .. والثاني يدعو الى كتابة هذه النصوص كما اعاد الاخرون كتابة الاوديسة واوديب الملك . ويدعو الباحث زملائه والعرب المختصين الى دراسة المقامة والاجناس الادبية العربية الاخرى وذلك في ضوء علم اجتماع الادب ... انها دعوة جديرة بالاخذ بعين الاعتبار .. تضمن دعوة لمعانقة الانتاج القديم واعادة استثماره في ضوء المعرفة الحديثة .

★ ★ ★